



الكاتب: إسلام حمدي منصور

رقم الإيداع: 23844 / 2018

ISBN: 978-977-798-009-8

الطبعة الأولى يناير 2019

سبع
تسنايل

دار الحلم للنشر والتوزيع والترجمة ©

عضو اتحاد الناشرين المصريين

القاهرة - جمهورية مصر العربية



E-mail: dar_el7elm@hotmail.com

info.darel7elm@Gmail.com

Tel: 00242216335 - Mob: 00201141824562

Sales Manager Mob :00201146644959

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

إن دار الحلم للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعتبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار، كما أن جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار ولا يجوز طبع أو إعادة استخدام أي جزء من العمل في أي صورة كانت إلا بموجب موافقه خطية من الناشر..



سَبْعُ سَنَابِلٍ

الكَاتِبُ

إِسْلَامُ حُدَيْ



إهداء

كـيـومٍ أشرقت فيه عوْضًا عن الشمس فكان في شمسكِ الظلُّ!
إلى أُمي -رحمة الله عليك-

تحسين أنكِ رُزقتي السَكينة، وفيكِ هي مَنْ سَكَنَت.

إسلام حمدي منصور



"أله عدو لك سيقتبر، فري آخر مكانه يُمكن أن تنظر إليه"

يوليوس قيصر



الفصل الأول

"لم يكن لقلبي أن يفارقك.. ولو في خيالي"

في أمسية من ليل يغلبه السكون من وقع صمتٍ لا يقطعُه صوتٌ،
وبينما وجه السماء يعتريه قمر في بدر. إذ بصوتٍ عذبٍ يلمس وتر الآذان
في حفيفٍ وحسيسٍ ملائكي:

- لمعان حَذَقَ عَيْنَاكِ فِي الضَّوِّ الخَافِتِ يستحضرني بِمَقْطُوعَةِ فِرْنَسِيَّةِ
عَتِيقَةِ عُزْفِ أَلْحَانِهَا لِأَجْلِكَ، وَمَعَ تَتَابُعِ القُرُونِ غَابَ صَدَاهَا عَنْ كُلِّ
المَعزُوفَاتِ إِلَّا وَأَنْنِي قَدْ عَثَرْتُ عَلَيْهَا أَخِيرًا، كَمَنْ وَجَدَ ضَالَّتَهُ ثُمَّ
اهْتَدَى.

- "مَا لِي لَا أَرَاهَا، تُرَى أَيْنَ هِيَ الْآنَ تِلْكَ المَعزُوفَةُ؟" عَلَى اسْتِحْيَاءٍ
مُفْرِطٍ تَقْصُ "حُور" شَرِيطَ الصَّمْتِ.

فترى "حور" وجهه يتقلب في السماء:

- إِنَّنِي أَمَعِنَ النَّظَرَ فِيهَا الْآنَ!

- تَقْصِدُ أَنَّهَا تَسْكُنُ السَّمَاءَ؟

- بل تسكن القمر! قمر وجهك! فمثلكِ عندى كمثلي القمر في
استدارة وجهه وبهاء ثغراته، وليس على سبيل المبالغة إن صارحتك بأن
القمر يسكن في جوف عينيكَ.

- أتعلم يا "ريان" أن كلماتك أشبه بفوهة مدفعية حربية لكن لم تكن
أبداً لتحمل باروداً، وإنما مشاعراً فياضة تنزل على القلب فتزهر!
- "ربما الفارق بين ثنائية الحب والحرب كبير، ولكن أن تعلمين؟ كنت
دائماً على يقينٍ بتواجد قاسم مشترك يجمعُ بينهما" ثم تفيض عيناه
بالاتساع.

ثم الشغف من داخل عينيها يثور كاللهب المتراقص!

- وما هو يا ثرى؟

- كلاهما يدافعان عن الشيء ذاته.

ثم صمت قليلاً بعد أن ألقى نظرة في النجوم.

- يدافعان عن حق الوجود!

فكان "حق الوجود" آخر كلمةٍ ينطق بها "ريان" تلقاء زوجته
ورفيقة دربه "حور" من قبل أن يفوح من أعينها النوم في جوفٍ من

الليل متأخر. فما يكون النوم إلا عالمٌ آخر خلقاه سويًّا؛ ليلتقيا روحياً في خباياه، وخيالاته الحالمية، وفي غصون حياة زوجية واعدة ينتظرها إشراقة برّاقة، ولطائف جميلة تواقّة.

هم في الحب تعاهدا على حصر العُسر باليسر، ومحق الضيق بالتهوين، فلا يحوم من حولهما طائفٌ شيطاني يبثُّ بينهما بعداوة، ولا يُنغص عليها ببغضاء.

هو الذي يراها في الجمال معجزةً من عند الله بعد أن عجزَ في إيجادها فيمن غيرها. كانت كمثل تلك المرأة التي قد ينشب من أجلها معارك طاحنة تستمر لعقودٍ طويلةٍ من الزمان، أو أن يختصم عليها رجلان فيتقاتلا فقط من أجل الظفر بها. كان سحرها ينفث في عُقد القلوب محبة بلا أدنى مواربة.

وهي التي شاعرة في أنفاسه سكوناً كمثل من تنتزل عليه الملائكة، وهو قائم في المحراب. فلا تجد لقلبها من ملجأ، ولا مرتع إلا وكان لها البيت، والسكن. كان رجلاً صاحبُ خصالٍ لا تجتمع إلا مرة كل قرنٍ من الزمان.

الليل يمضي، وكلا الزوجان يغطان في سبات عميقٍ فلا يُسمع لهما همساً، ولا من حركةٍ طرفاً. حتى تنفلت خيوط الصباح الأولى، ومعها ينشَرُ صدرُ الصباح بعد الظلام تنفُّساً. فينسلُ سناء شمس الظهيرة من بين الستار فيوقظ "ريان" من نومه. فيفتح نصفَ عينيه في إيقاعٍ بطيء، ليستشعر لأول وهلة شدة إيلامٍ بمفاصله وأنه قد نام من السنين أحقاباً.

- "حور" عزيزتي رأسي يكاد ينفجر من الألم!

أغلب الظن أنها لم تستمع لنداءه فعاود التكرار، ولكن بلا طائل. فرفع رأسه من على الوسادة وفتح عينيه؛ فيجد الهواء من حوله مُعبئاً بالضباب، وكأنَّ زوجته تحرق الطعام بالمطبخ، وهي تُعد وجبة الإفطار، ولكن سرعان ما دخل الشكُّ على قلبه إذ أن الشمس كانت ساطعة للغاية، ليخرج من غرفته فيجد الشقة بأكملها غارقة في ضبابٍ كثيف لا يُعرف مصدره ثمَّ إذا به يقرأ الساعة بصعوبة فيجدها الثانية عشر ظهراً، متسائلاً كيف له وأن نام كل تلك المدة؟ فيجأ بصوته عالياً.

- يا "حور"!!!

فما من أحدٍ يجيب. حتَّى شرَعَ في دخول المطبخ فيرى دخانًا كثيفًا،
كما أن صنبور الماء كان مفتوحًا وبأسفله خضراوات كانت في سبيل
غسلها بالماء، ولكن شيئًا ما قد حدث منع "حور" من غلق الصنبور!
يبدو أنَّها بالفعل كانت تعد وجبة الإفطار. ثم يُعاود النداء مجددًا فلا
يُسمع لها صوتًا ولا يُبصر لها ظلًا! فإذا قام الإتصال بهاتفها وجد الهاتف
كما تركته في الليلة الأخيرة بغرفتهم! فلم يجد "ريان" نفسه إلا وهو في
حالة صرع كالمجنون يتصل بصديقه في المباحث العامة النقيب "رفيق".
- "رفيق" اسمعني جيدًا، أخشى أن ما لم أكن أتوقعه قد حدث.
"حور" قد انشقت الأرض وابتلعتها! والبيت مكتومًا بالضباب
وأتنفس بصعوبة بالغة، أنقذني يا "رفيق" !

فتتحرك القوات بالدعم وعلى رأسهم النقيب "رفيق" تجاه منزل
"ريان" الغارق في دوامةٍ من اللامنطقية والشرود. وحين وصل وجد
سيادة النقيب الباب مفتوحًا، والدخان يتصاعد منه، ثمَّ يجد "ريان"
يقف بالخارج، وعيناه متبرمتان من عجزه عن فهم ما يحدث. ثمَّ بعد
مُصافحةٍ باردةٍ يتسائل سيادة النقيب مُستفهمًا:

- ماذا جرى؟ كنتَ تتحدثُ سريعاً ولم أفهم منك، ماذا حدث
لـ"حُور"؟

ولسان حاله مصاباً بالشلل:

- حين فتحت عيني لم أجدها بجانبِي، وإنما كان البيت بكل شبرٍ منه
يتصاعد الضباب. فلا كنت بقادرٍ على التنفس، ولا أنا أجد "حور" في
البيت، وكأنها تبددت كتلاشي حُبيبات السكر في الماء!

وعلى الفور! يأمر النقيب "رفيق" فريق بحثه بتمشيط كافة أركان
المنزل، وهم يرتدون ملابس مخصصة تماماً للتعامل مع هكذا موقف
بالإضافة إلى أقنعة مخصصة ضد الرؤية في الضباب. كانت مهمتهم هي
الاستدلال على خيطٍ أبيض يُقَرَّب سُبُل الوصال من الخيط الأسود.
ليس هذا فحسب، فبعدما طلب من "ريان" صورة حديثة لـ"حور" أمرَ
بالبدء فوراً في تحري شهادة من قد رأوها خصوصاً، وأن المنطقة تعجُّ
بالسكان والضجيج. كما أمرَ المجموعة ذاتها باستفراغ كافة شرائط
كاميرات المراقبة المجاورة للمنزل.

فإن فرغ من إعطاء الأوامر فهو يُجري إتصالاته رفيعة الشأن بالقيادات العليا؛ لفرض كودون أمني على مداخل المائة كيلو متر المحاطة بالمنزل.

وبالفعل يبدأ فريق البحث الجنائي بدقة في كشف مُلابسات ما حدث، فبدأوا بالخيط الأقوى، وهو غرفة الزوجين ثم باقي المنزل ليبدأ البحث، وينتهي سريعاً بعد أوّل تطابق اكتشافي لأمر مريب!

ومن خلف أقنعة أحد المسؤولين، وبجانبه مسئول آخر يحترز ما عثروا عليه:

- سيدي! لقد عثرنا على عبوات غاز في كافة أرجاء المنزل، يبدو أنّها المسؤولة عن هذا الضباب الأبيض. وبعد تحليل محتوي بعضها اتّضح أن إحداهنّ تحتوي على مادة مُخدرة بالاستنشاق وهي "ايزوفلورين" فتوضع علاماتٍ من الاستفهام على ما حدث بلا أدنى تفسيرٍ منطقي! وما كان وقع الخبر على "ريان" إلا أنّه صَعِقَ صَعْقاً، لِيُطمأنه النقيب "رفيق":

- الأمر مريب للغاية! حقيقةً لا نعلم لماذا فعلت هذا ولكن الأهم أن مُحاولتها في الهرب لن تبوء بالنجاح. سوف نتتبع تلك العبوات ونعرف مصدرها ومن أين تمّ شراؤها!

ليُقاطعه "ريان" في تشكك بعد إذ هاجت أمواج وجهه ثائرة:

- كيف يعقل؟ مُحالٌ هي أن تكون مُحاولَة هرب!

فيرتدي قناعاً ثمّ النقيب "رفيق" يرتدي آخر ثمّ يدخل المنزل تماماً إلى غرفتيهما:

- ألا ترى أن جميع أغراضها ما زالت ساكنةً في موضعها؟ ألا ترى أنها تركت هاتفها، وملابسها، وجميع ما يمتُّ لها بصلة!

ثم ينقطع "ريان" عن الحديث فجأة، مُتجهاً صوب خزانة الأحذية :

- الآن أخبرني كيف يُعقل أن تكون محاولة هرب، وقد كانت جميع

أحذيتها على اصطفاٍفٍ دون نُقصانٍ!

فما كان ردُّ فعل النقيب "رفيق" إلا أن تريث قليلاً في مُحاولَة لاستيعاب تلك المُلابسَة اللامنطقية! وجاء الخبرُ الأكيد بعدم التعرُّف عليها ممّن اطلَّعوا قبلاً على صورتها! ليس هذا فحسب، بل وأن كُلَّ

تفريغات شرائط المراقبة لم يحدث وأن ظهرت فيها "حور" إطلاقاً!
والأهم أنه من بعد رفع البصمات على العُبُوات فقد تطابقت كلياً مع
بصمة "حور"!!!

المشهد يعتريه علاماتٍ كاملة يغزو ملامحها لا شيء سوى الاستفهام!
فمن جهة لماذا تجعله يستنشق مادة مُحْدَرَة تُفْقِدُهُ الوعي، ثم تُغْرَق البيت
في عباءة من عبواتٍ تغزو الجو ضباباً، ثم تختفي عن الأنظار، ومن قبلها
ترك من خلفها جميع متعلقاتها. وهى التي من قبل ذلك كانت في نواياها
تجهيز وجبة الإفطار!!

- "ريان" صديقي لا فائدة من البحث هُنا، الآن يتوجَّب على
الرحيل لمتابعة آخر ما آلت إليه الأوضاع من فرض الكمائن على أطراف
المداخل. أغلب الظن أنَّها فعلت فعلتها هذه ثم تخفَّت عن الأنظار
مُتَنَكِّرة.

ليظهر "ريان" حاملاً في وجهه نظرة خُذْلانٍ :

- لا بأس، يُمكنك الرحيل الآن لقد قُمت بآداء عملك على أكمل
وجهٍ مُمكن. أخشى أن ما يستتر وراء الغُمُوض الحادث هذا ليس بخيرٍ
أبداً!

وحينما بدأ الضباب في الانحسار من البيت حتّى يمكن لـ"ريّان" البقاء في منزله، رأى النقيب "رفيق" ضرورة سحب قواته سريعاً من المنزل إلى مهمةٍ خارج أسوار المنزل في مرحلة تقصي الحقيقة وراء ما حدث قبل أن يتشتت خيط الوصول للحقيقة. فلا ضرورة للبقاء في مكانٍ قُتل بحثاً فيه. خبرته البوليسية أخبرته أنّه لن يجد أكثر ممّا قد وجد. فتحرك هو وقواته فمروا خلال الباب، و"ريّان" يتبعهم فوجد أمراً مريباً عن يمينه! ففي حاوية القمامة باقاتٍ من الزهور ما زالت في حالةٍ مُنتعشة، فيمعن النظر فيها ثم يتأمّل أكثر ولا يدور في خُلدِه سوى من أين أتت!

- لا تقلق يا "ريّان" في حالة حدوثِ مُستجداتٍ سوف أوافيك بالتفاصيل. وبكل تأكيد نحتاج لكافة أقوالك في سرايا النيابة العامة؛ لتحرير محضر الاختفاء، ولكن أعلم أنك بالوقت الراهن لست في حالةٍ تسمَح. فقط في حالة شعرت أنك تذكرت شيئاً جديداً تعرف ماذا يتوجب عليك فعله. إلى اللقاء صديقي "ريّان".

في الحقيقة لم يكن "ريان" مُنصتاً لوصايا "رفيق" الأخيرة؛ لأنه كان يُمعِنُ البصر في باقة الورود هذه من بعيدٍ فيعُبثُ في جوفهِ الظنون، ويتوجَّسُ في قلبهِ ريبَ المنون. حتى إذا انطلق "رفيق" ومن معه فإذا "ريّان" يجذو على حذر نحو حاوية القمامة أقصى اليمين. فيمسك بها ليجد بداخلها مظروفاً كمرسالٍ صغيرٍ يحوي بداخله رسالة نصية!

"ريان.. لم يكن قلبي ليُفارقَكَ ولو في خيالي"

فقط هكذا كُتِبَ على وجه الرسالة، فإذا به يَقْلُبُها على ظهرها.

"هي كانت ما قبل الأخيرة من كلمات زوجتك... لكن وهي تموتُ

إختناقاً على يدي!

معكَ حتى آخر الليل لتعلم أين مرَقِدُها"

فحينها ودَّ لو كان لا يحول بينه وبين الموتِ شيء. حتى جاهد في

إحكام توازنه إلى أن دخل الشقة ثم أغلق الباب ثم دخل الغرفة فارتقى

على السرير مغمياً عليه من هول الصدمة!



الفصل الثاني

"ولنا في العهد حياة خلقناها سوياً"

وقت استيقاظ "ريان" كانت ظلال الليل قد خيمت على إنسانٍ ولكن بقلب مفطور ذو أوشاج متهدجة، وبعقلٍ يكاد ينفجر من قذائف الهاون الملاقاة عليه، وبصدرٍ تكاد تختلف أضلعه من عظيم البلاء. أصبح مرتع مثالي لأفكارٍ وسواسية تُلقح نفسها ذاتياً ببذور عقله. فيخبو النور في عينيه، وينطفئ لون وجه البسماء الوضاء الأشهب مُستبدلاً بوجهٍ أشعثٍ قبيحٍ من وقاحةٍ ما آلت إليه الأحداث.

لم يستوعب قلبه بعد كيف صارت في ليلةٍ وضحاها فقيدةً! هكذا على غفلةٍ! حتى في أحلك الظلماتِ وأشدّها سواداً كانت بجانبه طيلة هذا الوقت حتى وإن لم يكدرها. كان يراها. هي رحلت قبل أن يخبرها أنّه كان يخفق دفئاً من أحاسيس الملائكية بداخلها وهي تسبحُ ثمَّ تطوف من حوله في هالةٍ من الطمأنينة والسكينة حتى انقشعت تلك الهالة!

وأصبح السواد مُستولياً على وجه السماء في سطوة وصولٍ تامة. فإذا بهاتف "ريّان" يهتزُّ من اتصال أحدثهم به، فما كان منه إلا وأن استقبل المكالمة، ووضع سماعة الهاتف بمُحاذاة أذنه.

فيقص شريط الحديث شخصٌ غريب بضحكةٍ شيطانية وبصوتٍ مُغايرٍ عن صوته الحقيقي:

- أتساءل: هل وجدتَ مَرَقَدَ زوجتك الأخير؟

- من أنت أيُّها اللعين!! أقسم إن كان ما تحكيه حدث صدقاً فإنك

سترُكع طالباً مني الموت وما أنت بميت!

- يُعجبني إصرارك كثيراً، ما يهم الآن أنك ترقُد فوق قبر "حُور"!

وجبهتهُ تتندى مُتساقطاً من مسامها العرق:

- ماذا تعني بهذا أيُّها الحقير!

- فكر قليلاً لماذا قُمتُ بتخديرك؟ ثمَّ قمت بوضع بصمات يد

"حُور" على العبوة إن لم تكن مقتولة مثلاً! أتنظّها متواطئةً معي أيُّها

الأبلة!

عليك الحُجيم يا "ريّان"!!

ثمَّ أغلق الخط.

لينهض "ريّان" على الفور من السرير، من ثمَّ يزيح ملاءة السرير ثمَّ كتلة القطن التي ينام من فوقها ثمَّ يرفع الألواح الخشبية من تحتها والدمع ينهمر من عينيه. ليجدَ تحتها كتلة من التراب صارت طيناً رخوًا يتوسّطه وردة حمراء كانت من تلك الباقية التي وجدها في حاوية القمامة. كانت الدمعة من عينيه على تلك الطين كفيّلة بأن تُثبت شجرة تخرج من أصل الجحيم!! وتأكّد يقينه بعد إذ نبش في الطين بيديه ثمَّ وجد "حُور" جُثة هامدة مُستلقية على ظهرها وقبضة يداها مضمومة نحو جهة البطن وبأسفلها وردة حمراء من باقي باقات الزهور، وعليها مرسالٌ في ورقة نصية جديدة:

"ريّان.. سوف تحيا بداخلي وإن قضى على الموت"

وعلى ظهرها من الخلف كان:

"آخر كلمة تنطق بها الفقيدة وعُنقها تحت قبضة يداي"

فما كان من "ريّان" إلا وأن قام باحتضانها بيديه في كنفه، وماء الدمع يمزقه تمزيقاً. فيحترق قلبه قهراً وكمداً في مشهدٍ مهيبٍ تتمزق منه

أواصرُ القلوبِ، سابحاً في أسبارِ أحزانه، وعلى قلبه سيل من الانتقام
أصبح فيضاناً! وأضحت المواجد والمواقع كجَمَرٍ على لظى
ويتزلزل قلبه في وهنٍ بعد إذ ضربَهُ هزيم الرعد في عقر داره. فكان
كالأم الثكلى في فقدان ابنها. بل كشهيدٍ حربٍ من رصاصةٍ غادرة بعد
إعلان إنتصارٍ! فيتخبط في عجزٍ بالوقتِ ذاته زملائه يحتفون بالنصر!
فارقتُهُ وإن لم ترحل عنه أبداً بعد إذ كان في الهوى بها مُتِمِّماً، ويأبى
الزمان أن يمضي من بعدها. على درب الصبابة كان المسيرُ في حضرتها
مفروشاً بورْدٍ ذات بهجةٍ يُزيد من سعةِ الحُبور في لمحّةٍ من لهفَةٍ.
وكان الغرامُ كُلُّ الغرامِ في عينيها، فما كان من مغرمٍ إلا غرامةٍ فقداها
في لحظةٍ. سرق الموت منه إكسِيرَ الحياة لمن كان بالروح يحيا في هواه، ولمن
كان في الحياة لا يهوى سواه. خلَّت إلى بعيدِ المكانِ في عالمٍ من البرزخ وما
لازم فيه من حبّها ذرّةً خبالٍ. فُتْرى إلى أين السبيلُ من وصال؟
فينهض "ريّان" وهو يحمل "حُور" بين كتفيه في لحظةٍ متأججةٍ ثائرة
بعد إذ غابت نبضات قلبها عن مسامعه وهَمَّت برحيلٍ سرمدٍ، حتى

يُعاود الاتصال بمن قتلها فلا يجدُ الهاتف إلا مُغلقاً، يُعاود الإتصال
بالنقيب " رفيق " ليُخبره بالطامّة الكُبرى.

وفي بضع دقائق كان أسطولٌ من رُتَبٍ وقياداتٍ تقفُ أمام ساحة
الجريمة، فتُفارق " حُور " وهى تُحمَل على سيارة الإسعافِ ووجهها
النوراني يتوارى من تحت قماشٍ أبيض، والقومُ من حولها ينظرونَ فقالت
إحداهن:

- يا الله هذه العروس ما زالت في مقتبل العمر. لعنة الله السرمدية على
من فعل هذا بها!

وآخرون في نحيبٍ من البكاء على الأطلال لا تعلمُ إذا ما كانوا
يكون صدقاً أم يتباكون تصنُّعاً:

- لقد كانت في الحُسْنِ لؤلؤةً مُفضفضة، وفي الخُلُقِ آية في كونِ الله
البديع.

وبكل تأكيد لا تخلوا حادثة مثل هذه إلا وللمُحقق "كونان" نصيبٌ
فيها. فيترأى ذاك الشخص الزاهد في رداء الحكمة، والمتفُرس في
حيثيات الحادثة، ومن حيث لا تدري معه مفاتيحُ حل اللُغز. فيقفُ
بجوار أحدهم قائلاً:

- القضية محسومة، لقد ماتت في وكرها وعُقر دارها، إذن بكل تأكيد زوجها هو من قتلها! ومن غيره قد يفعلها إذ كان هو الوحيد بالمنزل حينها، فلماذا لم يقتله الذي قتلها إن لم يكن هو القاتل؟!
فيُصادق على كلامه حفنة من الحمقى الآخرين:

- كيف غابت عن مداركنا هذه! إنك لإنسان ذو عقل حصيف!
حتى تنطلق عربة الإسعاف إلى المستشفى العام في انتظار تقرير الطب الشرعي. فيصيرُ المنزل باحةً مُحَرَّم التجوّل من حولها فضلاً عن دخولها بعد أن صارت زوايا المنزل مسرحاً لجريمةٍ مكتملة الأركان. لتبدأ بعدها دواماتٍ من الاستجاباتِ نَحو كل من كانت أطراف المعرفة تطوله
بـ"حور" وكان على قمة هرم الاستجواب هو "ريّان"!

وبالفعل يُستدعى "ريّان" من أجل البدء في تحقيق رسمي، واستخلاص شهادته الرسمية منه. فيخرجُ من بيته في هيئة المُخَيَّر مُحَافِظاً على هيئته ورباطة جأشه أمام الجُمُوع المحتشدة إلا وأنه في الواقع قدماه عالقة في الوحل كما لو كان هو الجاني حقاً! ومن يدري! فإذا به يُزَجُّ في عربة الترحيلات صوبَ المقر الرسمي للمباحث العامة في قصد

استئناف أطراف الحديث هُناك. ومن بعيد المكان يركض "رفيق" تجاه
عربة الترحيل حيث يجد "ريّان" فيربت على كتفه:

- لا داعي للقلق، بالطبع أنت برئ، ولكنها فقط إجراءات روتينية
بغرض تفصي كافة المعلومات. ودعني أنفخُ فيك الروحَ من جديد، فإنه
ما من أحدٍ غيري سيُشرف على هذه القضية. أما من قتلها فإننا معذبوه
عذاباً سيوِّدُ منه حينها لو تساوى بالثرى
فيكون رماداً متناثراً!

ليظهر بعد ذلك "ريّان" مُتمتاً برأسه وكأنّه في آخر جولاته قبل أن
يخسر معركة حياته :

- على عاتقك أنت ورجالك الكثير فلا تُحيّوا رجائي، فليس لي من
بعدكم نجاة!

وما لي إلى النجاة من سبيل إلا وأنا أنظر في وجه قاتلها وهو يتنزّل
على رأسه مقصلة العدالة. ولن يستريح لي طرف إلا والجاني يسأل الموت
من عذابٍ يسحبُ منه قطراتِ روحه قطرة قطرة!

ليغلق "رفيق" فيما بعد باب العربة ويضربُ بطنِ كفّه على ظهرها في
إشارة تُعطي الإذن بالانطلاق صوب هيئة المباحث العامة! حتى يصل

"ريّان" إلى مقر المباحث العامة بالعاصمة فيدخله بصُحبة أحد القيادات
لحين أخذ أقواله، فدخل المبنى سوياً وسط انقطاع جزئي للكهرباء،
ولكن سريعاً ما عادت من جديد.

* * *

في إحدى مكاتب التّحرى..

بلكنة حازمة وبتقاسيم وجهٍ من شخصٍ طاعنٍ في السن جفّ حلقة
من ماء الشباب فصار مُحيط رقبته مُتدلياً كالليّة في الخراف. والأهم أنه
حازم لا يعرف للعبث سبيلاً:

- تفضّل بالجلوس يا سيد "ريّان مالك". بدايةً أنا السيد لواء "مجدي
عبد القادر" كما ترى أمامك في اللوحة المعدنية. وكما تعلم أنتَ هُنا
بعدما تم تصفية زوجتك قتلاً! لذلك لو تكرّمت لدينا بعض الأسئلة
وتحتاج منك بعض التفسيرات!

فيكون الرّد وحالته النفسية في وعكةٍ، والتذبذب بين طبقات صوته
مسموعاً:

- بكل تأكيد يا سيادة اللواء! تفضّل.

ليرتسم على وجه سيادة السيد "مجدي" نظرة صقريّة مُتّحدة مع
نصف إبتساميّة مُزيّفة:

- حسنًا! ربّما تودُّ الآن لو شرحت لي بالتفصيل كل شيء عنك وعن
"حبيبة مُختار عبدالرحمن"! لا أعلم لماذا الناس بالخارج ينادونها بـ
"حُور"! الأهم كيف تم الزواج؟ وهل لكما من أعداء؟ وماذا عن ليلة
الجريمة؟ هل لمحت في تصرفاتها شيئاً غير مألوفٍ؟ نحتاج منك وبشدة
إجابات على هذه الأسئلة! في حين انتظار تقرير الطب الشرعي بعد
تشريح الجثّة. وفي نهاية حديثك سوف أوافيك بتعليقٍ، والآن حاول أن
تُخبرني بكل شيء تتذكره، ولا تُخفي عني أدنى معلومة، وعلى سبيل
السرّد ليكن طرحك بالبدايات!

يَميل "ريان" برأسه إلى الخلف، ومعه ينساب ذكريات الماضي الغابر
إلى الوراء :

- قد خَطَّت البدايات أحرفها واستمطرت تبعاتها بأحداثٍ وأحزانٍ
بواكيرها بدأت مُبكراً للغاية!



الفصل الثالث

"ذكريات الماضي الغابر"

عام ١٩٨٢ - بأحد هلاجئ اليتامى، القاهرة.

بعدَ حفاوةٍ استقباليٍّ من رُعاة الملجأ للسَّيد "مالك" وزوجتَه السيدة "كريمة". وبوجهٍ سَمِحٍ بشوشٍ وبإبتسامةٍ مُظلمةٍ بالودِّ يَقُصُّ "قدري" راعي الملجأ شريط الصمت السائد.

- طابت أحوالك سيِّد "مالك"، هل لي بعلم المقصد من وراء زيارتك الجليلة. أنت تعلم أن

الأطفال هنا لم يبلغوا بعد للعمل في "التُّراث" !

مُحتَمّاً كلماته بضحكةٍ تشوبها السذاجة، أغلب الظن أنها لم تُضحك أحداً سواه.

ولكن يظهر على وجه السيد "مالك" إبتسامة خفيفة ما لبثت أن تبددت سريعاً من على ملامح وجهه. ومع حلول تلاشيها يخرج عن صمته.

- لا بالتأكيد جئتُك فيما هو أهم. لقد اكتشفنا مؤخراً أن زوجتي عاقر، وكان حُلْمنا سوياً أن نحتضن ابننا بين أيدينا، وبعد إذ تبين أن الحلم لن يُعانق الواقع بات الحُلّ الوَحيدُ هو تَبَنِّي طفل ندخل الجنة به، ومن يدري لعلّ الخير يكمن وراء ذلك.

لثُلْمَحِ إِيْماءٍ وتعبيراتٍ جادة من قِبَلِ السيد "قدري" مُدْرِكاً الموقفَ حيال ذلك.

- يُوَسِّفُني سماع ذلك، وبكل تأكيدٍ في أيامنا هذه لن نجد وصياً خيراً مِنكَ على أيتامنا.

لُتُشْرِقْ ثنايا وجه السيدة "كريمة" نصاعة وحُسنَ نضارةٍ بعد حُزْنٍ باهت قَهَرَ ملامحَ روحها في وقتٍ سابق. ولتُرفَعْ الغُمةُ وليُزاح الضيق عن صدر السيد "مالك" فيتنَفَّسَ الصعداء.

- لا يُمكن للمرء أن يكون أكثر امتناناً من صنيع معروفٍ مثل هذا. فتتشبث أيديهما سوياً فيربط السيد "مالك" على قلب السيدة "كريمة" بالألا تحزن، فما بقي على حُلْمهما من شيء إلا جَرَّةُ قلمٍ من اسمه. وبعد التقنين واستيفاء جميع الشروط هنا وَقَعَ الاختيار على وَلَدٍ في ربيعِه

الخامس ويُدعى "رأفت". ولأنَّ السيدة "كريمة" لم تُجَبِّد الاسم كثيراً
فتمَّ تغييرُه بناءً على طلبها إلى "مُراد".

يُذكر يومها أنَّ السيدة "كريمة" لم يُعَاهَدْ عليها قط وأنَّ توهَّج
وجهها بهذا الشكل، كان يكفي لحظة ارتقاء "مُراد" في أحضانها، وكأنَّ
روحها بعدَ موتٍ تُبعث من جديد، ولتتغشاها هالة من نورٍ وضياءٍ حتى
نهاية الطريق بصُحبة ذاك الوافد الجديد.

ينفَلت تتابع الأيام يوماً تلو الآخر و"مُراد" في كَنَفِ والدته حيثُ
يتغشاه دَفئٌ ينبُضُ بحنانٍ وجناحٍ من الرحمة، وليمرَّ والدهُ من حينٍ
لآخر؛ كي يُداعبه مُصطحباً في عينيه نظرةً حُبٍّ وشَغَفٍ مُفرطٍ حتى إنَّ
زوجته قد تملَّكتها الغيرة مِنْها!

لوهلةٍ كل شيء كان على ما يُرام بإستثناء ذلك الحدث الذي انحرف
ببوصلة عائلة السيد "مالك" عن إطار المألوف فيتجسَّد المُستحيل
ليبصره القلب قبل أن يرى رُؤْي العَيْن!

* * *

في صبيحة الحادي عشر من شباط عام 1986، جريدة "التراث".

بينما هو في مقر عمله فإذا بالسيد "مالك" تصلُّه مُكالمة طارئة من المُستشفى العام فيكون لزاماً عليه بأن يترك مكانه في العمل؛ كي يعدو صوب المشفى، ويدرك ماذا قد طرأ. وبدقة تُناطح البرق في سرعته بات السيد "مالك" على أعتاب المشفى، حتى إذا ما اقتحم المشفى في هلع تام ظناً منه بأن مصيبةً ما قد لحقت بأحدٍ قريبٍ منه، إلا وأن تلك الممرضة يافعة السن والتي تُدعى "بَسْمَة" تعرّفت عليه فوراً.

وفي صياح مُنكر يضجُّ بفوضى عارمة تتجرّد "بسمّة" من صمتها من آخر الرواق:

- سيد "مالك"، سيد "مالك"، اسرع!

وفي لمحة خاطفة كان السيد "مالك" قد وقف أمامها في ترقّبٍ لسماح مُصيبةٍ ما قد صَعِقَتْ به. ولكن تشاء الأقدار أن يتغمّد الله السيد "مالك" بسحابة مُمطرةٍ من لطفٍ ورحمةٍ ذات بهجة. إذ يتنزل عليه خبر لم يكن ليسمعه في فردوسِ أحلامه. فبينما وهو في غمارِ صراعه الذهني

الكادح، إذ بـ "بسمه" تُخبره والبسمه تعلوا شَفَتَيْها بحدوث تَدَاخُلٍ ما
بين نتيجة تحاليل السيدة "كريمة" مع أحد المرضى الأخر، وأن السيدة
"كريمة" لم تكن أبداً عاقراً!

فما كان من السيد "مالك" إلا وأن خَرَّ رَاكِعاً مُرَدِّداً "وَمَا كَانَ رَبُّكَ
نَسِيًّا".

لِيَنْفُضَ عَنْ نَفْسِهِ رُكَامَ الْكَمَدِ الَّذِي تَرَاكَمَ مِنْ فَوْقِهِ طَبَقَاتٍ مِنْ
فَوْقِهَا أَحْزَانٍ. وَهَا هُوَ يَمْضِي قُدَمًا نَحْوَ مَنْزِلِهِ حَامِلاً الْبِشَارَةَ إِلَى
"كريمة"، فَيَخْطُوا خُطَى الْوَاقِعِ فِي ثَبَاتٍ بَلَا أَدْنَى شَتَاتٍ نَحْوَ مَمْلَكَةِ
عَرْشِهِ بَعْدَ أَنْ اصْطَحَبَ مَعَهُ بَاقَةً مِنْ عِبْقِ الْوَرْدِ الْأَحْمَرِ.

- "كريمة" عزيزتي، لقد أتيتُ!

فَتُقْبَلِ "كريمة" عَلَيْهِ فِي سَعَادَةٍ غَامِرَةٍ وَبِفَرَحَةٍ فِي الْقَلْبِ عَامِرَةٍ.

- عِنْدِي لَكَ نَبَأٌ لَنْ تَنَامَ اللَّيْلَةَ فَرِحاً مِنْهُ، وَلَكِنْ هَلْ فَرَعْتَ مِنْ

الْعَمَلِ سَرِيعاً أَمْ أَنَّنِي أَتَوْهُمْ؟

فَيَصْدُرُ مِنَ السَّيِّدِ "مَالِكِ" هَقْهَقَةٌ إِحْمَرَّتْ وَجْهَتَيْهِ مِنْهَا:

- أنا أيضاً عندي لك نبأ سيطوفُ بروحك إلى أعالي الفردوس،
وقطعتُ عملي؛ كي أخبركِ إياهُ سريعاً.

حتى يتتاب "كريمة" ظمآن من الفضول، ولتروي ظمآنها كانت
تتلهف أولاً لمعرفة ما يختبئ خلف يد "مالك" طيلة المحادثة، ليظهر على
ثغرات فمها ابتسامة مُنتعشة.

- مالك! ما الذي تُخفيه خلفَ ظَهرك! يكادُ أنفي يستشعرُ عبق
رائحته! هل ذلك وردٌ أحمر؟ ألهذا قد حرصت على إخفات الضوء؛ كي
لا يسعني رؤيته!

ومع ابتسامة تسكن الروحَ تقتربُ منه وتأخذُ الوردَ عنوةً:

- يا لك من شريراً عزيزي!

ثم ينظر إليها نظرةً واعدةً تعترف عِشْقاً كمِثل التي تفضحها العيون
في اللقاء الأول:

- أريدُك أن تبدي فاتيةً؛ لأننا بصدد عشاءٍ فاخرٍ الليلة، وهُنالك
سأخبركِ بما ساقكِ الشوقُ لسماعه. أيضاً ولدنا "مراد" أريده في أبهى
حُلَّة، بكل تأكيد سيطوفُ فرحاً بما لدي لسمعه، حتى وإن لم يكن يُدرك
بعد عظمة ذاك الحدث القادم.

حتى تترك السيدة "كريمة" باقة الورد تَسَلِّتُ من يديها:
- "مالك"! إياك وقول أن هذا وَلَدُنَا مُجْدَدًا؛ لأنه لم يعد هكذا بعد
اليوم؛ لأنني حَبَلٌ!،
ما لي بعلم كيف حدث هذا، ولكن بالأمس قد تَقَيَّاتُ كثيراً، ومع
إسبانيّ المزيد من أعراض الحَمَل، سريعاً ما أدركت الحقيقة.
مستأنفةً في لهجة مُرتعشة وبكلمات لا تتناسبُ من نبع حنانٍ ظاهر
الأمر أنه قد نضب من كلماتها.
- "مُراد" سيعود مُجْدَدًا إلى بيته القديم، إلى المكان الذي وجدناه فيه
وينتمي إليه!

وبغيظٍ يشتعل في صدره قهراً إذ بالكلمات تُقَذَفُ من فم السيد
"مالك" كما تنطقُ الرصاصة المتضرمّة من فوهة مُسدّسٍ:
- كُنْتُ على وشك زفاف خبر عدم كونك عقيماً، ولكن ماذا عن
"مُراد"! بهذه السُرعة تتجرّدين عن دور الأم الحانية!

ما زال ولدنا الأوحَد حتى الآن، ولن نتخلّى عنه مهما كَلَّفَ الأمرُ،
ولكن إن اقتضى الأمرُ فالحالة الوحيدة التي تقتضي بأن يعود "مُراد" إلى

الملجأ هي بأن يكون المولود المنتظر بنتاً لا ولداً. حينئذٍ أعاهدك بإرساله إلى الملجأ مجدداً. أما حدوث غرار المُشترط فإنه يعني بأن "مُراد" سيظل ولدنا وكان ذلك أمراً مقضياً يا عزيزتي.

فما كان من السيدة كريمة إلا وأن فصّحت عن وجهِ عابسٍ مكلومٍ ومكدومٍ ومكنودٍ ومكبودٍ ومكبوتٍ، فتحمل خفية في سريرتها شظايا أملٍ، على أملٍ أن يكون المولود القادم أنثى!

- حسناً يا "مالك"، ليكن كما أردت، ولكن اعلم أن ابني القادم هو من سيحظى بكامل الرعاية!

- لا تستبقي الأحداث، لنرى ما سيختبئ تحت قُبعات القدر. تنفلتُ خيوط الأيام فتُصبح كومة زمنية لا بأس بها، فما يختلج صدر السيدة "كريمة" إلا مهابة ممتزجة بالرجاء؛ لئلا يكون المولود القادم ذكراً. وما مرّت الأيام إلا وهي متأففة من رعاية "مُراد" حتى جاء يوم الفصل بعد تسعة أشهرٍ كاملة، وهي لحظة الولادة!

الدقائق تمرّ كساعاتٍ، والساعات تمضي كقرون من الزمان، ويبدو أن الوقت استغرق الكثير؛ كي تطلع شمس المولود الوافد حديثاً! فكان في

حضرة آلام الطلق والوضع ما يجمع بين العذاب والعقاب من سياط السادين والجلادين. فكأن الجنين وهو في بطنها مُتَحَشِّراً عند مخرج عنق الرحم كمثل صخرة صلبة وُضِعَتْ على بطنها كالتي وُضِعَتْ فوق "بلال بن رباح" وهو يقول أحَدٌ أَحَدٌ، فكانت تقاطعُ روحها تذوب فتُسَال إلى عبراتٍ من ماء دمٍ فيخرج متفجراً من عينيها شلالاً! وكان أنينُ صراخها ونحيبه يلمس شغافَ قلوبٍ صرخ الحجرُ منها قسوةً!

وبعد لحظاتٍ عصيَّةٍ إذ بعيناها تلمعُ فرحاً بعد سماعِ صُراخِ صغيرها، وهو يخرج من رحم الحياة. وفجأةً تظهرُ على الحالة مُضاعفاتٍ لم يكن لها من مُسَعِفٍ بعد إذ قضى أمرُ ربِّك عليها فهي تُسَلِّم الروحَ إلى بارئها بعد ثوانٍ معدوداتٍ من بزوغ شمس المولود الجديد "ريان"!

كان وَقَع الواقعة على السيد "مالك" يحومُه التساؤلات، فالرجل بعد سماعٍ بما حدث تَوَّاً لزوجته تصلَّب في موضعه ولم ينطق بحرفٍ واحد يشفع في مقام زوجته أمام العامة، فلا تدري إن كان من تأثير الصدمة أم من هول المشهد أم من ماذا!

المسكين رحلت فقيدته وتركته بين شقي الرُحى حائماً في بحيرة من الحيرة. فلا يلتفت من حوله ليجد من يؤازره في محتته إلا أخيه الوحيد

"خالد". ويبقى الأخ في ظهر أخيه حصناً عاتياً على أعتى الغزاة والطغاة! فسرعان ما بسط إليه يدُ العونِ حتى فرغاً سوياً من إتمام مراسم جنازة "كريمة"، وعند شاهد القبر يقف من بعدها "مالك" وأمامه صمام أمانه فتعجز شظايا الكلمات المتناثرة عن وصف محرقة "الهولوكوست" في حواشي قلبه! فيجد نفسه تحت وصاية كاملة لطفلين هُما في المهد صبياناً لا يملكون من حولٍ ولا قوة فُمراد في ربيعهِ السادس بينما "ريّان" لم يُكمل بعد ربيعهِ الأول. وكان السيد "مالك" يأبى الزواج من بعد زوجته "كريمة" مصداقاً على وفاءه لها من بعدها.

فيكاد يستشعر ثقل المسؤولية المُلقاة على عاتقه، ولكنَّ "مالك" قد حسم قراره أخيراً مهما كانت العواقب.

تستمرُّ الأيام في المضيِّ ومعها يكبرُ الصغيران بعد إذ أفرغَ لهما والدهما من وقته الكثير. لم يكن للصغيرين حينها أن يدركا طبيعة الشأن المتأزم في كونهما ليسا شقيقين! فكانا يمرحان سوياً في رحاب الأرض وبراحها الواسع.

حين بلغ "ريّان" من العمر السابعة يُذكر حينها أن "مالك" قد اصططحبه هو و"مراد" إلى مقر عمله كرئيس تحريرٍ في جريدة "التراث"،

وصادف يومها إقترحام مقر الجريدة من قبل شخصيةٍ تتقلد منصباً هاماً
في مفاصل الدولة قاصداً بنفسه مُقابلة رئيس التحرير السيد "مالك"
فإذ يخطوا بجسارة داخل أروقة مقر الجريدة ويتبعه من خلفه
أساطيل من أشخاص ذوي نفوذ، مُقتحماً المكتب الشخصي لـ "مالك"
في صولةٍ وسطوة!

- اسمع يا هذا! إن لم ينتهي شراذمتك ومُرتزقتك الكُتبة ممن ينشرون
في جريدتك ما ليس لهم به علم، ويضعون أنوفهم فيما لا دخل لهم به
ولا صلة، فلا تلومني على ما سوف يصير، فإن لم تستجب فلتترك
وصيتك الأخيرة لأطفالك هؤلاء!

ليتبدل وجه "مالك" إلى براكين وهاجة تلتهم بياض وجهه
مُستنكراً:

- نحنُ جريدة تمتاز بالمصداقية في نشر الخبر، ولسنا بحاجة إلى نشر
أخبار واهية؛ لتزيد من مدخول الجريدة، فالجميع يعلم من هي جريدة
"الثراث". ومهما بلغت عتياً فنحنُ طالما كانت مصادرنا وما زالت

بالْحُجَّةِ والبراهين والأدلة الدامغة فلسنا من سيرضخ ويُعلن السمع والطاعة تحت وطئة التهديد. هذا في الحقيقة مُحال! والآن إن لم ترحل سوف نبليغ الشرطة فوراً!

فإذا بصاحب السلطة والسطوة الجائرة يضحك مُستهزئاً:

- تُبليغ الشرطة! هاهاها، نحنُ إلى رحيلٍ ولكن الحق أقول لك فإن لنا لقاء آخر. فأنت لا تعلم مع من أقحمتَ نفسك! أنا الذي لا طاقة لك على قوته ولا صبر لك على تحمّله!

فإذ الأيام تمضي و"مالك" يُدخل "ريان" المدرسة فيكبر حتى صار ابن العاشرة من العمر. فيروي "ريان" للسيد "مجدي" من داخل أروقة المباحث العامة:

- ما زال اللقاء الأول منقوشاً على حجرٍ وجداني فكما لو كان النقش مساءً البارحة. كانت "حبيبة" بمثابة لوحة فنية رُسمت كامل تفصيلاتها بمسحاتٍ نورانية ملائكية فلا تتوارى شمس ثغرها بالمغيب أبداً. كانت كالحسناء في طهارة طلعتها فتزيد فوق نور البدر أنواراً. فتراها تتزيّن برداءٍ من الحشمة عفيفٍ فما إن تستأنف به خطاها على أرض

جَدْبَاءُ بُورٍ مُقْفَرَةٍ بِلَا مَاءٍ وَلَا زَرْعٍ لَحِسْتُ أَنْ وُرُودًا ذَاتَ بَهْجَةٍ سَتَّ بُتُّ
مِنْ أَسْفَلِهَا. كَانَتْ تَكْفِي عَيْنَاهَا اللَّتَانِ تَنْطَقَا خَجَلًا مُنْعَمًا فَمَا يُجَارِيهَا بَعْدَ
الْيَوْمِ فِي الْحُسْنِ أَبْهَاهَا فَتَاةٌ! فِي اللَّقَاءِ الْأَوَّلِ خَفِقَ قَلْبِي مُضْطَرِبًا كَأَنَّهُ عَلَى
لُظَى يَتَضَرَّمُ، فَكَانَ وَقَعَ ذَلِكَ الْخَفَقَانِ بِمِثَابَةِ اسْتِيقَاضِ الْحُبِّ مِنْ نَعَشِ
الْمَوْتِ!

فَصَرْنَا كَمَنْ يَتَأَلَّفَا فِي الرُّوحِ سَوِيًّا حَتَّى يَتَلَاقِيَا فِي مَلَكُوتٍ فِيهِ مِنْ
نَفَحَاتِ الْفَرْدَوْسِ شَبِيهِ.

وَالِى أَنْ نَسْمُوَا بِأَرْوَاحِنَا الْمُجَنَّةِ فِي جَوْ السَّمَاءِ فَيَشْهَدُ عَلَيْنَا طَيْرُ
السَّمَاءِ، حَيْثُ يُحَلِّقُ وَيَطُوفُ...

كَانَتْ هَذِهِ الْمَسْحَةُ الْفَرْدَوْسِيَّةُ مِنْ حَيَاتِي فَتَمَثَّلَتْ لِي فِي "حَبِيبَةٍ" حُبِّ
النَّظَرَةِ الْأَوَّلَى! وَعَلَى سَبِيلِ ذِكْرِ وَمِيضٍ مِنَ الْفَرْدَوْسِ، فَلَنْ يَلُودَ مِنْ
دَوَاخِلِي لَمَحَةٌ مِنْ قَاعِ جَهَنَّمَ!

كَانَتْ صَبِيحَةُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، يَوْمِهَا كُنَّا أَنَا وَعَمِّي "خَالِدٌ" نَلْعَبُ
الشَّطْرَنْجَ سَوِيًّا كَعَادَةٍ نَهَايَةِ كُلِّ عَظْلَةٍ مِنَ الْإِسْبُوعِ.

وبينما أبي "مالك" كان مُنشغلاً بِمُتَابَعَةِ مُجْرِيَّاتِ الْمُعْرَكَةِ الْمَلْحَمِيَّةِ فَإِذْ بِاتِّصَالِ هَاتِفِي يُخْبِرُهُ بِقَرَارِ إِغْلَاقِ مَقَرِ الْجَرِيدَةِ حَتَّى إِشْعَارِ آخِرِ أَمْرٍ إِيَّاهُ بِالْمَجِئِ لِمَقَرِ الْجَرِيدَةِ فِي مُبَاحَثَاتٍ لِبَدْءِ التَّفَاوُضِ!

مُسْتَأْنَفًا بَعْدَ إِذْ تَبَدَّلَتْ لَكُنَّةُ الْحَدِيثِ بِمَسْحَةِ مِنَ الْحُزَنِ:

- فَاَنْطَلَقَ أَبِي مُسْرِعًا إِلَى مَقَرِ الْجَرِيدَةِ وَكَانَ خَطَاؤُهُ اللَّامُعْتَغْفَرُ أَنَّهُ اسْتَجَابَ لِأَخِي "مُرَادٍ" وَأَخَذَهُ مَعَهُ بَعْدَ إِلْحَاحٍ مِنْ أَخِي. فَلَمَّا لَمَحَ أَبِي فِي عَيْنَيْهِ رَجُولَةً مُبَكَّرَةً مِنْ اسْتِيعَابٍ لِلْمَسْئُولِيَّةِ قَرَّرَ أَنْ يَصْطَحِبَ مَعَهُ ابْنَ الْخَامِسَةِ عَشْرِ؛ لِيَكْتَسِبَ خُبْرَةً فِي أَرْضِ الْمُعْرَكَةِ. وَيَا لَيْتَ أَبْتَاهُ لَمْ يَذْهَبْ، وَيَا لَيْتَ أَبْتَاهُ لَمْ يَصْطَحِبْ "مُرَادٍ" مَعَهُ.

فَتَطْعَنِي مَسْحَةُ الْحُزَنِ لَتَسْتَكِينَ مَلَامِحَ وَجْهِهِ بِالْخُضُوعِ:

- يَوْمَهَا تَمَّ نَصَبُ مَكِيدَةٍ لِأَبِي، وَغَدَرُوا بِهِ غَدْرَ الضُّوَارِيِّ لِلْفَرَائِسِ؛ قَتَلُوهُ لِأَنَّهُ رَفَضَ أَنْ تَكُونَ جَرِيدَتُهُ سَاحَةً لِلتَّدْلِيسِ، وَطَمَسًا لِلْحَقَائِقِ، قَتَلُوهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ شَرِيفًا عَفِيفًا لَمْ يَكُتُبْ إِِرْضَاءً لِأَهْوَائِهِمْ.

فَكَمَا تَقَرَّرَ رَسْمِيًّا مِنْ شَهَادَةِ الشَّاهِدِ الْوَحِيدِ "عَادِلٍ" أَنَّهُ بَعْدَ إِذْ وَصَلَ أَبِي "مَالِكٍ" وَأَخِي "مُرَادٍ" إِلَى مَقَرِ الْجَرِيدَةِ.

فإذ فجأة من العدم رأى مجموعة من المثلثين، ومن دون تفاوضٍ
قاموا بتصفية أبي وأخي بدمٍ باردٍ في وضح النهار.

مُتَهزِئين قلة المارة في صبيحة يوم الجمعة باعتباره عطلة، ومُستغلين
كون المقر الرسمي للجريدة في منطقة نائية نسبياً بعيدة عن أعين المارة
ليغتالوهما إثر رصاصٍ غادر لم يعرف طيلة قرونٍ للرحمة سبيلاً، فسقط
الأبُ وتبعه الابن فامتزج دمهما سوياً وارتوى منهما أديم الأرض حتى
فاض الدم من فوق التراب!

كان وقع الخبر على قلبي كصاعقة غاشمة تُزيح من يعترض دربها،
ومن جهةٍ استقبل عمي "خالد" الخبر كزوبعةٍ في فنجانٍ. فكان العجبُ
العُجاب هو إمتناعه عن إبداء أدنى مسحة تعاطف ولو بمثقال ذرةٍ منه،
لم يحدث أبداً! ولولا التهديدات التي تقاذفها صاحب النفوذ والسلطان
الوَافِد إلى مكتب أبي لظننتُ أن عمي "خالد" مُتواطئ في هذه الجريمة
الشيعة، لم لا والدوافع تظهر كنور الشمس في صبيحة النهار فهو الآن
الواصي على جميع ممتلكات أبي حتى أبلغ سنَّ الرشد!

فمن أين أبدأ وقد كان لدي الكثير لإخبارك إياه فمن بعد اليوم
يسمعني؟ وإلى من آوي إليه وقد كان فيكما مُرتحلي؟

في يوم الوداع الأخير وقفت أمام شاهد قبر أبي وأخي، ولا يحول
بعيداً عن أقاصي خيالي هذا المجرم الذي هدد أبي. صورته قد طُبعت في
صحائف الإنتقام وعاهدت نفسي على الأخذ بالثأر لأبي ولأخي وترك
نزعة القصاص تشتعل، وتتأجج في صدري!

من أين لي بكل هذا الثبات في الرغبة بالخوض داخل هذا المُعترك
وأنا في نعومة أظفاري. صارت المشاعر في داخلي كمشاعل تُضيء بنارٍ
ثائرة تُزع منها روح الرحمة نزعاً. هُم الذين رحلوا وتركوا من خلفهم
هُوةً سحيقة من الأسى على مرارة الفقدان.

ليس من تكلم عن وجع الفراق كمن تعيش معه حتى طغى على
أنفاسه وإغترف من مآسيه حتى إرتوى وما زاد معه إلا عطشاً لشوق
اللقاء. وليس من عاصر بعينه كمن حكى ولم يرى. وما من سقمٍ
مشهود له بوجع للوجدان إلا وكان للفراق نصيب منه. وهل تكتملُ
الفرحة بعد فراق من كانوا في العون سنداً وفي الإحاطة ملجأً وسكناً؟

فالراحلون لا يمضون سبيلهم بالرحيل إلا بعد إذ يُفارقوا قلوبنا
رحيلاً عدا ذلك فإنما هُم نحن من نتركهم يرحلون بمحض إرادتنا.
لا يستقيم القول بمغادرتهم، هُم أبداً لم يُغادرونا، فقط لأنَّ المغادرة
تأتي بدافع الرغبة. ويا أسفاه إن كانت الرغبة بدافع الغدر! لم يكن يُحوّل
في أقاصي خيالات روعي بمِثقال ذرةٍ من شكٍ يُهدد بتلاشي نعيم فاني
كان بارعاً صدقاً وهو يلتنع بعباءة الخلود.

فمع كل غائبٍ ترك مكانه في الدنيا ولم يترك مكانه في قلبي، يشهد الله
أينما حللت وكيفما ارتحلت فإن لك ما تُقرُّ به الأعين جمالاً، وما تفيض به
القلوب من بعدك حُزناً وإنكساراً.

مضت الأيام، ويبدو أن قاتل أبي وأخي صاحب الجاه والنفوذ رفض
أن تُغلّق جريدة "التراث" بابها بعد إذ كان يقدر على ذلك، ولكن على
الأرجح يبدو أنه تركها؛ لكي تكون عبرة لمن بعدهم. فبعد ما آلت إليه
الظروف انتقلت للعيش في بيت عمّي "خالد". زوجته التي تزوجها بعد
عُمُرٍ كانت سيدة لطيفة لم تشعرني يوماً أنني عبئ عليها في منزلها كانت
"فاطمة" هي أُمي الثانية وحصن نجاتي بعد رحيل عائلتي.

وبعد إذ بلغت الثامنة عشر فإذا بهما يُرزقان بأول مولودٍ لهما، كانا توأماً ولدأً وبنثأً، يومها أصرَّ "خالد" على أن يكونَ اسم المولودين "مالك" والأخرى "كريمة" في لفتةٍ تُحسب له بعيداً عن مصائبه من كَوْنِ جريدة "التراث" أصبحت مُتداينة بأموال كثيرة، فحينَ إلتحقت بالكلية وبلغت سن الرشد حيث رسمياً تقول ملكية "التراث" إلى الوارث الشرعي لها الذي هو أنا السيد "ريان مالك" فوجئتُ بالجريدة وهى في حالةٍ يرثى لها! وبعد عامين من المشقة في كبد الإصلاح، إذ تطولني تهديدات بالجُملة من ديون لصالح الجهة الممولة لعمي "خالد" إلى أن صارت المديونية جبلاً من الأموال.

وبعد المواجهة، رفض يومها عمي "خالد" الإفصاح عن هوية مُستحقي الدين، حتى عرفتُ فيما بعد أنه كان يأخذ قروضاً من جهاتٍ غير موثوقةٍ تحت ذريعة تجديد الجريدة، وبعد الفحص تحت المجهر اتضح أنه يستخدم المال بقصد الإتجار في المواد المُخدرة! وبعدَ علمٍ من الممولين بتزحزح "التراث" عن ملكيته، نفذ صبرهم عليه من مُماطلته في

السداد حتى طاله سوط التهيب، والتهديد بالقتل جراء تراكم مديونيات الجريدة.

وبالفعل قاموا بقتله في عقر داره أمام أطفاله البالغين من العمر الخامسة، وتركوا لي رسالة مع زوجته "فاطمة"، وكانوا ليقتلوها لو لم تكن رسولاً مُنذراً لي بما فعلوه في حق زوجها!

فكانت الرسالة وإن كانت موجزة إلا وأنها معلومة الغرض.

- إلى الوريث الشرعي لممتلكات "مالك فخر الدين طيب" إن لم تكن تُريد أن تلتحق بجوار عمك في قبره، قم بسداد ديون جريدتك وإلا فالموت لك أبد الأبدين! معك يومين من الآن!

لم يراود ذهني أدنى إجابة تجاه تلك الفجيرة التي نصبت خيامها من فوق رأسي. فكرت في الهرب وترك الجميع من خلفي يطوى عليهم صفحة النسيان.

حتى حين المجئ بالدور على "حبيبة" فما كان من قلبي إلا وأن إفتعل العصيان وتمرد. ولكن الترف في حرية الاختيار لم يكن ملكاً لي. أحياناً في أحلك الظلمات لا يُمكنك إلقاء اللوم على شخص لا يرى في

الظلام أحداً غير نفسه! كان يكفي طنين الوسائس وهى تعبت بي.
وبالفعل حسمتُ قراري بالترحالِ مُحْتَبِئاً إلى أبعد مكانٍ تمتد إليهم سُبُلُ
الوصال فكانت "المنيا" بزاويةٍ نائيةٍ عن الأنظار تماماً حيث يتوارى بيت
جدي المتوفي "فخر الدين طيب" ولكن قبل الترحال تبقى أمراً أخيراً!
وهى ليلة الوداع.

في ليلة الوداع تصلبت عيناى في عينيها، وهى تلهجُ باللهفة والولع
كما لو كان اللقاء الأخير من قبل توارى شمسي بالمغيب عن عينيها. فإذا
بي أجد "حبّية" تمشي على استحياء، وعبرات من ماء الدمع تُبلل
رمشها، فيتعلق ما تبقى بطرف أنفها:

- لم أعاهد عليك أنانية يوماً فلا تُخَيِّب رجائي، وترحل كالذين
رحلوا من قبلك.

- يا ليت الأمر بالإمكان، لو تعلمين ما بي لكنتِ قلتي في حقي
الرثاء. على كل حال يوماً ما سأعود.

- ولكن إن لم يكن الآن فمتى! يا "ريان" دَعِ العهود لأهل الوعود
أما أنا فأريدك أنت لا وعدّ منك.

- الوعد هو ما يسعني تقديمه ولاءً على إخلاصي.

- يا "ريان" الوعود تتبدل في ظل تقلبات الظروف. فإن أخذت عليك موثقاً من الله بأن تعود أخاف حينها ألا تفي بعهدك فتأثم! وأنا لا أريد بأن أضيق عليك، دام الودُ موصولاً يا "ريان". قد إتخذت قرارك مُسبقاً حتى من دون إيضاحٍ لأسبابك. عليك الرحيل وكُن مطمئناً وعلى يقين أنني بصدد انتظارك فلا تغيب.

وهو ينظر إلى أعلى وعيناه في داخلها يرقد المزيد من الأسرار من داخل سرايا النيابة العامة.

- بالفعل حزمت متاعي بالرحيل، لكنني لم أدرك حجم مصيبي التي حلّت بي إلا حينما تأكّدت أنني كنت ألوذ بالفرار من غزاةٍ إلى أن تمّ حبسي أنا والأسد في غرفةٍ واحدة!!



الفصل الرابع

يعرف يوم المرء بالمفاجأة!

في سِتر الليل المعتم بعدما استولى الظلامُ على كبد السماء، كُنت مُستترًا بالخفاء بعدما حزمت أغراضي، بما فيها مُفتاح منزل جدي. وما قبل بزوغ الفجرِ بدقائق بدأت المشقة في المسير، والثقل في الحُمْل، والعُسر في ظل غياب تامٍ لليسر، وتحت هيمنة أجواءٍ مشحونةٍ بالرعب من قلبٍ وَجَلٍ، وتحت سطوةٍ مُتسلحةٍ بالحيطة والحذر من عدوٍ يُحاكي دسائسَ وتدابيرَ في الخفاء. فيُستهل طريقي بالتواري بعيداً عن مرمى الأبصار حتى يقضي الله أمره.

يستأنف "ريان" الحديث للسيد "مجدي".

- خيبات من فقدانٍ للأمل خيَّمت من فوقِي وضربتني في معقلِ قلبي. فكيف أصفُ لك ما صَفَت إليه الأحداث بعدَ حادثةِ اليوم الثاني من وصولي صوب بيتِ جدي "طيب" حيث تستشعرُ من حوله وكأنك آخر من بقى حياً على وجه البسيطة!

بعد الوصول إلى بيت جدي الخاوي عن بكرة أبيه. حينئذٍ قمتُ
بتخزين ما حملته من متاعٍ وقوتٍ. فيمضي أول يومٍ بسلام يشوبه الحذر
وإن كان صاحبي في الحُلم كابوساً مُزعجاً، ولكن كنت أراود نفسي بأنه
طالما كان لا يتجاوز عتبة الحُلم فلا بأس منه.

فيأتي اليوم الثاني ومعه تنفلت خيوط الصباح الأولى وفي ذيلها أثواب
الشمس بحرارتها اللافتة لينسل سناء أشعتها المائلة من بين ثنايا فولاذ
النافذة، فتغمر ثنايا وجهي.

من ثم رمقت بعينيّ المتبرّمتين إلى أقصى اليمين فإذا بساعة الحائط
مؤشر عقاربها ينحدر إلى الثانية عشر ظهراً حتى علمتُ بعدها أن
العقارب فعلياً لا تتحرك وأن الساعة كان الثانية ظهراً منذ زمن بعيد.

كنت مُغمضاً عينيّ في وهن، ومُتكنّاً على بصيص أملٍ في العيش دون
رغدٍ ولكن فقط بسلام. كنت في هزيانٍ وإعياءٍ شديدين، فكانت نار
الحرب تحرق بداخلي كل جميلٍ حتى فتحتُ عينايا محققاً النظر لأعلى مع
تزامن سماع أحدهم يطرق باب المنزل بيديه البارزتين محدثاً ضجيجاً من
إثر طرقات متتابعة تثير طابعاً عُذوانياً لا يُبشّر بالطمأنينة. فما إن سمعت

صِيحَاتٍ مِنْ خَلْفِ الْبَابِ تَتَوَعَّدُنِي بِمَصِيرٍ بِشَعٍ وَأَنْ الْفُرْصَةَ فِي الْفِرَارِ
مُنْعَدِمَةٌ!

إِنْتَفَضْتُ عَلَى الْفُورِ وَيَدَايِ تَرْتَعْشَانِ أَثْنَاءَ مُحَاوَلَتِي فِي تَجْمِيعِ مَتَعَلِقَاتِي
قَدْرَ الْإِمْكَانِ.

وَلَمْ يَكُنْ لِي بِإِمْتِلَاكِ مِفْتَاحِ حُرِّيَّتِي إِذْ أَنْ جَمِيعَ النُّوَافِذِ مُدَّعِمَةٌ بِفُؤْلَاذِ
حَدِيدِي لَمْ يَسْعَفْنِي الْوَقْتُ لِانْتِزَاعِهَا، لَكِنِّي تَذَكَّرْتُ حَلًّا لَا بِأَسْ بِهِ رَبِّهَا
قَدْ بَيَسْتُ مِنْ عُمْرِي الْمُتَهَالِكِ، وَيُمْهَلْنِي مِنَ الْوَقْتِ الْمَزِيدِ.
وَبَعْدَ أَقَلِّ مِنْ دَقِيقَةٍ..

يَتِمُّ إِقْتِحَامُ الْمَنْزِلِ مِنْ قَبْلِ أَشْبَاحِ مَجْهُولِي الْهُوِيَةِ غَيْرِ مُتَعَارِفِ عَدَدِهِمْ
بَعْدَمَا أَسْقَطُوا الْبَابَ أَرْضًا، غَيْرِ مُبَالِينِ بِالضَّجِيجِ الَّذِي صَاحَبَ
فَعْلَتَهُمْ، وَلَا حَتَّى بِشُرُوعِهِمْ فِي إِرْتِكَابِ جَرِيمَةٍ فِي وَضَحِ النَّهَارِ
وَالشَّمْسِ تَتَرَبَّعُ كَبَدِ السَّمَاءِ، فَالْمَنْزِلُ يَبْتَعِدُ عَنْ أَقْرَبِ نَشَاطٍ بَشَرِي بِمَا
يَزِيدُ عَنْ خَمْسَةِ كِيلُومَتَرَاتٍ كَامِلَةٍ وَيَعْلَمُونَ فِي حَالَةِ اسْتِغَاثَتِي لَمْ يَكُنْ
أَحَدٌ يُنْقِذُنِي.

ثم بدأت أقدام هؤلاء المجهولون تخطوا بجسارٍ وصفاقٍ في أرجاء المنزل، ولكنهم لم يجدوا لي أدنى أثر، وكأن الأرض قد انشقت وابتلعتني!

أذكر أنني سمعت أحدهم بصيغة إنفعالية قال :

- كيف هرب لا بُد أنكم تمازحوني!

فإذا به يقلب طاولة أرضاً كانت مُزاحة جانباً، ثم يفتت زجاجها بأقدامه في محاولةٍ لكبح فشله في العثور عليّ.

ثم يستأنف الحديث شخص آخر أغلب الظن أن الكلمات تخرج من فمه كخروج اللهب من فم التنين المُجنح:

- اخرج من جُحرِكَ، نعلم بأنك هُنا، وأنت تعلم لماذا نحن هُنا، لقد

إنتهيت بنهاية "التُّراث" هل تسمعني؟!

حتى خرج شخص ثالث عن صمته مُتقمصاً دور الحكيم الراشد.

- لا يمكنه الهرب، كما أنني لم يتبين لي أي محاولات للشروع في

الهرب كل شيء يبدو في وضعه الصحيح الذي لا يحمل في مجمله محاولة هرب لا أعتقد أنه.....

حاولتُ استراق السمع على محادثة هؤلاء المجرمون مجدداً، ولكن بلا فائدة فبقية أطراف الحديث غابت عن مسامعي بعد استئناهم بقية الحديث في غرفةٍ مجاورةٍ، أما استهلال محادثتهم في غرفة المعيشة تالأت في آذاني؛ لأنني كنت مختبئاً تحت موضع أقدامهم تماماً!

دقيقة ما قبل الإقتحام..

قبل لحظات من إقتحامهم المرتقب، على الفور تركت الغرفة وانتقلت إلى غرفة المعيشة بعدها قمت بإزاحة الطاولة الزجاجية جانباً، والتي كانت تتوسط فراش الأرض المصنَّع من الصوف الأبيض، ومن ثم فتحت القبو الذي يتخفى ما تحت الصوف الأبيض ومن ثم أدخلت قدميَّ أولاً ثم تبعته بقية جسدي، وقبل إغلاق باب القبو الغارق في ظلمته السوداء والذي من عتمته الكاحلة لم يكن يترائي لي أُنْهَضُ قدميَّ! ولَمَّا سحبت بأطراف يدي الفَرْش الصوفي فاذا به يميل فتأخذه تلك الحركة الإنسيابية فيستتر على أرضية غرفة المعيشة مع ذات لحظة إغلاق باب القبو وكأن شيئاً لم يحدث! وفي غصون ثوانٍ معدودات حدث الإقتحام.

أما الفضل فيرجع إلى جدي " فخر الدين طيب " والذي وافته المنية في حادثٍ منذ كُنت في ربيعي التاسع، وبعد سلسلة من الوفيات انتقلت ملكية المنزل إلى أخيراً.

في حين أن القبو يمتد إلى ثمانية أمتار تحت الأرض وبُسْلَمٍ تُطابق درجاته نفس إرتفاع القبو وقديماً كانوا يبنون ما تحت منازلهم قبواً أو سرداباً خشية أي قصف مدويٍ أو حيلةٍ من أي طائرات تُخلق بعنان السماء فتغير عليهم بغاراتٍ تودي بحياتهم.

لكن دهاء جدي لم يَشْخُ ببناء قبوٍ فحسب، بل كان يستلزم الدقة والحرص المطلق بأن يستتر بمخبيئ آمن لا يسع لأحدٍ معرفة أين يقبع موقعه سوى زوجته "لمياء" والتي كانت تنحدر من أصولٍ مصرية وابنته الوحيدة "كريمة" وفي الأخير حفيده الأوحد "ريان". فقد سبق واصطحبني إليه من قبل مُخبراً إياي أنني سأكون ذو حظٍ عظيمٍ وأن يوماً ما ستمضي بي قدماي لهذا القبو لسبب ساكتشفه لاحقاً. اقتربتُ من أعلى درجات سُلم القبو لتميل آذاني إلتصاقاً بباب القبو مجدداً فعاودت سماع ضجيجهم ولغظهم المُشوّش مجدداً.

حتى عاودت الرتابة الممتزجة بالذعر، والتي لا يُستبان مصدرها
وهي تشقُّ طريقها نحوي. كان عقلي مُلبداً بغيومٍ من الخوف، وقدر
المُستطاع عزمت على تجديد إصراري في المثابرة ثم وجَّهت كامل دفة
السعي نحو سبيل النجاة، وألاً يُفصح ستار السِترِ الواهي!

استشعرت أن رحيل هؤلاء المرتزقة سيستغرق من الوقت المزيد
حتى استشارني فضولي في استكشاف القبو حين رحيلهم عن البيت.
لكن عقلي استوجبني أولاً باستدعاء النجدة من هاتفي المحمول!
لأتذكَّر نسياني لهاتفني في الغرفة! صفعتُ حينها جبهة وجهي فنبع من
مسامها العرق مشوباً بحميّة الحر ورطوبة الجو.

حاولت التبرأ من روحِ الرُوع والرعب القابعة في قاع روحي، مُبادراً
في إقناع نفسي بأنه حتى لو كان هاتفي بحوذتي فإن إتصاله بالشبكة من
تحت الأرض محل شكٍ. سلّمتُ أمري لله وكُنت على يقين أنه لا يسعني
تقديم المزيد في غصون تلك اللحظات الراهنة.

إلى أن قررت أخيراً تلبية نداء الفضول والبدء في استكشاف القبو
ولكن إعترضتني مُعضلة شبح العتمة. لكن سرعان ما تغلبت على تلك

المُعْضَلَةُ لَمَّا تَحَسَّسْتُ مَقَابِضَ السُّلَمِ إِلَى أَنْ انْقَضَصْتُ مُتَشَبِّهًا بِهَا. أَمَّا عَنْ
مَلَمَسِهَا فَيُوحِي بِتَأْكُلِ طَبَقَاتٍ مَعْدِنَهَا، وَفَنَائِهَا بَيَانِ طَبَقَاتٍ مِنَ الصَّدَى
الْمَغْمُورِ بِتَرَابٍ لَزَجٍ عَلَى إِمْتِدَادِ الْمَقَابِضِ، وَالَّذِي يَمْتَدُّ حَتَّى آخِرِ دَرَجَةٍ
مِنْ دَرَجَاتِ الدَّرَجِ.

خَطَّتْ قَدَمَايَ دَرَجَاتِ السُّلَمِ بِنَجَاحٍ، حَتَّى اسْتَقَرَّتْ عَلَى أَرْضِيَّةِ
الْقُبُورِ. إِلَى أَنْ أَخَذْتُ بِالتَّبَاطُؤِ فِي الْمَشْيِ حَتَّى بَدَأْتُ رُؤْيِي تَتَحَسَّنُ بَعْدَمَا
إِتْسَعَتْ حُدُوقَةُ عَيْنِي، وَتَأَقْلَمْتُ عَلَى الظُّلْمَةِ فَبَدَأْتُ فِي لَمَحِ أَشْيَاءٍ عَتِيقَةٍ
عَنْ يَمِينٍ وَيَسَارٍ كَلَّفَتْ مِنْ جَهْدِي الْكَثِيرِ لِلْحِفَازِ عَلَى ثَبَاتِهَا الْمَوْضِعِيِّ.

وَبَعْدَ مَعَانَاةٍ طَاقِيَّةٍ اجْتَنَحَ الْوَمِيزُ الْقُبُورَ بِأَكْمَلِهِ بَعْدَمَا تَدَفَّقَتْ
شَحْنَاتُ التَّيَّارِ الْكَهْرَبِيِّ فِي فَتِيلِ الْمَصْبَاحِ الْمُتَدَلِّيِّ مِنْ سَقْفِ الْقُبُورِ بَعْدَ إِذْ
رَفَعْتُ قَابِسَ الْإِضَاءَةِ عَالِيًّا، وَهُنَا كَانَ سُقُوطُ أَشْعَةِ النُّورِ كَسُقُوطِ
حِجَارَةٍ مِنْ سَجِيلٍ عَلَى الْعَتَمَةِ، فَتَعَاكَسَتْ أَشْعَةُ الضُّوءِ السَّاقِطَةِ عَلَى مَا
يُحَوِّمُ مِنْ حَوْلِي حَتَّى رَاوَدَنِي شُعُورُ مَأْلُوفٍ أَنْتَظِرُهُ مِنْ ذِي قَبْلِ كَأَنَّ
رُوحَ جَدِّي "طَيْبٌ" تَطُوفُ مِنْ حَوْلِي إِمْتِنَانًا لِلْقَائِيِّ مُجَدِّدًا، وَيَكْأَنِي
أَنْتَ صَوْتًا غَيْرَ مَرْتِيٍّ يَهْمِسُ فِي أُذُنِي بِكَلِمَاتٍ لَمْ أَسْتَطِعْ سَمَاعَهَا، وَلَكِنْ
يَكَادُ يُجْزِمُ لِي أَنَّهُ يَتَحَدَّثُ إِلَيَّ، فَمَا كَانَ مِنِّي إِلَّا أَنْ كَسَرْتُ لَوْحَ الصَّمْتِ :

- سلام عليك، طابت روحك الطيبة يا جدي.

الفوضى تعمُّ أرجاء القبو من منصدة خشبية توسطت الميدان قد
قُلِّبَتْ على رأسها، ومن مقاعد خشبية غمرتها بيوت العنكبوت بخيوط
شبكاتها الواهية.

أما وضعية موضعها تنم عن عشوائية مُفرطة حتى باشرتُ بتفقد ما
حولي من كُتب ذات أغلفة مهترئة عفا الدهر عنها، ومن ساعة جيب
قديمة تغطت بطبقة من الصدئ عُلِّقت على طرف مُسمار مدبب في
إطارات المرآة الخشبية. أما عن المرآة فهي لا ينفذ منها إنعكاساً واحداً
ولا يتبين منها شيئاً بعدما تراكم عليها غبار الماضي الغابر.

إلتقطت ساعة الجيب ووضعتها فوق راحة يدي بعدما حررت
سلسلتها من عُنق المسمار، مُتلهفاً بعد ذلك لرفع غطاءها عالياً حتى
وجدت صورة دائرية صغيرة على الناحية المُقابلة من وجه الساعة التي
توقفت عقاربها عن العمل. فإذا بالصورة تجمع جدي وجدتي ووالدي
"كريمة" حينها تلاها إمتلاء عيناى بنفحةٍ من عبق الذكريات فلم تحتمل
غددي الدمعية بتمالك نفسها.

حتى استجمعتُ تنهيدة عميقة وآهات مهمومة تستشفي منها جراح صدري، وأسقام قلبي وأوجاعي الملاحقة لي وهى تنهش قلبي كما ينهش كلب به داء السُّعار في بدن أحدهم! حتى افترشت الأرض، وشرعت بالبكاء في ضرواة شديدة حتى سمعتُ مناجاة خفية تمس في آذاني :

- أما عن رماد ذكرياتك المتناثر أشلاؤه في طيات قلبك، وحوايا نفسك، وخبايا عقلك، وثنايا روحك.. لا تنكسر له؛ كي لا ينتهز ضعفك فينقض عليك، لا تسمح له بتحطيمك، ولا تمنحه الفرصة ليسلب منك ما تملكه الآن. من المهد يوم كُنت صبيّاً حتى اللحد وأنت كهلاً طاعناً في السن تذكّر أن كل مرير سوف يمر، وكل ماضي سوف يمضي، وأنّ لا شيء على لونٍ يدوم، وما بين ليلة وضحاها تُساق الأوجاع إلى طريق بهيج ونور من حبور. ما بين طرفة عين يُقلّب الله ما أخبروك عنه بالمحال فيُهدم في لمحّة إلى جسر تعبر من فوقه الآمال.

فما كان مني إلا العزم على استئناف تفحص بقية القبو بعد إذ كاد أن ينتهي، ولكن تبقى شي واحد بعد، هُناك حيث يقع في نهاية الردهة ما لم ألثفت له من قبل، ربّما من تآكل الضوء وإنحساره ما قبل نهاية عمر القبو

إنسحاباً بسبب ضعف شدة الضوء الصادر من المصباح المتدلي من السقف، والذي لا يُغطي نوره الفاتر نهاية القبو، وإن كان يُلامس أطراف نهايته فقط.

فإذا بي أرى مكتب "جدي" والذي كثيراً ما كان يُشابه مكاتب رؤساء الدول المُزدانة بزينة العظمة، وبهرجة العلو المتكلف، ولكن الآن قد أصابه من الدهر ما أصابه، فتتسند أرجله الخشبية الأربعة على أحجار من دُعَامَاتٍ إسمنتية غليظة. وعلى مَهَلٍ هممت في تفقد جوانبه حتى بأطراف أصابعي حَفَفْتُ سطحه الزُجاجي المُتسخ بأطراف أصابعي ليتعلق بها غيُض من فيضٍ تراكمات الأتربة الكثيفة. ثم جلست وأتبعْتُ رأسي بالرجوع للخلف، ثمَّ أشحذت ذهني فيما بعد. ما هي الخُطوة القادمة!

لم أدري وقتها ما الذي يتعيّن عليه فعله سوى الانتظار إلى حين أن يطمئن قلبه بأن هؤلاء المُتحمون قد رحلوا بسلام.

نصف ساعة مضت..

وقد أخذت وضعيات مُتباينة على المقعد فتارة يجلس القُرفصاء وتارة
قدم فوق قدمٍ، وتارة وضعية الجنين.
ساعة قد مضت..

بدأ الملل يرمي بثقله على عزيمتي حتى قمت بدندنة نغمة استظهرتها
من إيقاعات عقلي علّها تطرد الملل السائد، ومن ثم يتبعها تخبيط بالعُقلة
الأولى من السبابة والوسطى في حركة دائبة مُستمرة على سطح المكتب
الزجاجي علّه يكسر حاجز الملل المُمتد، ومن ثم طبطبة على فخذي بعد
فراغ صبري، وأخيراً طرقة أصابعي لعل اللحظات القادمة تهون
وتمضي خفيفاً. فلما ذهب عني الروع رفعت قدماي من فوق سطح
المكتب، فهنا تعلّق في بنطالي تُراب أملس كثيف قام بمَسح سطح زجاج
المكتب مسحاً! ثم قُمت بُمشابكة أصابعي ببعضها البعض من خلف
رأسي في حركة تُشابه زُعماء العمل من إنسجام في سلام داخلي أو
إنخراط في تفكير عميق. حتى قررت مواجهة مصيري بصدر رحب!

فقمت بإفتكاك التشابك بين يدي وهممتُ بإزاحة أقدامي؛ لتطّئ
الأرض من ثم إلى سُلّم القبو في بسالة. لكن اعترضتني دهشة دھولٍ

يكاد يبلغ صداها المسامع من أقاصي ربوع الأرض. فما إن مددتْ
ببصري بعد إزاحة التراب المعلق ببنطالي حالياً، وعلى لوح الزجاج
سابقاً. فإذ بتلك الدهشة تنطق من أسفل الزجاج!

قمتُ بسحب لوح الزجاج من أطرافه؛ لإراحة ثقله على رُكن
منزوي، فإذ بمظروفٍ أبيض مُغلّفة فوهته بالشمع اللاصق ويلتف من
حوله شريطة حمراء يتدلّى أطرافها في الهواء الطلق بعدما طوقت عُنق
وشاحه الخارجي. آنذاك قمتُ بمُطالَعته بعد عناءٍ في إمعان النظر، إذ أن
الظلمة وإن كانت خفيفة كثافتها فإن الرؤية مشوشة. وكأن المظروف من
الخارج أشبه بالوصية إذ كان مُقدمة أحرفها كفيلاً؛ كي تتوسط مُنتصف
قلبي تماماً، حتى من قبل أن تنتصف غلاف المظروف من الخارج!

"إلى حفيدي الأوحد ريان"

تسمّرت في موضعي كُمسار مثقوبٍ في قطعة خشبية إلى حين
استيعاب ما رأيته، لكن سرعان ما شغفني لهفاً لنزع العصبة الحمراء التي
إكتنفت المظروف، حتى تتحرر فوهة المظروف فيما بعد من أصباغ

الشمع الأحمر. ليخرج منه رسالة كُتبت بخط اليد، وعدة مُستندات أخرى.

وفي سبيل قراءة مُحتوى كُلِّ منها، أزحْتُ الغُبار عن بنطالي ثم خطوتُ إلى نور واضحة خيوطه إلى تحت المصباح المُتدلي ثم جلست.

"حفيدي" ريان" كنت أعلم أنك يوماً ما ستُمسك كلماتي بين يديك. "ريان" ربما لم أقدم لك الكثير ولكني سوف أعطيك ما ملكت منه يداي سيلاً، لكن تذكر.. المسؤولية تتطلب منك أن تكون رجلاً صالحاً. في صُحبة المظروف أربعة مُستندات كلها للتنازل عن مُمتلكاتي لك خالصة. بالطبع تعرف "آمين" المدير التنفيذي الذي أوصيتُ قبل رحيلي بأن يأتي من بعدي لمجموعة شركاتي. ليس عليك سوى أن تُعطي المُستندات لآمين وهو على إطلاعٍ بالخطوة المُقبلة".

حين فرغت من قراءة جميلِ محاسن القدر والتدبير الإلهي الحكيم، لم أجد قولاً يُنصفُ حق هذا الرجل علىّ، كأن الكلمات التي في صدد وصف جماله لم تُخلق في رحم الأدب أبداً، ولم تعبث الألسنة نطقاً بها قبلاً. ماذا يسعني القول وقد هتكني التلعثم، وتجردتْ مني أشلاء الجُمْل ونواقص الكلمات وبقايا الأحرف!

ولما قُمتُ بإخفاء المُستندات ثم طويت ورقة الوصية بعد ذلك إلى نصفين ثم قمت بإسقاطها في رُواق الجيب الأيمن في صمتٍ داكنٍ، اعتبرت حينها رؤيتي للوصية، وتملّكها ما بين يدي إشارة إنطلاق تمهيداً لخروجه من القبو، هُروباً إن كان الوضع على ما يُرام، أو في أسوأ الأوضاع إن لم أَلقي حتفي قبل ذلك فمُساومةً على بعض مُمتلكات جدي قد تنفي بالغرض الذي جاؤوا من أجله.

إشارة إنطلاقٍ كاد غزير خيراتها، وخيرير مياهاها في مهب الريح لو كنت طاوعت نفسي منذ ساعةٍ قد مضت ولم أنتظر.

وها أنا أستلذ بعاقبة الصبر الجميل بعد إذ بقيت عاقبته المُبشرة بلا رحيل، والوصية في جيبِي الأيمن خيرٌ دليل.

وبينما وأنا على الدرج أخطوا درجةً بعد درجةٍ، إذ نجحوا نجم الموت عن تفكيري. حتى بات بيني وما بين القبو هو بابهُ المعدني حيث في باطنه مَكثت بالجحيم وفي ظاهره يترقبني النعيم.

كنت أتصبب عرقاً من خشية مُباغته هؤلاء المُقتحمون فينقضون على كما ينقض الذئب على الشاه الدانية.

فما كان مني سوى أن إلتقطت شهيقاً عميقاً ثم أسكنته في رثائي بلا
زفير، وسُرعان ما مددت يدي ساحباً باب القبو لأعلى شيئاً فشيئاً حتى
تزعزع الفرش الصوفي الذي غَطَّى أرضية المنزل إثر إنفتاح باب القبو،
وبالفعل خرجت حياً مُرزقاً على الأقل حتى الآن!

فلَمَّا رأيت حُطام الزجاج المُتهشم فتاتاً طريح الأرض كاد يتلبّسي
هاجس الموت من جديد. وفي خوفٍ مشحونٍ بالبارود سارعت بإغلاق
باب القبو على الفور مُستخدماً يداي العاريتين في سحبِ الفرش
الصوفي؛ كي يتوسط أرضية غرفة المعيشة من بعدها تزامناً مع لحظة
إلتفاتي يميناً ويساراً.

فأخذت في حذرٍ مُتحفّظٍ معرفة إن كان رحل هؤلاء القتلة أم لا.
فتستهل الملحمة الكبرى حيثنّذ بقرع طبول الحرب من أجل غريزي
البشرية في البقاء على قيد الحياة. فما تلاها إلا المشي على مشط قدمي
بخطوات مُثاقلة ممتلئة عن آخرها بالهلع والاستنفار نحو باب البيت
الذي اتضح فيما بعد إحكامه بالإغلاق من الخارج. فيبدو أنهم حينما
أسقطوا الباب أرضاً عاودوا إصلاحه ثم من بعده قاموا بإغلاقه.

حينئذٍ هممت بالذهاب إلى المطبخ مُنحني الظهر، قاصداً من بعدها
سكين حاد بغرض الدفاع خشية الخطر المحتمل، مُتفقداً جميع الاتجاهات
التي تحومني كأني رادار كاشف. وفورَ إحكامي لقبضة السكين في يدي
انحرفتُ يميناً سالكاً آخر الرواق قاصداً غرفتي حيثُ هاتفي المحمول
هناك، في سبيل الاستغاثة بالنجدة.

وقفت مُباشرةً أمام الغرفة المتوارب بابها حتى دفعت البابَ بأطراف
أصابع يدي فانفتح على مصراعيه في حضرة صوتٍ مغمورٍ بالصدى.
حبستُ أنفاسي وهممتُ بالدخول مُحكماً السكين في قبضة يدي،
فتُلامست قدمي أعتاب باب الغرفة من ثم تَبَعَتْها خطوات مُثاقلة ثم
تحسست قابس الضوء.

فإنْتَفَضَت الغرفة تُشع بنور صاعدٍ إذا ما اختلف زر القابس. ظننت
لأولٍ وهلةً أنني سأنجوا بعد إذ وجدت هاتفي في موضعه تماماً مثلما
تركته، حتى تركت السكين ينفلت من قبضة يدي، وتشبثت بالهاتف
ونبضات قلبي تكاد تنفجر من الخفقان الشديد.

فسُرعان ما تسارعت أنفاسي بشهيق وزفير في إيقاعٍ مضطرب بعد
لحظاتٍ من إدخالِ أرقام النجدة ووضع سماعة الهاتف على مقربةٍ من
أذني اليمنى.

فإذ بأحدهم يدنوا من خلفي فيُسقطني أرضاً إثر ضربةٍ خاطفةٍ من
كعب مُسدسٍ بمؤخرة رأسي!!

على الفور سقطتُ طريحَ الأرضِ راقداً فيما بعد في غمرةٍ من غمرات
الغيوبة المؤقتة والسُّبات العميق في قبضة إبليس وتحت بأس أعوانه
حتى إشعارٍ آخر!!



الفصل الخامس

يوم تحظى فيه بحريتك هو ثاني أفضل يوم بعد موتك!

كنتُ في ملكوتٍ آخر لا ترى له من نهاية ولا تعلم له بداية. رأيتُ
أحبتى جميعاً وهم يلتفون من حولى والبسمة ترسم على شفاههم المواربة
ليبيض لآلىء أسنانهم.

ظننتُ في بادئ الأمر أني قُتلت وما تلاها من رؤيا هُوَ من وحي
الروح في أعالي الفردوس.

ولكن لما استفتتُ من الغيبوبة وجدت نفسي جالساً على كُرسي،
مُكَبَّل اليدين، والرؤية من حولي مُظلمة يتغشاها السواد. آنذاك فضلتُ
الصمت على الندبِ حسرة، فهاذا يُضيف الندبُ على جرح غزالية وقعت
فريسة بين فك ليثٍ لا يرحم.

وبعدَ بضع ثواني من التمتمة بصوتٍ منكسرٍ فإذا بإحد المثلثين ينزع
العُصبة السوداء عن مُحيط عيني فلا أرى من بعدها إلا عيوناً يلفح منها
سواد جهنم، فيبدو أنه كان كبيرهم! فكان يلتف من حوله شرادمته كما

تلتف قطيع الذئاب على بعيرةٍ نائحةٍ منحورة. وما زاد من حدةِ الخوف هو صمتُّهم المريب، وهُم يتشاورونَ فيما بينهم، ثم يتبعها نظراتٌ حارقة كأنهم يريدون الفتكَ بي، ولكن ما يمنعُهم هو عدم إعطاء الأمر من أكابرهم في الطاغوتِ والعِتاد، فما هُم إلا مُرتزقة ينتظرون تنفيذ الأوامر ككلابٍ مسعورةٍ تنتظر إفلات رقبتهَا من يدِ سيدها؛ لتنهش في ضحاياها نهشاً.

طيلة هذا الوقت لم أنطق بكلمةٍ لأنني كُنت أعلم لو كان لديهم أوامر بالقتل لقاموا بقتلي على الفور حتى من قبل فُقداني الوعي، ولكن في بعض الأحيان ترى التوقعات تتجاوز متاريس المنطق وإفتاح التنوير البصائري لتُصبح محضُ خيال. فلقد كان تحليلي للمشهد يخلوا من عُنصر المفاجأة!

فلما خَلَصُوا نجياً إذ بكبيرهم يخطوا تجاهي بدبيبٍ أقدام تقذف في القلوب رعباً. فإذا به يقف عن يميني ثم يُخرج مُسدساً من أسفلِ خصره فيصوبه فيما بعد في منتصف رأسي حتى كادت فوهة المُسدس تلامسها. فلم يكن لينقذني حينئذٍ إلا التكلُّم.

- أموالكم في حصنٍ آمين وإني لآتيكم بها لولا تُطلقون سراحِي،
وإن كنتم تكذبونني فالورقة في جيبِي الأيمن خير بُرْهان.

فما كان من هذا المُختل وبقيّة حُثالتهِ إلا أن ضحكوا في سِخريّةِ
مُستهزئين بعدَ ظنِّ أنني أقصدُ المُماطلة، فإذا بالمرْتزق مبتور الاسم يضع
إصبعه على الزناد!

ولما استشعرت حتمية النهاية أغمضتُ عيني لتتعالى الأصواتُ من
حولي

- هيّا اقتله يا "هاشم"

فيتشعّب في سائر جسدي رعشة ورجفة مُجحفة مخيفة لا يتباين
تأثيرها عن نُقطة السم في مجرى الدم.

وبالفعل ضغط على الزناد، ولكن اتضح أن المُسدس كان بلا ذخيرة،
وطيلة هذا الوقت كان الأحمق يتفنن في التلاعب بوتّر أعصابي كما لو
كنت آلة عزفٍ. من بعدها إذ بـ"هاشم" يقترب من أذني فيُخرج من
أطراف فمه كلماتٍ مُصنّعة من قذائف هاون!

- إن تَكْ كاذباً فإننا لمُسلوكَ إلي غياهبِ الموتِ طالباً إياه وما أنت بميت! فيجدر بك أن تَكْ صادقاً وتجلب لنا أموالنا.

حتى قاطع رنين الهاتفِ نبرةَ الوعيدِ هذه من قبل رأسِ الأفعى قاتلُ عمي، فيُلبي "هاشم" النداءَ بالإجابة وهو يبرق النظر في وجهي.
- هل قتلتموه؟

- ليس بعد، فهو يزعم أنه يمتلك أموالنا.

- وكيف صدقتموه أيها الحمقى!

فإذ بي أجد "هاشم" يقتربُ مني مُدخلاً يده في جيبي الأيمن مُخرجاً الوصية بعد إذ عفى الدهر عنها. فيقرؤها على مسمعٍ من رأسِ الأفعى مصدر عيشٍ مُرتزقه

- اعطوه من المهلة يومين فإن كان كاذباً إقتلوه فوراً.

فإذ بالفرعون الأكبر يُغلق من بعدها الهاتف في وجه "هاشم" لينظر الأخيرُ في وجهي بنظرةٍ حازمةٍ وبعينٍ صارمةٍ وفي صوتٍ يغلبُ الرعد في صولته

- فكوا أيديه من الوثاق!

وبعد إذ استعدت يدي وصارت طليقة حُرَّة فإذ بـ "هاشم" يصرخ
مُستنفراً

- والآن أين هي تلك المُستندات التي تم ذكرها في الوصية؟
فكان الرد.

- فقط اعطوني مُتسعاً من الوقتِ حتى أجد "أمين" المسئول عن
ممتلكات جدي!

- معك يومين من الآن في سبيل جلب الأموال لنا، وكُن على يقينٍ
أنك إلى أين ارتحلتَ فإننا لآتين بك ولو من قاع المحيط!

وما كان مني إلا أن طأطأتُ رأسي فقط على أملٍ أن يرحلوا بسلام.
وفي محاولةٍ لإظهار صدق نواياي تساءلت.

- ولكن بعد جلب المال كيف ستجدونني!

فيردّ "هاشم" وعينه تلمعُ ناراً

- ألم أقل لك إنني لآتي بك ولو من قاع المحيط، هل صوت الرصاصة
الفارغة أفقدتك القدرة على السمع؟!

لم يستحضرني قول شيء سوى أن استكملت طأطأة رأسي في ذلٍ
وُخُضوع مُجْجلٍ.

وبالفعل يلتفت "هاشم" ويتبعه من خلفه شراذمته المُلثمون وكل
واحدٍ منهم ينطق بالوعيد والتهديد حيال إن كنت كاذباً، وآخر يستطرد
بأن الزعيم لا يُعطى الفرصة إلا لِمَا، وآخر يقول إن كنت أتلاعب بهم
فسوف يفصلون رأسي عن جسدي!

في الحقيقة لم أكرث كثيراً تلقاء كلماتهم الطاعنة على قدر ما كُنت
أتمنى تلاشي أشباحهم من أمام ناظري بعد غلق لعيني وإعادة فتحها.
بالفعل همُّوا بالرحيل على بقايا انتظارٍ للقاءٍ جديدٍ.

كان معصمٌ يدي يتوهج إحمراراً جراء توثيقه بحبالٍ غليظة، ولم يكن
ليخفى على الأعمى شحوبةٌ وجهي وهو يتلبّد بالبرودة صقيعاً.

وحين ظننت في مقدرتي على الوقوف، تزلزلت الأرض إثر سقوطي
على وجهها. ويكأنّ قواي قد خارت تماماً ولم يبق بداخلي من مُتسّع
الصلابة إلا رُعونة.

ولما تحسستُ بأنفي رائحة العجز، وهى تغمر سائد جسدي. حينئذٍ
حسمَ جسدي قراره بالهبوط الإضطراري إلى عالمٍ من الأحلام حيث
يفوح من حولي وحي للأرواح في ملكوتٍ تزدهي فيه حوافِ الوجه
نضرةً وسُروراً.

كنتُ في أفلاكٍ من الخُلمِ سابحة على ظهر بُحورٍ من الخيال. تحسست
لو أني كُنت بالفعل خلف عوالمٍ ترُقَد من فوق جبينِ السحابِ الأبيض
وهو يحومُه طير يُرفرف بجناحيه في جو من السماء فيشدو بتغريد صوتٍ
مُبهِجة تلمسُ بين ثنايا تردها دفئاً مبثوثاً، تستشعر الدفعى حتى وإن
كُنت على ظهر لوحٍ جليدي والجو مُحومٌ من حولك بعواصفٍ ثلجية.

ومن بعيدِ المكان بداخل وشاح ذاكرتي إذ بي أرى وميضاً من لمحاتٍ
خاطفة تُحاكي حُلماً كان في يومٍ يُنيرُ توهجاً على ضفاف الواقع. ولكن ما
فائدة الخُلمِ الجميل إن كان لا يُحاكي الواقع، وما فائدة المطر بعد
الحصاد، وماذا يُضيف الأسى على الجرحِ الغائرة، والماء على نارٍ وقودها
الثَّار من أعينٍ غادرة؟

في هذه الحياة ثمة أشياء لا ينبغي لها أن تمضي هكذا مُرور الكرام فكما لكل نَبأ مُستقر فأيضاً لكل غدرٍ مُستقر ولو ترى إذ طال الميعادُ، سيأتي يوم يُصبح فيه من غدرَ فرحاً، مُسياً كلمحٍ من البصر مغدوراً حتى يتسنى لدائرة الظلم والغدر بالاكتمال.

تالله يوم مغادرتهم لهذا الواقع غدراً لن أنسى كيف وُلدَ في ركنٍ من قلبي حفرة من نار الله الموقدة، مُستعرة بلا حُمودٍ حتى حين إطفائها بهاءٍ من الغليل هو الداء وفيه للقلب شفاء.

وترى لو مضى الزمان في رجوعٍ لوقتٍ كنّا فيه مُنصهرين روحياً دون انفكاكِ. يومها كنتُ لأخبرهم لأبد الأبدين لن يقوى قلبي على خيانة العهد ولو في خيالي.

فما العائدُ من حياةٍ إن كنتَ تحيا فيها بنصف روحٍ، وكان نصفك الآخر يرقد فيمن غابَ عنك دون رجوعٍ.

وما الجدوى من الوجود إن فقدتَ نفسك في روحٍ أحدهم، حتى إذا قضى عليه الموتُ ضاعتَ نفسك في جلايبِ روحه للأبد. ولمتى ينتهي الكبدُ المُستتر في رداء الكمد، وقد كان فقط عبثُ أنفاسهم يُريح العُربة عن الفؤادِ.

في ظلمات الليل كان يُحوم حولي وحي من أرواحكم الدانية فلا
يغمرنى إلا سكينَةً كمِثل من تتنَزَّل عليه الملائكة وهو يُصَلِّي في المحراب.
كنتُ دوماً في دوامةٍ من التساؤل، كيف صَنَعْتُم من اللاوجود
وجوداً، ومن الحُفَاءَ ظهوراً، ومن الغيبة السَّحِيقَةَ حُضوراً.

يا من رحل بلا عودةٍ، ما لي أرى وجهك بين الأنام مُتفَرِّداً، كأن
وجهك لم يُخلَق سواه بين الأنام أجمعُ. وما لي إذ ذُكرْتُك خالياً فاضت
عيناى كأنها أبداً لم تَدَمَعُ. ويا ويلتاه من نفسٍ عجبت لها، أنى لا تنسى
ولها في النسيان حياتها.

كُنْتُ لأخْبِرَ أُمي.. كانت أمنيّتي هى نظرة واحدة في شمس وجهك
ولو بقدرِ إختلاسة! فإن طاقَتِ النظرة معها كلمة فما تمنيت أبداً حين
كلماتك أن توَجِزي!

كُنْتُ لأخْبِرَ أُمي.. نسَمات طيفك الوضّاءة هذه رأيتها من قبل في
حُلُمٍ جميلٍ. كنتُ كالخُلُم الذي لا يُشْتَهَى نهايَتُهُ قط. وقتَ طالعتُ
طيفك في المنام من حُسن طالع، وبهاء ثغر، ونظرة ملائكية، كنتُ على
علمٍ بكونِ هذا حُلُمٍ جميل لا يُلامَس غُبار الواقع، ومع ذلك تمنيت أن

أَمْضِي بَقِيَّةَ حَيَاتِي عَالِقاً بِهِ، تَمَنِّيْتُ لَوْ اسْتَكْمَلَ مَا تَبَقِيَ لِي مِنْ عُمْرِي فِي
عَالَمٍ خَلَقَنَاهُ سَوِيّاً، هُنَا فِي رُبُوعِ تِلْكَ الْبُقْعَةِ الْحَالِمَةِ، وَمَا الْمَانِعُ فَالْبَعْضُ
يَخْلُقُ مِنَ الْحُلْمِ وَاقِعاً؛ كَيْ يَعْيشَ فِيهِ. لَمْ لَا أَكُونُ مِنْ ضَمَنِ هَؤُلَاءِ،
كِبْدَايَةِ حُلْمٍ وَاعِدَةٍ لَمْ يُكْتَبْ لَهَا نِهَايَةُ قُطْ. رُبِمَا قَدْ نَفَدَ الْحَبْرُ، وَمَنْ يَعْلَمُ!
فَلَرُبَّمَا قَدْ يَكُونُ أَنَا مِنْ أَفْرَغَتِ الْمَحْبَرَةِ فِي الْمَرَحَاضِ.

وَكُنْتُ لِأَخْبَرَ أَبِي وَأَخِي كَمْ هُوَ قَاسِي أَنْ يَنْأَى أَحَدُهُمْ بِنَفْسِهِ إِلَى بَعِيدِ
الْمَكَانِ، وَيَرْتَدِي رِذَاءَ الْفَقْدَانِ. وَقَتَهَا تَقِفُ الْكَلِمَاتُ عَاجِزَةً عَنْ وَصْفِ
مَا فِي الْقَلْبِ. وَلَنْ تَسْتَطِيعَ أَبْلَغُ الْعِبَارَاتِ وَأَدْقُّهَا فَصَاحَةً وَلَا بَيَاناً عَلَى أَنْ
تَصِفَ يَوْماً وَقَفْتُ فِيهِ أَمَامَ شَاهِدِ قَبْرِهِمْ. مِنْ بَعْدِكُمْ كَانُوا يَطْلُبُونَ مِنِّي
التَّنَاسِيَّ وَالْعَيْشَ كَأَنْ شَيْئاً لَمْ يَكُنْ! هَلْ سَبَقَ وَأَنْ رَأَيْتُمْ وَقَاحَةَ أَشْعَثِ
قَبَاحَةٍ مِنْ هَذِهِ؟ كَيْفَ يَسْتَجِرُّونَ عَلَى هَتِكِ بَاحَةِ حَرَمِ قُدْسِيَّتِكُمْ فِي
مِحْرَابِ قَلْبِي!

فِيَا مَنْ غَابَ عَنِّي يَشْهَدُ اللَّهُ مَا مَضَى يَوْماً إِلَّا وَكُنْتُمْ فِي الْقَلْبِ
صَاحِبِاً، وَلَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَكُنْتُمْ فِيهِ بِخَاطِرِي مُلَازِماً.

كانت أمنيّتي الأخيرة هي النّظر داخل شمسِ وجوهكم مرّةً ثانية
وهي تُنشر حزمها الضوئية الأخيرة.. من قبل تواريتها بالمغيب للأبد.

حين الاستفاقة من عالم الأرواح كانت مُناوشات صوت العدو
تقذف في خندق عقلي رعباً. فسارعتُ بالقيام نهوضاً ومن تحت رقودي
تشكّلت بركة لزجة من العرق والذي ينهار تصبباً كشلالاتٍ ماءٍ مُتدفقة
بل كينابيعٍ من بطن الأرض مُتفجّرة.

كان الليلُ قد خيمَ بظلاله السوداء بعد استيلاءٍ منه على الأفق.
حينئذٍ عدوّتُ صوبَ القبو بعدَ تأكد رحيل المُلثمون. وبالفعل سحبتُ
طرف الفرش وفتحتُ من بعده باب القبو، وهممت بالهبوط في درجاته
لأصل أخيراً إلى سطحٍ قاعه في الطريق نحو سحب فتيل قابس الضوء.
وفي بضعٍ من الثواني كنت أقف أمام المُستندات بعدما لُزمتُ الحرص في
تواريتها عن الأنظار، ولكن الفجیعة بحقٍ كانت لما اطلّعتُ على
المُستندات لأجدها قد تآكلت من أسنان القوارض في ظل غياب المنطق
عن التفسير!

فازداد تكتُّل الخبيات من فوقِي حتى أضحت وابلًا من خبياتٍ وخيمة. وأثناء إنغماسي في غمار النحيبِ انقلبت المبيكات إلى مُضحكات بعد إذ تذكرت أنني لم أضع البيض في سلةٍ واحدة!

فقد قُمت بنثر أوراق مُستندات التنازل في عدة أماكن مُختلفة من القبو حتى إن حدث فرضاً وفُضَحَ أمرِي فعلى الأرجح كانت لتكون خسارة خفيفة؛ لأنهم مع شروعهم في البحث وإيجادهم لأول وثيقة تنازل سوف يكفون البحث ظناً منهم أنهم قد عثروا على المطلوب!

لذا كان لزاماً ألا تُجَازف بكل أوراقك وأن تترك الجوكر في الأخير؛ فيقتصر لأجل إخوته الضعفاء من البغاة القُساء، حتى حين يظنون الظنونَ ويرون مقعدهم من فوزٍ مُحقق يأتي هذا الجوكر من فوقهم ليدكّ أمانهم لتصير وهماً، وينحرُ أحلامهم نحرًا.

تحرّكت فوراً لأجمع بقية المُستندات على أمل ألا يكون قد طالتها أسنان القوارض، وبالفعل كان المتبقي يكفي؛ كي يُخلَّصَ رقبتِي من الموت.

سَحَبْتُ المُستندات وقُمت بوضعها أسفل ظهري ثم أغلقت باب القبو وهممت بالصعود. تخيلت كما لو كنت لست الوحيد من تخطوا قدماه بهذا المنزل، ولكن على ما يبدو كان إنذاراً كاذباً.

تتبعْتُ حُطًى قَدَمِي إِلَى حَيْثَمَا تَرْنُو بِي إِلَيْهِ، بَعْدَ أَنْ عَقَدْتَ الْعِزْمَ فِي
الْعُثُورَ عَلَى "آمِينَ" قَبْلَ وَضَحِ النَّهَارِ. فَخَرَجْتَ لَيْلًا مِنَ الدَّارِ وَظُلْمَةَ
اللَّيْلِ مِنْ حَوْلِي تَصُبُّ فِي قَلْبِي الذَّعْرَ مَثِيرَةً حَفِيزَتِي.

تَعَثَّرْتُ كَثِيرًا فِي الْعُثُورِ عَلَى "آمِينَ" فَبَعْدَ مَشَقَّةٍ شَاهِقَةٍ وَشُرُودٍ يَشُوبُهُ
الشَّتَاتُ وَجَدْتَهُ فِي إِحْدَى شَرَكَاتِ جَدِّي لِلتَّسْوِيقَاتِ الْعَقَّارِيَّةِ. فِي
الْحَقِيقَةِ هُوَ مَنْ تَعَرَّفَ عَلَيَّ وَيَكُنُّهُ كَانَ فِي انْتِظَارِ مَجِيئِي فِي يَوْمٍ مَا. وَفِي
لَيْلَةٍ وَضَحَاهَا مِنْ قَبْلِ انْقِضَاءِ مُهَلَّةِ الْيَوْمِينَ كَانَتْ جَمِيعُ الْأَمْلاكِ الْعَقَّارِيَّةِ
قَدْ بَاعَتْ بَعْدَ إِذْ كَانَ مُشْتَرَوَاهَا حَدِيثًا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا بَعَيْنِ اللَّهْفَةِ سَابِقًا! لَمْ
لَا وَقَدْ سَنَحْتُ لَهُمُ الْفُرْصَةَ الْآنَ. وَلَمَّا تَخَطَّيْتُ عَتَبَةَ الْبَيْعَةِ فَإِذَا بِي أَجَدُ
"هَاشِمَ" يَسْبِقُ ظِلِّي وَيَقِفُ عَنْ أَمَامِي، كَانَ هَذِهِ الْمَرَّةَ بَدُونَ وَجْهِ مُلْتَمِّمٍ،
وَعَلَى الْأَغْلَبِ قَدْ بَرَدَتْ أَنْيَابُهُ!

دَارَ بَيْنَنَا حَوَارٌّ صَامِتٌ ذَكَرْتُ فِيهِ الْعَيُونَ مِنْ الْكَلِمَاتِ الْكَثِيرِ، وَلَمْ
تُتَرْجَمِ عِبَارَاتِ الْعَيُونَ إِلَى كَلِمَاتٍ كَامِلَةٍ تَخْرُجُ مِنَ الْأَفْوَاهِ؛ لِإِنَّا كُنَّا فِي
حَيٍّ يَكْتِظُ بِالسُّكَّانِ وَيَزْدَحُمُ بِالْمَارَةِ وَيَمْتَلِئُ بِإِشْغَالَاتِ الْمُرُورِ. وَبِالْفَعْلِ

تمَّت صفقة تحريري من أغلال الموت بعد إذ صار المال بحوزة "هاشم"
ولن أنسى كلمته الأخيرة لي

- "لا أريد رؤية وجهك إلى الأبد" وفي غمضة عينٍ كنت قد
تلاشيت عن أنظاره وتواريت إلى الظلال.

يومها تلامست شرارة بداخلي كسلكٍ كهربائي تلامست أطرافه مع
القابس. شرارة استشعرت معها كإني تملكيت بعضاً ما سُلِبَ مني من
جزءٍ مفقود، فعاودت التعرّف علي نفسي كأنها المرة الأولى. صدقاً ما
أجمل أن تتعرّف على نفسك من قبل أن يحين ميعاد موتك. البعض قد
يلعب من الزمان عقوداً ويلبث في الأرض السنين ثم يموت من قبل أن
يخوض غمار واحدة من أهم مُعتركات حياته، وهي أن يستكشف نفسه
ويتعمق غوصاً في أصداف خباياها.

كنت مُمتناً لصنائع القدرِ فالآن فقط يُمكنني التخطيط لفرصةٍ
انتظرتها كثيراً حتى صرت من العُمر عشرون وزادوا ثلاثة. وها يأوي
بي الزمان إلى حيثما تركت بيت والدي، والآن أدخله فائحاً.

دخلت البيت ولا أعلم ماذا قد حدث فقد امتزج بداخلي شعورًا
مغايرًا. فيوماً ظننت أنني سأمضي وحيداً يُنسى كمن تم نسيانه من قبلي،
وطُوي على صحيفته بنسيان أبدي، وحُفر تاريخه مع جسده في قبره بلا
ظهورٍ تحت سطوة الإندثار.

الآن يُمكنني الجزم أنني لم أكن يوماً هذا الشخص، وحتى في ظل
مُحادثتي معك يا سيدي يُمكنني إخبارك بأنهم مُلازمين لي لأبد الأبدين،
وإن كنت لا أراهم هُم من يدعمونني في الخفاء، هُم من يستمدُّ بي
ضعيف حالي قوته، هُم من يسطرون الأحرف وأنا من يضع النقاط من
فوقها وستُدرِك فيما بعد كيف.

كُنت قد عقدت العزم على مواصلة الطريق حتى وإن كان وعراً.
كُنت أعلم أن المرحلة المُقبلة إن صاحبت خطأً واحد فتبعاته بلا أدنى
شك ستكون كارثية. في حريّة الاختيار تكون المسؤولية كاملةً مُلقاة على
عاتق من اختار، وبالأخير هو كان إختياري!!



الفصل السادس

"ليست الأهور دائها تبدو كما تظهر عليه"

في صباح اليوم الثاني كنت قد توجَّهْتُ إلى المقر الرئيسي لجريدتي جريدة "التراث" فكان الجو مشحوناً بنظراتٍ تحتمل الغدر أو الحقد من ابن الثلاثة والعشرين ربيعاً وهو يمتلك جريدة بحجم "التراث". أتذكّر أبي قال لي يوماً إن الأحمق هو الذي يُغض البصر عن قلوبِ تفوح منها الضغينة ثم يدّعي إحسان الظن بهم، وأن كبير المقام بين قومٍ هو من وثق فيه قومه حدّ الموت إن لزم الأمر.

كلمة الفصلِ عندي قد صدرت بإقالة الغالبية الكاسحة من مُحري الجريدة. ربّما قد خسرت أسماً لامعة تُضاء لها النُجوم ليلاً، ولكن قلت لا بأس ما دام هذا سيخدم مُحططي المختار، وما المانع فلكلّ حرب ضحايا ولا تصير الحربُ حرباً إن لم تُراق فيها الدماء كما لا تشتعل النار دون شرارة، ويكأنني كُنت أتناقش مع نفسي في بديياتٍ حينئذٍ. وبالفعل تم تصفية الجميع فلم يتبقى إلا البقايا من الغُربال ممّن تعول على أمثالهم مطمأن البال، وراضي الحال.

وعلى كلٍ يكفي على ضميري إبتسامتهم وهم يقبضون رواتبهم المتأخرة بثلاثة أشهرٍ ماضية. وعلى الأقل هكذا ضمنتُ ألا تتولد معي عداوة مُستقبلية مع من لا يُفترض بهم أن يقتحموا أرض المعركة، فالإنسان بطبيعته تألف ذاكرته في تذكّر مواقفه الأخيرة ممّن غابوا عن وشاح ذاكرته طويلاً إما بالخير وإما بالشر كل تبعاً لطبيعة الموقف الأخير.

أمّا الحربُ فهي من طرفان معلومان في الغاية موصولان بنفس أمنية النهاية، وهى الفوز، وإقحام طرف ثالث بينهما قد يعني شق الصف، وتشتيت الجبهة، حتى من قبل تشتيت الغاية؛ لأنه إن تمَّ شق الصف فعقيدة الغاية لن تُولد من الأساس؛ لأن الغاية تُولد من رحم الثبات والصبر على زلزلة الشتات. وعلى الأقل كان ما يُهمني وقتها أن يبقى الصراع ثنائياً.

حين هدأت الأحداث وتباطأت وتيرة المفاجآت. فكّرت حينها مُعاودة بسط سُبل الوصال بيني وبين "حبّية" هى لم تكن تعلم عن عودتي شيئاً، فضلاً عن أنني ترأست الجريدة . ما كان يشغلني هو ألا

تكثر دائرة معارفي فلا يطولهم مرصادُ الأذى فيما بعد، وبمقصرٍ من قسوة
قطعتُ حبال الوصال فلا أستطيع بعد اليوم لهم سبيلاً.

أتعلم يا سيدي! حينَ يتجرع المرءُ مرارة الفراق مرة، فقط مرةً واحدة
فسريعاً ما يعتاد من بعدها على علقم الفراق حتى يستسيغه كأنه عسلٌ
مُصقًى، وشهدٌ سائغٌ حلُوٌ مذاقه. أحياناً حرصك على التخلص من
تبعية الأشخاص لك ومعيتك هو أمرٌ محمودٌ فراقه. فأضعف سوءة
تُظهر عراء الضعف لدى الإنسان هي التلاعب على أوتار ساكني
حواشي قلبه

دارت الأيام ولم يخلوا فيها حسبي ولو بمقدار ثانية عن رسم
التدبيرات الإحترازية في إيجاد قاتل عائلتي. صحيح أن القاتل كان
وما زال طريد العدالة، وأن عدم توافر ثبوت الأدلة هو عائق في حد ذاته.
ولكن لم أعتقد يوماً عن كون هذا العائق الرئيسي. فحدسي كان يُخبرني
أن الجاني يُجتبئ خلف مكتبٍ تنفر بعيداً عنه مؤشرات الإتهام. ولما تراكم
العُبار في أوراق قضايا عائلتي بأفرادها الثلاثة الراحلين غدراً، هنا فقط

استقر في ذهني فكرة ستؤتي ثمارها على المدى البعيد وأظن أنني نجحت في استخدامها كذريعة ظاهرها المعلن يتنافى مع باطنها الأصلي. وهنا طلبت من سكرتيري الخاصة "ريهام" أمراً يبدو أنّها لم تستوعب الغرض منه لأول وهلة!

فبينما وأنا في مكثبي حيث قُمرة القيادة طلبت من "ريهام" القدوم إلى مكثبي الخاص وكانت المُحادثة!

- مرحباً "ريهام"، من فضلك في العدد الصادر غداً من الجريدة سوف يتم نشر الإعلان عن فرص عمل مُتاحة فقط لنوعية معينة من المتقدمين؟

- ومتى ميعاد المُقابلة لفرص العمل؟ ردّت "ريهام" مُتسائلة بعد ثوانٍ من غزو الغموض على وجهها الأملس.

- إبتداءً من بعد غدٍ!

- وماذا عن نوعية المتقدمين؟

- فقط لمن كان سلبَ حقه أو حق عزيز عليه ولم يأخذ القانون مجراه في نهر تفحص الحقيقة.

ثم قلت في سري "أو في طمس الحقيقة!"

اليوم الثالث في جريدة "التراث" ..

- عاطل يقتل صديقه لرفضه أن يدفع حساب القهوة، سيدة أربعينية تُفقد ثم يعثرون عليها قتيلةً، عربية شُرطة تنقل المساجين فتسقط في بحيرة ماء فيغرق كل من كان على متن العربة بالسائق، طائرة حلقت من موسكو فتسقط في شبه جزيرة "البلقان" بعد تعطل المحرك عن العمل.

ما هذا يا "ريهام" ليس معقولاً أن يُنشر في الجريدة كل هذه المآسي في صفحة الحوادث. بالطبع لن أوافق على نشر كل هذه الأخبار السيئة، أخبري المحررين بأن نتخفف قليلاً من ذكر كل هذه الحوادث المأساوية! ليتم قبول الأمر منها في سمع وطاعة،

- بالتأكيد يا سيدي. بشأن طلب البارحة فلقد تم نشر الإعلان، هو الآن على واجهة الجريدة في العدد الصادر من اليوم.

ليأتي اليوم الرابع من رئاستي للجريدة..

بينما كنت جالساً على مكتبي غارقاً في التفكير، نظرتُ قليلاً إلى الشارع فكانت جميع المحاور مُغلقة، وكانت العربات تمرُّ من الشوارع

الجانبية بهدف إصلاحاتٍ في الطريق، فضلاً عن الطرق بأدواتهم الثقيلة في الأرض.

لكن الأهم هو أنه على عكس المتوقع!

تمت مُلاقة الإعلان في اليوم الرابع بحشودٍ غفيرة فاقت التوقعات بالرغم أن كل هؤلاء الوافدين لم يُدركوا بعد الغرض من وجودهم هنا. فلما جاء ميعاد المُقابلة ودخلت الأفواج تباعاً في يومٍ استنقص من جُهد "ريهام" الكثير. وبينما المُقابلة تُجري هنا شَمّرت عن ساعدي في سبيل ارتشاف القهوة، والإنصات بعناية إلى إجابات الأسئلة التي أ طرحها. فكانت المُقابلة الأولى..

- عرّف نفسك ولماذا أنت هنا؟

- حسناً، اسمي "نجيب" وأبلغُ من العُمُر التاسعة والعشرون. وظيفتي هي مهندسٌ للإتصالات بإحدى الشركات الوطنية. وأنا هنا؛ لأنه تم إغلاق قضية مقتل زوجتي تحت ذريعة الإنتحار، ولدي يقين جازم أنها لم تُقدّم على فعلتها هذه هباءً.

- حسناً اسحب ورقة من أمامك وقم بكتابة ما سرده تواء ولا تنسى إرفاق اسمك ورقم هاتفك في الورقة ذاتها.

ومن بعدها تم استئناف المقابلات والسؤال ذاته يتردد على اللسان فتتباين القصص ويبقى قسوة أثرها ندبة غائرة في القلب لا تندمل منها الجراح.

فتكون بقية القصص..

منهم من خُطفَ ولده وفلذة كبده من أجل فدية يعتق بها رقبته ثم بعد التحصّل على الأموال فإذ بصاحبنا يتسلّم ولده مقتولاً.

ومنهم من تم إتهامه غدرًا ولبث بالسجن بضع سنين تجاه جريمة تم توريطه فيها ظلماً وحيفاً.

ومنهم من شهد في المحاكمة بما رآه فكان الموتُ غدرًا لأسرته هو آخر قطرة حبر من فصول نهايتهم.

ومنهم من قاموا بإغراق عزيز لديه فقط لسكب الماء على نار الغيرة وإخمادها.

ومنهم من جاء في سبيل تقديم العون والمساعدة قدر المستطاع من صحفيين ورجال شرطة

حقيقةً كان مُحطّطي لا يتسع لإحاطة كل من تقدّموا، التنفيذ ثم الاختيار من بينهم كان غاية في الصعوبة. وددت لو مددت يد العون للجميع ولكن هكذا هي الحياة أولويات تُحرّكها مصالح. ولو باء المُخطط بالهلاك فالطوفان حينها لن يُفرّق بين الصالح والطالح. ورُبَّ خطوة قصيرة ترحف نحو الهدف ببطء خيرٌ من قفزة مُتعالية مُتحدّلة تسوق إلى هاوية الهلاك. بلا رجعة حسمت الأمور وبالفعل قُمت بانتقاء ستة أشخاص ممن تقدّموا والسابع أنا اخترته بنفسى وقُمت بالاتفاق على ميعاد إجتماعنا الأول حيث سيقام داخل الجريدة! ومعها يعلوا بوق الحرب على الطبل!



الفصل السابع

يوم ميلاد السبع سنابل!

الإجتماع الأول بداخل المقر الرسمي لجريدة التراث..
على متن طاولة دائرية كبيرة القُطر تُشابه طاولات المناقشات العالمية
المُخدمة..

- مرحباً بكم مرةً ثانيةً، أما قبل، فلقد كانت عملية الاصطفاء بينكم
ليست بالسهلة إطلاقاً. ولكن تهانينا فأنتم الباقين من الغربال! وأما بعد،
لحظات معدوداتٍ وسوف يُفصح لكم عن الصورة كاملةً!

في الحقيقة نحن هُنا لتحقيق العدالة. فكما ترون كل من يجلس على
هذه الطاولة لا ينبغي شيئاً سوى تحقيق العدالة. العدالة التي لم تستوفِها
الشروط التعجيزية؛ كي تكون مقصلةً فوق عُنق الجاني. الجميع يريد
القصاص وهذا ما سنحرص عليه كقوةٍ واحدة. قبل التطرق إلى الكيفية
أحتاج أولاً إلى معرفة هل جميعكم تُبدون الولاء للتحالف أم هنالك من
أراد الخروج؟

فما كان إلا وأن رَفَعَ الجميع أيديهم في موافقةٍ صريحةٍ على البدء في تقنين وتحقيق العدالة، وأعينهم تلمع من الرغبة في الثأر من مجرمين لاذوا بالفرار من مصيدة العدالة.

- عظيم للغاية ويبدو أن حدسي ذو البصيرة لم يُخَيِّب ظني فيكم. الآن سوف أتُرك لكل واحدٍ منكم التعليق سريعاً على مُلابسات الجريمة التي خاضها، وسوف نحاول فك خيوط التشابك، ولكن هذه المرة من مُنطلق أن الجريمة تم إرتكابها من جاني حقيقي نحنُ صائدوهُ، وليس شعباً مجهولاً لا يُعلم له هوية في سجل الجريمة.

والآن لتبدأ حلقة التُعارف بيننا، فلنبداً من اليسار. تفضّل.

- مَرحباً، أنا النقيب "رفيق". ربّما حالي أفضل بكثيرٍ منكم، ولكن أنا هُنا من أجل بَسْط يد العون لأجل تحقيق العدالة. ولا أخفي عليك أطمح أيضاً لبعض الإمتيازات، وفي الأخير من يعلم فلقد يتم ترقيتي فيما بعد بسبب تلك البشارة.

- أهلاً بالجميع، معكم "هشام" مُختص في البرمجة ومجالات الإختراق الإلكترونيّة. في الواقع لقد تمّت دعوتي من قِبَل آنسة تُدعى

"ريهام" أظن أنها هي التي تظهر من خلف الزُجاج أماننا. لا أعلم بعد لماذا أنا هُنا ولا الغاية المرجوة مِنِّي. ولكنك ذكرت يا سيد "ريّان" أن كل من يجلس على هذه الطاولة لا ينبغي شيئاً سوى تحقيق العدالة. ولكن أنا لستُ من هؤلاء أليس كذلك يا سيد "ريّان" !

- بلى، بالطبع لست منهم، ولكن مثلك عندي كمثل سيادة النقيب. كلاكُمَا مُهمٌ للغاية؛ لتحقيق العدالة.

ليس أنتما فحسب، بل كل من يجلس على هذه الطاولة سوف يكون له دورٌ في تحقيق العدالة سواء لنفسه أو لبقية السنابل، فلا فارق بيننا من بعد اليوم.

ولأننا عُصبة واحدة، فالسنابل بأكملها تتحرك للفرد الواحد منها؛ لأن هدفنا جميعاً واحدٌ.

والآن دعونا نتعرّف على الضحايا.

الضحية الأولى تفضّل بالحديث..

أنا "نجيب" أبلغ من العُمُر التاسعة والعشرون، مُهندسٌ في الإتصالات. صُلب ما جئتكم به، وصميم المراد من قُدومي هذا. هو

بسبب غمامة الغموض الشائك حول إنتحار زوجتي في ملابسٍ يغيب
عنها المنطق. إنني يتحتم على طبيعة وظيفتي الخروج من قبل استواء
قرص الشمس في سماء الأفق، ثم العودة وعباءة الليل قد فضفت
سوادها، وذلك في سبيل توفير معيشة رغبة مُنعم لي ولأسرتي المؤلفة
من صغيرتي المدللة "ريحانة" وزوجتي "مرام"

وتستمر الحياة على هذا المنوال الرتيب فكان كل شيء يمضي على ما
يُرام حتى ذلك اليوم الذي دخلت فيه البيت في ساعة متأخرة من الليل.
فكان البيت ساكناً مُنطفئ الأنوار إلا غرفة المعيشة كانت مُضاءة
بالشموع حتى ظننت أنه إحتفاءً من "مرام"، فقد كان هذا اليوم هو عيد
زواجنا السادس. فلما رفعت زِر قابس الإضاءة فإذا بي أجد أمامي
زوجتي "مرام" وهى تتعلّق مشنوقةً من رقبتها وتتدلى قدمها من أسفل
مُتطايرةً من نفحات الريح العابرة داخل وجه النافذة. ولما تفحصت
النظر من حولي فإذا أجد رسالةً منها:

عزيزي "نجيب" .. بينما أكتبُ لك وُصيّتي هذه سوف أكون بصدد
الرحيل في هدوء تام. ساعة الرحيل لا أريدُ منك ذرفاً للدموع ولا

إنغماساً في نحيبٍ يكتوي الفؤادَ منه حسرةً وألماً. وإنما لي في ذمتك دعاءً صادقاً في جوف الليل بينما رائحة النوم تفوحُ من عينيك، وعنايةً لابتنا "ريحانة" ستجدها ملاكاً نائماً في غرفتها. صدقني ما آلت إليه الوقائع كانت رياحُ تغيراتها هوجاء شديدة في تقلباتها.

عزيزي "نجيب" يوم لقائنا الأول كان يفيضُ عن أقاصي أمنياتي في الحياة فقط لمجرد كَوْن اللقاء يجمعني بك. صراحةً كُنْتُ بارعاً في استقطاب القلوب صوب قِبَلَةِ الإفتتان بك! كُنْتُ في الفتنة واقعةً بك، وأنتَ من قمتَ بإنشالي من رحم المعاناة هذه. فصرت أسيرةً في فلكك وفضائك الشاسع وكُنْتُ مُحَلَّصِي الأوحـد للسقوط في جاذبية حُبِّكَ.

لن أنسى يوم أخبرتني أن عيناى تـدثرت بإستبرقٍ من حياءٍ، وأنه حين عقد مُقارنة بين خيوط عيني الذهبية وبين العسل في اللون واللذة فإن العسل بجانبى يصير عُلْقماً مُراً طعمه.

لَمَّا يُفارق الروحُ للجسدِ اعْلَمَ أننى عجزت من نفاذ الحِيلِ وشَحَّ الحُلُول، وصبرت على المحن ما منه الجبال تزول، وأن ما ستره أمامك أو بالفعل ما تراه حالياً أمامك هو كان أفضل مصير لي ولك ولصغيرتنا.

أحياناً يتوجب التضحية بحياة؛ كي لا ينضب ماء الروح في جدول
حيواتٍ بأكلمها. وبقيناً أعلم أن من يُضحّي أبداً لا يموت؛ لأن جميل
ذكره سوف يحيا حياة الكرام فيمن تمت التضحية لأجلهم. فيمن
يتخذون من قلوبهم سكناً ومأوى يُلمَلَمُ فيه تناثر الذكريات الجميلة
التي رُسِمَت للمُضحّين بمحبة من نور. قالوا لي أن التضحية شيمة
الأقوياء ولكن صدقني أبداً ما حييت لم أكن يوماً في ضعفٍ مُحجّلٍ
كهكذا أبداً. لا أطلب منك الصفح الجميل فلست أهلاً له ولا لتفهّم
أسبابي فهي مُبهمة صعبة الإدراك، ولكن في يومٍ ما سوف تعرف أنني
تحمّلتُ ما لم أستطع عليه صبراً.

حييتُك.. في صدد انتظارك فلا تغيب.

رحلت "مرام" وتم تقييد القضية على كونها حالة إنتحار في استبعادٍ
تام للشق الجنائي. لم أصدّق على الرُغم من شروع رجال البحث الجنائي
في تفحص المنزل والعثور على عقار "البرو زاك" المُستخدم في حالات
الإكتئاب في إحتمال يُفيد إصابة "مرام" بمرضٍ نفسي.

ثم رُفِع الستار وتبيّن فيما بعد تلقيها العلاج على يد طبيبة نفسية تُدعى "رغدة" بعد إذ كانت توهمني أنها تتجول في الأسواق تزامناً مع وقت مُعالجتها من المرض النفسي.

لَمَّا ذهبت إلى الطبيبة "رغدة" في بادئ الأمر أنكرت معرفتها بـ "مرام"! وبعد الضغط رفضت وبشدة إعطائي أدنى معلومات تُفيد بماهية مرضها.

فالخلاصة من كلماتها أن "مرام" طلبت منها بالآ تَفْصِيح عن سرداب أسرارها أيّاً كان السائل!

الضحية الثانية، تفضّلي..

"رحمة" تتحدث. مُمرّضة سابقة بإحدى المُستشفيات الوطنية. عزباء. أبلغ سبعة وعشرون عاماً قضيت منهم عدة سنوات في السجن لتهمة لم أرتكبها.

البداية تمثّلت في يومٍ كانت فيه وردية عملي ليلاً. يومها دخلت الغرفة على أحد المرضى بغرض إعطائه الدواء فما وجدته إلا مُفارقاً للروح ولا

ينبض فيه طرف بعد إذ تم غرس حُقنة سامة في محلول الوريد. وكان هذا المريض في اليوم ذاته سبق وكُنت غليظةً في تعاملِي معه وعلا صياحي بالرواق بعد إذ كان يُغازلني! حسناً، كانت صدمة الإرتياح ممّا رأيته مُناسبة تماماً لإطلاق الصراخ من هولِ المشهد. وعلى إثرها تم الزّج بي في الجريمة باعتبار ترقيتي الحديثة إلى مشرفة الطابق الثاني من عُرف المرضى. وتمت مُحاكمتي لأسباب تتعلّق بسوء التقصير والإهمال، فضلاً عن إتهامي بالضلوع في تدبير الجريمة والدافع أنني قُمت بسبِّ المجني عليه يوم الواقعة بعد مُغازلتي، ولكن عدم كفاية الأدلة بالإضافة إلى دهاء السيد "رشيد" المُحامي خففت الحُكم إلى سنواتٍ معدوداتٍ. عانيتُ من فُرط القسوة، ومن معاملةٍ مُجحفةٍ أشبه بالجحيم. فقط ما كان يلوح على سفح بروجِ عقلي هو الإنتقام الضاري ممّن تسبّب وتعمّد في إلحاق الضرر بي.

فلَمّا كُنت أقضي فترة العقوبة بالسجن فإذ بأحدهم يُرسل لي رسالة ورقية داخل أروقة السجن. كلماتها كانت غير مُتناغمة نوعاً ما. هي في حوزتي لحدّ اللحظة دعوني أقرأها لكم.

مرحباً عزيزتي أتمنى لك متينَ القوةِ وسديدَ الصِّحةِ، اشتقت إليك في
المرّة المُقبلة نوّذُ أن نراكِ على خيرٍ. تمالكِي نفسك يا عزيزتي فقط بعد
أيام

ستخرجي إلى الحياة وتُعوضين سنون حياتك مُجدداً بعافيةٍ إنطلاقاً
من السجن إلى الخارج حيث الجميع في انتظار لُقيائك قبلما يرحلوا من
الدُّنيا مُغادرين
للقبر. إلى اللقاء.

لأول وهلةٍ لما قرأت الرسالة أثلجت صدري كثيراً ولكن فيما بعد
ساورني الغموض بعد إذ لم أجد للرسالة مُرسلاً مُرفقاً اسمه بنهاية
الرسالة! حتى لما كُنت في أوج تركيزي لاحظت أن الرسالة مُشفرة وأن
أول كلمة من السطر الأول ثم ثاني كلمة من السطر الثاني ثم ثالث كلمة
من السطر الثالث... إلى آخر الرسالة مجموعها يُعطي مَعنىً مُغائراً تماماً!
فتكون الرسالة:

"مرحباً المرّة القادمة ستخرجي من السجن للقبر"

وهنا فقط كُنت على يقين دامغ أنني بالفعل تم التلاعب بي وأن أحدهم من مصلحته إلحاق الأذى بي لدرجة تدفعه لإرسال رسالة مُشفّرة تتوعدني بينما أنا عالقة بداخل أسوار السجن!

الضحية الثالثة تفضّل..

مرحباً بكم، أنا المهندس "عامر". في السادسة والأربعون. مُتزوج وعندي أولاد.

أما بالنسبة لعملي فإني مُهندس في الكهرباء. وجئت إلى هنا بعد إذ قُتِل ولدي الصغير غدرًا.

البداية كانت لما كُنت في مقر عملي بإحدى قطاعات الكهرباء وهاتفني شخصٌ مجهول بمكالمةٍ مفادها أن صغيري البالغ من العمر تسع سنوات قد تم إختطافه، وكان لتحريره مطلوبٌ فدية تُقدّر بنصف مليون جنيه.

كان تأثير الخبر على قلبي بمثابة تأثير نقطة السُم في مجرى الدم. فهاجت أمواج وجهي وانتفضت ذعراً بعد إذ ترجّيته أن يتحصّل على ما

يريد من الأموال بشرط أن يُعيد لي ولدي. طَلَبَ مِنِّي تخليّة الشرطة من
تصفية الحسابات؛ لئلا يُؤذي ولدي "يوسف".

ثم لَمَّا نَفَّذت وعدي قام بالإتصال مُجدداً مُخبراً إياي عن مكان
"يوسف" بعد إذ تحصّل على المال، ولَمَّا وصلت إلى المكان المزعوم بالفعل
وجدت "يوسف" ولكن كان جثّة هامدةً وفوقها رسالة:

"إليك ما طلبت ها هو ابنك. ملاحظة أنت لم تذكر تُريده حياً أم
ميتاً"

ركعتُ على ركبتَي، واحتضنته بين يديّ، فتشمّت ذرات عطره
وهي تفوح من جسده كأن عروق يده قد أنبتت الياسمين. فما رحل إلا
وعبق أنفاسه الطيبة تُداعب خياشيم أنفاسي. ويبقى الغموض حتى
لحظتنا هذه يحوم حول الجاني!

الضحية الرابعة، تفضّلي..

شُكراً لك سيد "ريان". أهلاً ومرحباً بالجميع. في البداية ما أنا على
مشارف سرده لا يُمُت لي بصلّة. لكن على كل حال أنا "دنا". أبلغ ثمانية

وعشرين ربيعاً قضيت أغلبهم بالخارج في دولةٍ مُجاورة. عَمِلْتُ بمجال التمثيل، وعلى وجه الخُصوص في العرض المسرحي. البداية كانت لما هبطت طائرتي على أرض الوطن بسلام.

يومها جمعني اللقاء بصديقتي وأختي الكبيرة وهى الطيبة "حنين". "حنين" تبلغ بعد بضع أسابيع ربيعها الثامن والأربعون. يوم الواقعة كانت "حنين" في العيادة تُداوي المرضى، فإذ برجال الشُرطة تقتحم المكان وصيحات من الاستنفار تعجُّ الأجواء. صُعِقت "حنين" تلقاء الخبر الوافد حديثاً.

فكانت ردة فعلها الأولى هى الإغماء بعد إذ سمعت أن ابنتها "مريم" البالغة من العمر واحد وعشرون عاماً قد عثروا عليها غارقةً في عبابِ البحر، وجسدها يطفوا فوق سطح الماء.

لم تستوعب المسكينة الخبر المُنسكب على قلبها الهُش. مضى يومٌ تلو الآخر، وبعد أقل من ثمانية وأربعون ساعة على إرتكاب الواقعة فإذ بشخصٍ يُدعى "كُرم" يقوم بتسليم نفسه مُعترفاً بكامل تفصيلات

الجريمة. ليتم فوراً إغلاق القضية دون استئناف تحريّات المباحث بعد الشك في تدخّل وصاية عليّا.

كان مُفترضاً من تبعات القضية أن تتعمّق بأخذ مجراها، ولكن ما حدث هو أن "كَرْم" هو من تمّ إلقاء القبض عليه وإيداعه بالسجن. ولكن "حنين" ما زالت لا تُصدّق أنه الجاني؛ لأن دوافعه كانت واهية للغاية ولا تنطلي على طفل في ربيعهِ السادس. والآن قلبها يغلي ناراً لأن العدالة لم تتحقّق!

الضحية الخامسة..

معكم "ريان مالك" ابن السيد "مالك" المدير التنفيذي والمؤسس لجريدة "التراث". لقد تمّ قتل أبي وأخي بعد تهديد لأبي في عُقر داره هنا بالجريدة. لم يركن إليهم ولم يُوالِهم فقتلوه؛ لأنه ببساطة يُقف عائقاً أمام مطاعمهم الفجّة ورغباتهم الوبيّة. من المؤسف أن القصاص لم يتحقّق، تماماً مثلكم. كُلُّنا ذُقنا الأمرين وحُمِل فوق رؤوسنا وبالأثقيلاً. الآن آن

الآوان؛ كي يتبدّل العجز مُعجزات. ومن هُنا تكون أساسيات قوتنا كحلفاء تتضمّن الآتي :

أولاً: القصاص من الفعل بردّ فعل مُساوي للفعل. فالجزء دائماً من جنس العمل.

ثانياً: من عَدَرَ، يُعَدِّر به. ومن سَلَبَ يُسَلِّب منه... إلخ.

ثالثاً: السنابل بجميع أفرادها على قلبِ رجلٍ واحد، فالسنابل بأسرها تتحرّك للسنبلة الواحدة منها.

رابعاً: بالنسبة للاستهداف فهو يشمل المُستهدف دون الأقربين منه، ولا مانع من استخدامهم لتقريب سُبُل الوصال بيننا وبين المُستهدف.

خامساً: هذه المجموعة سرّية وستبقى كذلك. وهذا ما اتفقت بشأنه مع سيادة النقيب. أليس كذلك يا سيد "رفيق"؟

هُنا تطلّلت تضاريس وجه السيد "رفيق" بإبتسامةٍ خفيفة :

- نعم، ولكن كما اتفقنا سابقاً في مُحادثتنا الأولى. بشأن البند

السادس.

ليُقاطعه المهندس "نجيب" في ترقُّب:

- أيُّ بندٍ سادس هذا؟

فما كان جوابي إلا أن فككتُ الإلتباس مُجبرهُم الحقيقة:

- البند السادس هو أن تطبيق العدالة ليس من إختصاصنا، بمعنى أن الجُناة سوف يُسلسلون إلى السجن، فقط إن تمَّ ثبوت التَّهمة على كلٍ منهم.

كان البند السادس محل سخطٍ لكثيرين من أعضاء السنابل، ففي لحظتها علا صوتُ الشابة "دنا"!

- أيُّ ثبوتٍ للتَّهمة الذي يتوجَّب أولاً. هذا لا يتحقق إلا في عالم المُحقق "كونان". أما عالمنا هذا فصار فيه قساة القلوب يتشاركون لُقمة العيش المُعدمة مع من لا حول لهم ولا قوة. بل تتجاوز المشاركة لتصل إلى الاستقصاء الباتر ليد كل من تُسوّل له نفسه في أخذ "حقه" ولاحظ يا سيد "ريّان" ضمير "الملكية" في "حقه". وأنا لن أترك حق صديقتي؛ لأن أخذ الحق حِرْفة، ليس الكل يقدر على مُجاراة مطالبها.

وتبعها المهندس "عامر" بوجهٍ يفيضُ إحْتداماً بكلماتٍ خرجت كرصاصاتٍ ثاقبة.

معذرة، ولكن لا يستقيم الفعل هكذا، ولولا غياب العدالة في بادئ الأمر لما كُنَّا في موضع كهكذا. لذا من فضل حضراتكم كفرد في السنابل. لن أسمح للبند السادس أن يتم. ولسنا نضمن أن كل البشر صالحين مثلك يا سيادة النقيب لدرجة تدفعهم لرؤية العدالة تتحقق. فبعض الناس يبقى مصدر معيشتهم الذي يُرتزقون منه هو أن يستتروا على الحقيقة وأن يطمسوا ما ظهر من قبس نورها من أجل مطامع خالصة الدناءة والصفافقة.

وعقب فراغ المهندس "عامر" من كلماته بالإنتهاء إذ يدخل على الخط الممرضة "رحمة":

- أنا لست مؤيدة ولا مُعارضة. وأنا ما يهمني في الأخير هو رؤية العدالة وهى تنفذ في حق من غدر بي وأودعني بالسجن.

ليُوبَّخها المهندس "نجيب" من كلماتها السابقة والتي وإن مُزجت بالعسل لأفسدته!

- مع إحترامي لشخصك الكريم آنسة "رحمة" ولكن هذا التخوف من الاصطفاف، والحياد في امساك عصا الخوف من المتتصف، وهذا

التحوّط الرمادي السقيم، كُل هذا لا يؤتي بشاره، ولا تستبق به الخطوة إلا ومعها أُلّف للوراء. نحن نفكر كقوةٍ واحدة ومصلحة الفرد منّا هي مصلحةُنا جميعاً فمن فضلك إن تکرّمتِ كفاك من "الأنا" فنحن جميعاً نهتمُّ لأمرک ولست وحدک من ذاق من فُرط الظلم. ومع ذلك ما زلت أرى أن هناك تناقضاً في إشكاليات مبادئ السنابل؛ لأن البنود تؤخذ على محمّلين حيال تطبيقها على أرض الواقع. فالبند السادس يتعارض بشكل صريح من البند الأول والثاني، فمثلاً لقد انتحرت زوجتي بفعلٍ فاعلٍ، فطبقاً للبند الأول، إذن الجزء لمن كان الدافع وراء ذلك هو الموت كما ماتت زوجتي، ولكن طبقاً للبند السادس فالدافع وراء إنتحار زوجتي سوف يُزجُّ به في السجن. كيف يُمكن التوفيق بين التناقضين؟

فيظهر النقيب "رفيق" بوجهٍ غارق في التفكير وبعينين لا تعرف سبيلاً للرمق ولو برمش واحدٍ بعد إذ أشعل سيجاراً ووضع طرفه بين أصابعه السبابة والوسطى، والدخان يخرجُ من فمه وأنفه كمدخنةٍ خانقة بل كفوّهةٍ بركانٍ لا تنفك غازاتِ سمومها عن الاستكانة والحمود:

- حسناً أيها السادة، يبدو أن رغبتكم الجارفة في الثأر مُتأججة بعض الشيء. ويبدو أيضاً أنه ما من سدٍ يردُّ سيلَ تفجُّرها أو حتى يكبته. لكم حُرِّيَّة الاختيار يا سادة في الكيفية التي ترونها مُناسبة في أخذ حقكم، ما إن لم تجلبوا علينا الفوضى! ولكن من فضلك يا مُهندس "نجيب" كلماتك تجاه "رحمة" كانت قاسية بعض الشيء. هي لم تُخطئ إلا إذا كُنت تعتبر إقحام القانون في أمرٍ كهكذا خطأ لا يُغتفر.

فما كان من "نجيب" إلا أن علا نبرة ضحكهِ بصوتٍ مسموع وبأسنانٍ لامعة ثم تلاها جمودٌ في تعابير وجههِ كأنه صنمٌ مُتحجّر ينظر دون روحٍ في داخلٍ من يراه.

- في بعض المعايير الدنيوية يا سيدي الخطأ مثله كمثل الصواب، الإثنتان سوياً في التقدير أمرهما نسبي. ما تراه مُجمل الخطأ، قد يحدث ويكون في إعتبار أحدهم هو عين الصواب. فكما ترى بعض المعايير الدنيوية في تقدير الخطأ والصواب هي من وَضَعَ بشر، فيكون معياراً أعوجاً من نتاج حصيلة فكرية لشخصٍ تربى على مجموعة من مفاهيم امتزج حقها باطلها، فما إن يكبر وتنبث براعم عقله، تراه يسعى جاهداً

أن تكون معاييرها الفكرية هي مركزية الكون في صدور قرارات عليها طابعٌ من حويصلة أفكاره كضمانٍ للجودة. لذلك لا تطلب مني تقبُّل الاختلاف معك؛ لأنك نفسك لا تتقبَّل أبسط الاختلاف بينك وبين معارضي معاييرك الفكرية؛ لأنَّك دائماً سوف تُحيط معاييرك الفكرية بمقام المُتنزَّه عن كل خطأ، وصاحبة قُدسية لا يجوز المساس بها. ولم لا وهي ذاتك التي لا تُرى، وهي "الأنا" المُتَنَكِّرة في رداء إبداء الرأي بصورة أليفة وأنيقة

وفي سبيل تهدئة الأجواء المبتوثة بالتزعزع والتفرقة كانت لي الكلمة الأخيرة والتي بانقضائها يبدأ عمل "السنابل" فوراً.

- كما سمعتم من سيادة النقيب فإن لكم جميعاً كامل الحرية في القصاص، فلا تعارض بين البنود. والآن دعونا ننبد الفرقة ونوحّد جبهة الصف فلا نتفرّق بعد جَمْعٍ أبداً، وإعتباراً من الحين فإن "السنابل" قد بدأت فعّاليتها. ولأننا ما زال ينقصنا فردٌ وهي الطيبة "حنين" فإن من أودى بحياة ابنتها غريقة البحر هو المُستهدف الآن. ذلك إن صحَّ ولم يكن "كَرَم" هو الجاني.

لتلمع عينا "دنا" من فرحة تحسّست فيها روح من الأمل.

- لقد سبق ودعوته بالمجئ إلى هنا. أغلب الظن أنها على وُصولٍ.

وفي ظل طأطأة رأسي في ثباتٍ مُتّزن.

- حسناً، لحين مجيئها هل تعرفين المزيد عن الطيبية "حنين" وعن

ابنتها "مريم" عدا الذي ذكرته في بادئ الأمر؟

- لا أفْضَل أن ترتوي مُجريات القصة بهاء لسانها.

وبعد أقل من خمسة عشر دقيقة..

تخطوا الطيبية "حنين" على أرضية الجريدة إلى أن وصلت لمكتب

السكرتيرة "ريهام" مُستفسرةً عن موقع الاجتماع. لترفع "ريهام" سماعة

الهاتف بغرض الموافقة منّي وقد كان. ولما دخلت وجَلَسَت على مقعدٍ

قُمنّا جميعاً كأفراد "السنابل" بالترحاب بها في أبهى صورةٍ مُمكنة، ومن

بعدها لما فَرَعَت "دنا" من إعادة سرد لها وقائع الاجتماع بصورة مُوجزة،

هنا فقط تكلمت الطيبية "حنين".

- مرحباً بكم، يا لصدفة الحاضرة هنا يا سيادة النقيب "رفيق"! على

كُلِّ أتمنى أن تكونوا جميعاً على ما يُرام. ربّما قد استفاضت "دنا" في سرد

ما حدث لابتتي "مريم"، ولكن لي نظرة أخرى لوقائع الأحداث. في البداية أنا "حنين زهران" الطبيبة المعالجة للأمراض النفسية. ما على وشك سرده لم يُكتب في محضر التحقيق وسيادة النقيب يُصحح إن كنت مخطئة. وقبل سؤالي لماذا لم تقوليهِ؛ لأنه وبكل بساطة ذاك المدعوا "كَرَم" قام بتسليم نفسه بعد أقل من 48 ساعة وما قبل ذلك كنت في حالة لا تسمح لتذكر كافة التفاصيل.

ما قبل الواقعة بيوم.. المنزل.

كانت "مريم" يومها في شروء ذهني غير مألوف، فكنت أعيدُ كلماتي مراراً وتكراراً حتى تُنصت. أبت "مريم" عن وجبة الغداء. ولما سألتها عن السبب امتنعت عن الرد، ولكن مع كثرة الإلحاح نهضت من على سريرها الغارق من حولها في ظلام لا ترى يدك فيه. وأغلب الظن أنها فعلت هذا؛ لئلا أتعَمَّق أكثر في معرفة السبب وراء إنطوائيتها غير المُبررة بالمرّة.

وفي اليوم التالي بينما كُنَّا نتناول وجبة الغداء بصحبة أخيها "زياد" البالغ ثمانية عشر عاماً فإذ بزياد يُخبرها أنه مسرورٌ منها لأنها لم تذهب

اليوم للجامعة وتناولت وجبة الغداء في رحاب البيت أخيراً. في الواقع لم تلتفت "مريم" لما قاله "زياد" وكأنها فعلاً تسبحُ في فلكٍ آخر. حتى قمت بإعادة كلمات "زياد" على مسامعها ولكن بلكنة وبصيغةٍ مُرتفعة بعض الشيء. فإذ بمريم تُنصت لتقول في نبرةٍ مُثقلة بالهمم:

- أيُّ جامعةٍ هذه! هي أشبه بقاع الجحيم.

ثم نظرت إلى عينيَّ في توددٍ:

- أمي! أريد الانتقال إلى جامعةٍ أخرى.

فيُضحك "زياد" حتى تلتُخ وجهه بالاحمرار ومن ثم تبَع الضحك إتصلاً هاتفياً إنشغلت فيه. فكان يتوجب على اللحاق بالعمل بعد إنقضاء ساعة الاستراحة.

- حسناً "مريم" سوف نناقش هذا الأمر حيال عودتي ليلاً من العمل.

وهنا من المرة الأولى أنصتت "مريم" وبشدة:

- سوف أكون في انتظارك يا أمي الحبيبة.

وأثناء قيادتي للسيارة في معاودة استئناف المرضى المترددون على عيادتي الشخصية، ضحكت أنا الأخرى كحال "زياد" لما تذكّرت أن "مريم" تُريد الإنتقال لجامعةٍ أخرى، لم أضحك فحسب! بل حططتُ من شأن مشكلتها حتى من قبل سماعها. كيف تريد الإنتقال منها وهي من أعرق الجامعات الخاصة فلا ينضم إليها إلا أولاد الأصول والنفوذ. ليس هذا فحسب بل حين رجعت إلى البيت ليلاً كانت تنتظرنني؛ لتبادل أطراف الحديث معها. ولكن هذا لم يحدث فلقد كُنت مُرهقةً للغاية وسريعاً ما استلقيتُ على ظهري طريحة الفراش.

شرعت بالنوم وكُنت على علمٍ أنها مُستيقظة وفي انتظارني، لكنني لم أتِ أبداً ويكأن ضميري قد نام معي هو الآخر فقام بتخديري بكلمة: لا تقلقي، كمثل المشاكل السابقة التي سريعاً ما تُمحي ولن يبقى لها أثر. وبالفعل خلدت للنوم. ولما استيقظت وكانت "مريم" قد هَمَّت بالرحيل إلى الجامعة كأي يومٍ دراسي، وقتها قُلت في سري: "الوقحة لم تُقبّلني قبل الذهاب للجامعة كعادة كل يوم" وكنت قد أقسمت ألا أجعلها تنتقل لجامعةٍ أخرى بعد فعلتها هذه.

في الواقع قسمني لم يكن ذا فائدة فلقد ماتت "مريم" بسبب اللغز وراء رغبتها في الانتقال من جامعتها. آه لو أني أنصتُ لها وتفهممت أسبابها لما فارقت الدنيا. أيا كان الفاعل فأنا كُنت أيضاً متواطئة بالجريمة لما همّشت من مشاكلها وعدلتُ عن السماع لها. والآن كل كلمة قد قيلت ليلة فراقها فإنها ستظل وجعاً وجرحاً غائراً باقي أثره ولن يُمحى.

كُنت في عيادتي الشخصية حين جاء خبر مقتلها غرقاً، فلم أكن لأتحمل الصدمة، وفوراً فقدتُ الوعي غرقاً إلى غياهبٍ من الظلمات، فرأيتُ طيفاً منها على هيئة نورٍ أبيضٍ يتلأل وسط العتمة، وحين مددتُ يدي على أملٍ أن تنتشل بقاياي من تلك الظلمات، فلا ترجع يدي إلا خاوية الرجاء، مُحَمَّلة بالأسى، وبغليونٍ يشتعل في قلبي. من بعد رحيلها كانت الذكريات التي تركتها خلفها قابلة للاشتعال. كان أنين الذكريات بمثابة بنزين ينسكب فوق قلبي وكان إبتسامتها غامرة البهجة هي المشعل الذي يهبطُ على البنزين فيُلْهب قلبي بنار موقدة عَزَمْتُ العقد على ألا تُطفئ أبداً. من بعدها احترق في قلبي "هولوكوست" مرةً ثانية، أما الأولى فقد نالت من التعاطف ما يكفي لإعتبارها مفخرة ومثالاً

للتضحية. وأما الثانية فلا يعلم عنها أحدٌ. كثيرٌ ما حاولت أن أتعلل بالصبر على أمل التشفي في قاتلها حتّى الصبرُ أعياني!

فحين استفتتُ ذهبتُ إلى النيابة للإدلاء بأقوالي، لم يكن "كرم" قد قام بتسليم نفسه بعد. يومها قُوبلت بالترحاب في سرايا النيابة العامة. وكان النقيب "رفيق" هو من كان مشغولاً بتطورات القضية. صراحةً لم يُقَصِّر أبداً، ولم يتوانى في أداء عمله. ولكن كما يقولون كان التيار الذي سلكته القضية مُغايراً للمنطق بعد إذ قام "كرم" بتسليم نفسه زاعماً أنه أقدمَ على فعلته لما رأى "مريم" تلتفت لأحدٍ غيره.

مع أنني كنت على يقين أنه لا سبيل للصدفة لأن يجتمع إنسان مثل "كرم" بابنتي. كانت دوافعه واهية للغاية ومع ذلك تم تصديق أكاذيبه لأهدافٍ غير معلومة. وبالفعل من إسبوعين ماضيين قد تم حبس "كرم" على ذمة قتله "مريم" وأغلب الظن أنه في انتظار حُكمٍ مُخَفَّف بعد إذ تم تعيين الأستاذ "ليب" مُحامياً له. ولمن لا يعرف الأستاذ "ليب" فهو صاحبُ دهاء وذكاء في التسلل إلى الثغرات القانونية. يكفي أن

أتعابه الشخصية لا يقدر أن يتحمّلها شخص يغلب عليه البساطة مثل
"كرم"، أغلب الظن أنه تم تعيينه له من قِبَلِ جهةٍ عليا!

ونحن الآن في انتظار حُكْمٍ على شخصٍ رضى بأن يكونَ كبش فداءٍ
للجاني الحقيقي. هذا ما أوّمن به!

وبعدَ لما فرغت الطيبة "حنين" من كلماتها. لم تقوى قنواتها الدمية
على أن تتهاكك ففاضت عيناها بهاء رقراقٍ. فقمنا جميعاً كأفراد
"السنابل" بإخبارها أن حقّ ابنتها لن نرتضي إلا برجوعه إليها وذلك
بالعثور على قاتلها.

وقمْتُ برفع السؤال الأول :

- إذن، من أين ترون الخيط الأول الذي منه نستدل على هُويّة الجاني

الحقيقي؟

فسريعاً ما جائتني الردود كان أولها من "نجيب":

- بكل تأكيد، من ذلك الشاب المدعو "كرم". على الأرجح أن لديه

الإجابات على بعض أسئلتنا.

لتتداخل "دنا" في المحادثة:

- ومن أخبرك أنه سوف يجيبنا. أرى لا فائدة منه؛ لأن فمه طيلة
المحادثة سوف يكتسي برداء الصمت.

وسريعاً ما تشابك "عامر" في أغصان المحادثة:

- "دنا" مُحقة، الصبي لن يُفيدنا بشيء. وعلى كل حال البدء به كخيطة
أول هو إجراء يتوجب أن يتم، حتى وإن رجعنا بخفي حنين.

لتلمع عيون "رحمة" كأن فكرة ما أضاعت بعقلها:

- ماذا عن المحامي "ليب" شخص مثله إن عرفنا من قام بتوكيله
في هذه القضية فسوف يُسهّل علينا الأمر كثيراً. ذلك باعتبار أن "كرم"
لا يقدر هو ولا عائلته على تحمّل نفقات مثل هذا الرجل! ولكن كيف
سنصل إليه وننجح في تقصي المعلومة منه؟

ليظهر "هشام" أخيراً من بين الجميع:

- دعوا هذا الأمر على عاتقي. فإن لم يستجب لكم فالإبتزاز وقتها
سيطلب منه الخلاص بنفسه ولو بنجاته يهلك الآخرون.

لينظر له "رفيق" بعين مُصقلة لامعة :

- حسناً، أعتقد أننا على الطريق الصحيح. سوف أقوم بترتيب زيارة للمسجون "كرم". أما عن باب الزيارات فهو يُفتح غداً في الصباح الباكر.

فكانت كلمتي الأخيرة لرفع وقائع تلك الجلسة:

- أرى أن نذهب أولاً لزيادة "كرم" في السجن. لعلنا نتحصّل منه على مُرادنا. لذا دعونا ننتظر حتى حين. أما عنك يا "رفيق" في انتظار تأكيد منك على ميعاد الزيارة. وأما عنكم يا بقية أفراد "السنابل" فمن أراد منكم حضور الزيارة فلا بأس، ولكن من المُستحسن أن تقتصر الزيارة علينا أنا و"دنا" و"حنين" فقط. نلتقي غداً في نفس الموعد،
السابعة مساءً



الفصل الثامن

"المصائب تأتي من الأبواب المفتوحة" مثل صيني قديم.

في صباح باكر من اليوم الجديد حيث قطرات الندى تنفرط مدامعها من عين السماء وجفون الغيوم. استيقظت من سُباتٍ غلب أهل الكهف في بطئٍ إنقضاءه. سريعاً ما هممتُ إلى المطبخ لعملِ وجبة الفُطور بعد أن غسلتُ وجهي، وصليتُ فرضي في سكينَةٍ وسلام. ولما فرغت من الفطور جاء إتصالٌ هاتفي من "رفيق" يُبلغني فيه ميعاد الزيارة ومكان السجن. فما هي إلا دقائق تلي المكالمة إلا وكنت مُخبراً "دنا" و"حنين" بتسلسل التفاصيل. والآن حان وقت الرحيل. ولكن يبدو أن اليوم بتفاصيله ورياح تبعاته قد هبَّت سريعاً، ويبدو أن هناك عينٌ مبصرة تراني من حيث لا أراها! فحين فتحت باب المنزل في سبيل الخروج فإذ بي أجد ورقة أسفل موضع قدمي وعليها رسالة تثبت بحجر!

"أيّاً كان ما تُحاول أن تصنعه! توقّف قبلما تجني على نفسك، ويذهب خططك عليك حشرات. فتندم إذ يحين الوقت الذي لا يستقدم فيه الندم من الأمر شيئاً أو يستأخر"

كان ردُّ فعلي غريباً بعض الشيء فقد تمتعت بعد إذ إمتعصت شفتاي
ثم طويت الورقة وأدخلتها في رواق جيبي الأيسر، وتابعتُ المسير كأن
شيئاً لم يكن. في الواقع تركتُ التنقيب عن الخائن لوقتٍ آخر يصفوا فيه
عقلي، يصفوا للخائن فقط.

قمت باستقلال سيارتي الجديدة صوب أحراش السجن في سبيل
تبدد الغمام عن سماء الحقيقة. ولما وصلتُ وجدت "رفيق" يتكلم بلغة
حازمة مع أحد الجنود على إحدى بوابات السجن. تلاها بعشر دقائق
وفود "دنا" و"حنين" حتى تم السماح لنا بالحديث مع الجاني المزعوم
"كرم".

استهَلَّ "رفيق" الحديث بعد إذ خلع نظارته الشمسية حالكَة السواد:
- كيف الخطب يا صاح! هؤلاء الأحبة سوف يطرحون عليك بعض
الأسئلة، ويُستحسن أن تُجيب عنها. فكما تعلم بنان الرحمة تُقطع حين
تُلامس هذه البناية.

سريعاً ما لمَحَ "كرم" الإيحاء الضمني الذي يُنذر بعاقبة صمته، ومع
ذلك لم ترتعد فرائسه. وفي صوتٍ يلمح بين تقاطيعه بعض الشراسة
والغلظة فإذ بي أتحدث مع "كرم"

- "كَرَم" نَعْلَمُ أَنَّكَ لَسْتَ الْجَانِي، لَمْ قَدَّمْتَ نَفْسَكَ لِلْعَدَالَةِ لِجَرِيْمَةٍ لَمْ تَرْتَكِبْهَا؟

لِيرِد "كَرَم" مُنْكَسِرَ الرَّأْسِ، مَسْلُوبَ التَّعَابِيرِ الْوَجْهِيَّةِ كَصَنْمٍ لَا تَنْفُثُ فِي دَوَاخِلِهِ الرُّوحَ.

- الرِّفَافِيَّةُ الْمُنْعَمَةُ لِإِتْخَاذِ قَرَارَاتِكَ بِنَفْسِكَ هِيَ لَكَ وَاقِعٌ، وَلَكِنْ لِأَمْثَالِي هِيَ مُحْضٌ خِيَالٍ. مَا هُوَ شَعُورُكَ إِنْ نَمَتَ يَوْمًا عَلَى مُوسِيقَى "بِيْتِهَوْفِن" ثُمَّ فَتَحْتَ عَيْنَيْكَ لِتَجِدَ نَفْسَكَ فِي مُتَنَصِّفِ مَعْرَكَةٍ طَاحِنَةٍ طَرَفِيْهَا فِي مُنَآوَشَاتٍ حَامِيَةٍ؟ مَا هُوَ رَدُّ فَعْلِكَ إِنْ خَفْتَ صَوْتَ الْقِتَالِ فَجَاءَ، فَلَا تَسْمَعُ هَمْسًا. ثُمَّ فَجَاءَ تَلْتَوِي لَكَ الْأَعْنَاقُ وَبَسْهَامٌ ثَاقِبَةٌ تُحْدَقُ فِي وَجْهِكَ الْأَعْيُنِ، وَوَضِعْتَ يَا مَسْكِينُ بَيْنَ شَقِي الرُّحَى بَعْدَ تَأْخِي الْجَبْهَتَانِ، مُبْرَمُونَ تَحَالُفَهُمْ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ فَقَطْ، وَهُوَ أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَيْكَ أَنْتَ ثُمَّ يَتَرَاقِصُوا مِنْ فَوْقِ أَشْلَائِكَ الْمُتَبَعَثَةِ!!

أَنْتَ يَا مَنْ تَنْتَصِفُ سَاحَةً فَاضَتْ أَرْضُهَا عَنْ تَشْرِبِ بَحُورِ دِمَائِهَا وَعَلَا أَمْوَاجَهَا فَصَارَ الْمَوْجُ كَالْجِبَالِ، أَنْتَ يَا مَنْ تَصْرُخُ بِأَقْصَى مَا فِيكَ وَمَا لَكَ مِنْ مُسْمِعٍ، أَنْتَ يَا مَنْ ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ يَوْمَ رَأَى مِنْ حَوْلِهِ

أشلاء مُتناثرة عن اليمين والشمال. أشلاء كانت لأصحابها سبيلاً في تحقيق أمانهم الزاهدة وأحلامهم المتواضعة. كما كان دائماً عيبٌ أن تسأل الأعمى ماذا ترى. فعيبٌ عليك أن تسألني لماذا قدّمت نفسي للعدالة. في الحقيقة إجابته على السؤال أبرزت لي كم هو حالمٌ وشخصٌ ذو مداركٍ مُستنيرة لدرجة دفعت "دنا" و"حنين" لتبادل النظرات المذهلة من إجابته:

- حسناً يا "كرم" ولكن أياً كان الدافع فأنت بتسّرك على الجاني الحقيقي تُعيق أن تتخذ العدالة مجراها فيمن كانوا يستحقون أن يسقط على رؤوسهم مقصلة العدالة. فكّر مجدداً.

ليظل "كرم" مُنكّس الرأس ولكن تلك المرة بإبتسامة جانبية خفيفة.

- الصفقة قد تم إبرامها، ولا سبيل لي لمساعدتك. أنا مُتأسف فالقاتل الحقيقي لمريم هو أنا. ويبدو أنك سوف تستغرق من الزمن طويلاً؛ لترى أن الحياة في مجملها فرصة، وأن الفرصة إن ضاعت لا تأتي، وإن أتت فهي لا تحمل نكهة ما قبل ضياعها. ولا يُمكنك إلقاء اللوم على شخصٍ يرى الأمور من منظوره الخاص حتى وإن كان يتعارض مع

نظرتك. تذكر ليست نظرتك مقياساً يُستدل به على صحة أمرٍ من عدمه.
الأمر يفوقك بكثير. وأنصحك أن تخرج من هذا المُعترك قبلما يتشابك
خيط منك بإحدى مساميرهم فلا تجد قدماك إلا تتحسّس على جرف
هار الزوال وشفاف حفرة تسوق إلى هاوية الهلاك.

اشتد غيظي من كلماته الساقطة على كسقوط نيزكٍ يخسف بمدينةٍ إلى
دركٍ خافتٍ من الأرض.

- من هم هؤلاء الذين تتحدّث عنهم أخبرني؟

لئلمح على وجه "كرم" نظرة ضجر ورتابة.

- قل لي أي لم أخبرك قبلاً بأن الأمر يفوقك بكثير. لقد إنتهت المُقابلة
وحان وقت رحيلي مع أي كنت لأتمنى أن أحظى معكم ببعض الوقت
الإضافي. أيها السجّان!!

وقبلاً يأتي السجان اقتربت "حنين" منه بقدر المُستطاع فهمست في
أذنيه فما بعدها إلا ظهر على "كرم" نظرة تزلزلت منها عيناه. فقالت
"حنين".

- كما شئت، وبالمناسبة المحامي الذي بفضلِه سيُخفف عنك الحُكم ولن يلف من حول عنقك حبل الإعدام. لن تُصدّق ولكن لن يترافع عنك، وستترك تموت وتتعضن كأنك لم تكن!

. - ماذا تعنين! اسمعي أنا صدقاً لا أعلم من الجاني الحقيقي. هكذا تم الإتفاق معي من قِبَل وسيطٍ يُدعى "سامر" على أن يتم إلقائي في السجن من أجل الإعتراف بالجريمة، والمقابل سوف أتحصل على المال اللازم للعملية الصعبة التي ستجريها أُمي مطلع الشهر القادم. أرجوك أنا لا أعلم أكثر مما قلتُ.

- وكيف يُمكننا أن نصل للمدعو "سامر"؟

- يُمكنني وصف المكان الذي يقطنه. ولكن أرجوكم دعوا المحامي يترافع عني واتركوني وشأني.

ليصدر من "دنا" صوت خافت يقول:

- تماماً كما قال "هشام" سيطلبون الخلاص، ولو بنجاتهم يهلك الآخرون.

وبالفعل وصف لنا "كرم" المكان الذي يأوي إليه "سامر" بعد إذ أخذ منّا موثقاً ألا نعبث في مُحطّته. حتى رحل أخيراً بصحبة السجّان. كان المكان الذي وُصف لنا من قِبَل "كرم" يحمل طابعاً شعبياً حيث تُتقاذف فيه الخُضروات ويتراشق فيه الباعة بالطماطم المنفوثة بروح الذباب. فضلاً عن الأجواء المُعبّرة بالأتربة التي تقف ذراتها في الحلق كالغصّة المتحشّجة.

وفاق الأمر حين ترى الناس مُلاصقين أكتاف بعض كمنلٍ أبيضٍ في زقاق حارة ضيقة، فتمشي على أحجارها المهُمّشة مستمعاً إلى كركرة الشيشة ورائحة أنفاسٍ تُعكّر الجو فوق عكارتة عكارة. بل تتزاحم المساوئ وتتهافت من إلقاء السُّباب بأشنع الألفاظ وأشدّها جرأة جهراً وجهاً أمام المارة. وتختتم ببيوتٍ إن نفخَ الريح فيها صارت هى والأرض سواء.

بدا أنه لما أحجمنا "حنين" و"دنا" عن المجئ كان عين الصواب. فلما رأيت أنا و"رفيق" هذا المظهر سريعاً ما طلبت من "رفيق" أن يعج المكان من حولنا بعربات الشرطة. وعلى الفور كان المكان يستتر بعربات

الشرطة، ولكن دون بروزٍ لأنها فلازمت الجوار بالعامة دون هرج ولا صياحٍ تماماً كعدوٍ يستتر وراء شجرةٍ مُحضرةٍ تحمل نفس لون الأخضر في رداءه.

وبعد السؤال عن المدعو "سامر" لم يتعرّف عليه أحدٌ قط، بإستثناء شخصٍ واحدٍ حين تم ذكر اسم "سامر" أمامه فإذا بصاحبنا تدور عيناه شرقاً وغرباً في توجّسٍ وتفحصٍ نبضٍ أو هكذا ظننا. قال لنا اتبعوني على أن تُطبقا شفاهما كما طيلة الوقت لحين وصولكم للسيد "سامر". فقام باصطحابي أنا و"رفيق" والتوجّس رابعنا خشية حركةٍ غادرة تشي بغايتنا من الوجود بهذا المكان. تطرّقنا إلى حاراتٍ مُتداخلة يمين ثم يسار ثم يمين فصار حدسي يُخبرني أننا بالفعل في ورطةٍ بعد إذ أخذ صاحبنا هذا الإتصال بالهاتف ويبدو أن صاحبه المنشود الذي يتصل به منشغل بأمرٍ ما. حتى قال لنا أخيراً!

- هذا البيت الطابق الثاني، الشقة الأولى على يداكم اليمنى تطرقون الباب، وستجدون "سامر" في انتظاركم.
وفي ريب يُحامر قلوبنا!!

- ألن تصعد معنا ؟!

فما كان منه إلا أن ابتلع ماء فمه مُصدراً صوتاً يُوحى بخشيته تجاه ما نطلبه منه.

- لا عندي بعض المشاغل الأخرى، هذه هى محطتي الأخيرة معكم إلى اللقاء.

وبينما هم في صعود السُّلَّم إذ يستوقفني "رفيق".

- "ريان" الوضع هنا ليس على ما يُرام حدسي البوليسي يُخبرني أننا بصدد مكيدة تُدبر هنا، فبينما ونحن نتحدث مع هذا الرجل أسفل المنزل فإذا بي أرى أحدهم وعيناه السوداوية تلمع مُحَدِّقَةً النظر فينا من طرف النافذة المتوارب بالطابق الثاني. سوف أقوم بإرسال موقعنا لمركز القيادة؛ كي نُحررنا من هنا بسرعة. ولكن الآن يجب أن نتعامل بشكلٍ طبيعي؛ كي لا ينفضح أمرنا.

وفي عين ينسكب منها التبرّم.

- ألا تعتقد أن "كرم" قد قام بالإيقاع بنا وأن "سامر" هذا ربّما لا يكون شخصاً بل وصفٌ لحالةٍ من الخطر تلقاء مُحْطَظْهم. ممّا يعني أننا الآن عُرضة للقتل. ماذا يتوجّب أن نفعل الآن؟؟

وبعد زفير عميقٍ يخرج من فم "رفيق" حاسماً القرار:

- لا سبيل للعودة إلى الوراء! الخطوة التي لا تؤخذ للأمام ترجع بصاحبها ألف للخلف. ولو ترى فإننا الآن وسط مضيقٍ لا سبيل لتفادي خسائره سوى بمواجهته. هيا بنا اتبعني!

فإذ بنا نمشي على أطراف أصابع أقدامنا والجباهُ تتندى من العرق خشية أي فعل غير متوقع حدوثه. حتى خطَّت قدمانا أمام المنزل المختار. في لحظة كان إلهاماً نزل على "رفيق".

- "ريان" اهبط إلى مُتتصف الدرج. أما أنا فسوف أضرب الجرس ثم اهبط إليك. أريد أولاً رؤية هذا الشخص.

وبالفعل استجبت لتعليمات "رفيق" وهبطت إلى مُتتصف الدرج حتى كان بالإمكان رؤية "رفيق" وهو يضرب الجرس. لينجح في تحقيق المُراد. ليهبط سريعاً بجانبني تماماً حيث مُتتصف درج الطابق الأول.

وبعد لحظاتٍ إذ بشخصٍ يفتح الباب على مصراعيه ومن قبل أن يخرج جسده من طرف الباب فإذا ببندقية ذي عُنقٍ طويلٍ تظهر أولاً ثم يليها هذا الشخص الذي كُنّا نراه من حيث لا يرانا. لقد تسمّرنا في

موضعنا لما تخيلنا كيف سيكون الأمر إن فُتح الباب لنا وطلقات من
البندقية هي من ترحب بنا إحتفاءً بقدمنا !!
الواقع يقول أنه تم نصب الشباك؛ لإيقاعنا في فخ لسنا بخارجين منه
إلا منتزعي الروح. وأن "سامر" لم يكن اسماً بقدر ما كان إفصاحاً عن
حالة طوارئ!! لتصير أقدامنا مُتصلبة تحت لغمٍ فما إن ترحّرت عنه فلا
نملك من الهرب منه سبيلاً.

وبينما نحن على ذلك فإذ بأحدهم يهْمُ بصعود الدرج يبدو أنه من
القاطنين هنا في البداية. الأحمق حين رآنا كُنّا مُلتفتي الظهر له، فما كان
منه إلا أن قال بصوتٍ غليظ وبطبعة تصلح لغناء الأوبرا وفي بلاهة
غامرة.

- كيف يمكنني مُساعدتكما أيُّها السادة!

وعلى فوراً تملكت الرجفة المُجحفة نصيبتها منّا فكان حالنا كمن كان
معصوب العينين و ينتظر تنفيذ حكم الإعدام رمياً بالرصاص. وهُنا
كانت أوج المُشكلة فلقد تم سماع تلك الكلمات من حامل البندقية.
فحين قُمنا برؤيته يتحرّك لأسفل مُتجهاً إلينا. فوراً صرخ "رفيق" في
وجهي بعد رفعه لسلاحه المدجج بالذخيرة الحية.

- اركض فوراً يا "ريّان" !!!

عدوّتُ بأقصى سرعتي لدرجة دفعيني إلى الإطاحة بالرجل الذي كشف سرّاً موقع أرضاً من شدة اصطدامي به. خرجتُ من البناية بالكامل، ومن حُسن الحظ أن عربات قوات الشرطة كانت تعدو مُسرعةً من أقصى مرمى البصر حيث بداية هذا الزقاق، ولكن تبادل طلقات النار قد تمّ بالفعل بين "رفيق" وهذا المجهول. كان صوتُ المناوشات بينهم ينخر في الأذانِ فلا تصير بعد اليوم إلا مُتقبة. ولحين وصول عربات الشرطة فكان يبدو أن المعركة قد خلصت سريعاً بعد إذ انتهى تبادل الرصاصات المحمّل بارودها برائحة الموت.

وإذ فجأة يخرج "رفيق" من البناية مصاباً في كتفه الأيسر، ويزحف من خلفه جثة هذا الشخص حامل البندقية، ثم يترك "رفيق" يده المُتشبّثة بهذا المجهول فينسكب مُنكفئاً على وجهه لتكتسي جثته بتراب الأرض بلا طرف يتحرك ولا قلب ينبض في إعلانٍ صريحٍ بمقتله. ليجار بصوته فيما تلا ذلك أمام أفراد الأمن.

- أريد معرفة هوية هذا المدنّس فوراً!

ثم قام بوضع سلاحه بين مُحيط خصره في استعراض بوليسي غلب
مُحققي "هوليود". اتضح فيما بعد أن هذا الشخص يُدعى "عكاشة"
وهو طريد العدالة في جرائم قتل وإتجار بالمخدرات. واتضح أيضاً أن
"كرم" قد غدر بنا، وإن كانت حركة غادرة كهذه لا تصدر إلا من
عقلياتٍ تفوقه تخطيطاً. عقليات تتوقع أن أحدهم سوف يبحث من
خلافهم عن القاتل الحقيقي. يبدو أننا كُنَّا نُطارِدُ شبحاً يرانا من حيث لا
نراه. أغلب الظن أنه الشبح ذاته الذي أرسل لي رسالة التهديد صباح
اليوم!!



الفصل التاسع

ولو بنجاتهم يهلك الآخرون!!

السابعة مساءً، الاجتماع الثاني.

بعد سردٍ كامل للأحداث الواقعة طيلة اليوم أمام جميع أفراد "السنابل" تباينت ردود الأفعال فمنهم من خاف أكثر ممّا نُقِّدَم على التوغّل فيه أكثر فأكثر كمثّل "رحمة" ومنهم من لم يزدد إلا ثبوتاً كمثّل "نجيب". ومنهم من بادر بالانتقام من "كرم" لكونه كان سبباً في محاولة قتلنا كمثّل "حنين". ومنهم من ظن بأن "كرم" لم يكن يدري بشأن هذا الفخ كمثّل "عامر". وأخيراً منهم من رأى أن نتحرّك بزمّام الخطّة نحو الدرجة الثانية حيث المحامي "لييب" كمثّل "هشام".

وبعد إبداء موافقة مبدأية بضرورة اللعب على وتر المحامي "لييب" هُنا تكلمت "دنا".

- هذا المحامي قد سبق له وأن ترافع ضدي في قضية رفعته على إحدى مُنتجّي أفلامي بعد إذ تحرّش بي. مع كامل الأسف خسرت القضية في ذلِّ مُحجّل.

ليتداخل "نجيب" في أجواء المحادثة.

- كي تقتحم حياة شخص يتوجب أن تدخل ولوجاً من الثغرة التي لا يجد منها فكاًكاً. الثغرة التي تنكشف في أسوأ كوابيسه فيستيقظ يلفظ منها أنفاسه على كونها كانت حُلماً!!
ليسانف "عامر" الحديث من بعده.

- أغلب الرجال نقاط ضعفهم تتمحور حول المال، والنساء، والسلطة.

ليُقاطعه "هشام" في إبتسامة دهاءٍ.

- أو ربّما الإبتزاز والتهديد. ألم أقل لكم من قبل سيودون الخلاص بأنفسهم ولو بنجاتهم يهلك الآخرون. أعتقد أن الوقت قد حان لاستعراض بعض من فن الإختراق.

وفي نظرة إعجابٍ مُلفتة للنظر من قِبَل "حنين".

- وماذا سوف تفعل يا عبقري "السنابل"؟

فيميل "هشام" برأسه لأقصى اليمين تماماً حيث يُوضع "اللاب توب" الخاص به ثم ينظر لـ "حنين" من جديد.

- دعينا نرى ما يسعنا فعله تجاه هذا الأمر. بالمُناسبة أين النقيب "رفيق"؟

من بعدها قُمت بالرد أنه يعتذر عن الحضور اليوم بعد ما حدث اليوم، ولكن هو مازال معنا على نفس الخط. ثم قمت برفع وقائع الجلسة في استراحة طلبتُ فيها من كل فرد من "السنابل" مُحططاً نهده به المُحامي "ليب" في سبيل معرفة من قام بتوكيله للدفاع عن "كرم". وبعد انقضاء الاستراحة حان الوقت!

- أرى أن نفتحم المكتب ونُشهر في وجهه السلاح في سبيل البَوح والإعتراف بمن يُحرّكه!

هكذا كان رأي "عامر". وهو مثل ما كانت تراه "حنين" عين الصواب.

- حسناً، يتوجّب أولاً أن نضغط عليه بشيء ما فلا يستطيع التملّص منه. وهذا الشيء يتوجّب أن يكون ورقة رابحة لنا وخاسرة له في المُقابل.

وهو كان رأي "نجيب" الذي تفاعلت معه "دنا" بطريقة ملحوظة.

- الورقة الراححة سوف تكون أنتِ يا "دنا" باعتبار أنه يعرفكِ فلن يشكّ فيكِ. حتى وإن ترافعتي ضده وخسرتي القضية، بالعكس سيراهـا مُحاولـة لطيفـة منك؛ لكسب ثقته. تذكّري أنتِ بارعة بالتمثيل هكذا هو عملك!

وهو كان رأي "هشام" الذي أجمع عليه كل من في الاجتماع.
وفي نظرة تغزوها الحيرة والتساؤل من "دنا".

- وماذا يتوجب عليّ فعله؟

فقمْتُ بالرد عليها: دعوة لطيفة للعشاء بإحدى المطاعم الفاخرة تحت دعوى الصُلح على ما فات باعتبار أنكِ تُريدين توكيله في إحدى قضاياكِ. وبالتالي لن يرفض طالما كان العائد مالاً وفيراً. حينما يحين الوقت سيخرج من منزله لاصطحابكِ من منزلك كما ستُخبريه. وقتها ستتأخرين بعض الشيء حين يقوم أحدٌ منها باستئجار صبية تقوم بثقب إطار سيارته فلا يضطر إلا للركوب معكِ، وفي المقعد الخلفي ينتظره أحدٌ منّا بهادة مُحْدرة تُفقدـه وعيه. ثم تنطلقين وفي إحدى المواقع التي ستفق عليها وهُناك نستجوبه.

لُيَقَاطَعَنِي "نَجِيب" كَأَنَّ الحُطَّةَ تَحْتَمِلُ فِي طَيَاتِهَا ثَغْرَةَ مَا.
- وَلَكِنْ مَهْلًا بِالتَّأَكِيدِ سَوْفَ يَشْكُ أَنَّهُ بِصَدَدٍ مَكِيدَةٍ مَا حِينَ يَرَى
ثُقُوبَ فِي إِطَارَاتِ سَيَارَتِهِ.

عَزِيزِي "نَجِيب" هَذَا إِنْ لَمْ تَبْدُو "دَنَا" أَمَامَهُ فَاتَنَّةٌ فِي أَوْجِ جَمَاهَا
صَدَقَنِي وَقْتُهَا سَوْفَ تَسْرِقُ مِنْهُ عَقْلَهُ وَلَوْ طَلَبْتُ مِنْهُ حِينَهَا أَيَّ شَيْءٍ
سَوْفَ يَفْعَلُهُ مِنْ أَجْلِهَا. وَلَوْ طَلَبْتُ مِنْهُ مُقْلَتَا عَيْنَيْهِ لَنَزَعَهَا تَوَدُّدًا إِلَيْهَا.
عَلَى كُلِّ حَالٍ هُنَاكَ دَائِمًا خُطَّةٌ ثَانِيَةٌ لِأَيِّ مُحْطَطٍ سَوْفَ نَتَفَقَّ عَلَيْهَا سَوِيًّا
الآن!!

وَفِي لَيْلَةٍ خَرِيفِيَّةٍ تَتَزَيَّنُ فِيهَا السَّمَاءُ بِقَمَرٍ مَفْضَفُضٍ يَتَلَأَلُ فِي تَمَامِ بَدْرِهِ
مُشْعَشَعًا نَوْرَهُ مِنْ بَيْنِ سَحَابٍ ثِقَالٍ تُحَرِّكُهَا الرِّيحُ فِي جَوْ السَّمَاءِ عَلَى
مَهْلٍ، وَبَشَجَرٍ أَخْضَرَ يَتَسَاقَطُ بِطَرِيقَةٍ دَرَامَاتِيكِيَّةٍ مُؤَثَّرَةٍ تَلْقَاءُ نَسَمَاتِ
خَرِيفِيَّةٍ تَحْمُلُ مِنْ نَفْحَاتِ الْفَرْدُوسِ وَغَمَسَاتِهَا. هُنَا تَحْرُكُ "الْبَيْب" إِلَى
مَنْزَلِ "دَنَا" بِإِحْدَى الْمَنَاطِقِ الْحَيَّةِ سُكَانِيًّا وَإِنْ كَانَتْ مَا زَالَتْ تَحْتَفِظُ
بَرَقِيَّتِهَا الْهَادِيَّةِ. وَلَمَّا وَصَلَ "الْبَيْب" تَمَامًا تَحْتَ الْبَيْتِ فَإِذَا بِالْمُشَاكْسِ يَقُومُ
بِنَزْعِ خَاتَمِ الزَّوْجِ مِنْ إَصْبَعِهِ، وَيُعِيدُ تَسْرِيحَةَ شَعْرِهِ الْفَانِي الَّذِي

استحالت خصلاته البيضاء. ولأنَّه مشاكس فقد حرص على صبغ شعره باللون الأسود؛ كي يضرب في جذوره عنفوان الشباب.

ثم إذ به يخرج من سيارته في بهرجةٍ وعلو متكلف كأنه يقف في عرض أزياء مضى لأجله ليلة البارحة بأكملها وهو يتدرَّب على كيفية إتقانه. وقبلما يضع يده على جرس الرنين كان قد أوقد سيجار كوبي ذو العُنق البني العريض. وبعد زمنٍ استغرق من الوقت عشر دقائق إذ به يخرج هو و"دنا" بعد إذ تزَيَّنت الأخيرة بفستانٍ من حجر الزُمرّد غلبَ "سندريلا" في إطلالتها، وبعنقودٍ مرصَّع بالماس يتوسَّط عُنقها. كُنَّا نستمع إلى مُحادثتها سوياً بعد إذ قام "هشام" بتركيب جهاز تنصت في فستانها لا يكاد يُرى. فكان رد فعل الممثلة "دنا" غاية في البراعة حين رأت إطارات عجلات سيارة "لييب" مثقوبة، ولولا أننا من دَبَّرنا هذا سوياً لَكُنَّا مصدقوها.

- يا إلهي! "لييب" انظر ماذا فعل الصبية المُشاغبين في إطارات سيارتك. لا بأس دعنا نذهب بسيارتي هي هُناك على اليمين. وكان بالسيارة من خلف ينتظره "نجيب" بمنديلٍ مُخدَّر يُفقدّه الوعي.

في الحقيقة استغرق "ليب" في التفكير أكثر من اللازم حتى لما رأيناه
هكذا ظننا أن المخطط سيء بالفشل، فما إن مرّت من أمامه سيارة أجرة
خاوية من الراكبين خلاف السائق، فهُنا لمعت عيناه واشتد وهج عقله
كأن المصباح بالداخل قد أضاء!!

- لا دعينا نستقل سيارة أجرة. المكان ليس بعيداً عن هنا.
وهنا جاء الوقت الذي تتقدّم فيه سيارة الأجرة، فجلسا سوياً في
الأريكة الخلفية بينما كان قائد السيارة هو أنا! هكذا كان مُحططنا الثاني
والشكر يرجع إلى "نجيب" صاحب المقترح و"رفيق" الذي وفرّ لنا
السيارة التي صاحبها قيد الحجز بالسجن. صاحبنا ظنّ هكذا أنه بعيدٌ
عن أي مصيدة تغدر به. يبدو أنه كان يُعاني من "البارانويا" أو جنون
العظمة حيث يظن أن الجميع يريدون إلحاق الأذى به. كُنْتُ قد اتفقت
مُسبّقاً مع "عامر" على أن يُختبئ في حاوية الشُنط داخل السيارة، وحين
تحيد السيارة عن الوجهة المقصودة تماماً حيث لا يرانا أحد، ثمّ
تنجح "دنا" في تشتيت إنتباهه، إذا به يستجمع تركيزه المفقود.
- إلى أين تذهب أيها....

حتى ظهر "عامر" من خلفه مُستخدماً يديه الغليظتين في تكميّمه
بمنديل مُحْدَرٍ حتى فقد الوعي تماماً.

تحت ظلال خيمة في الصحراء
جَلَسَ "لبيب" على أحد الكراسي ومن فوقه يتدلّى مصباح تهوي به
الريح يميناً ويساراً، وسط سطوة ظلام دامس.

قام "نجيب" بإلقاء الماء على وجه "لبيب"؛ كي يستفيق من سكرته
هذه. حتى إنتفض الأخير ذعراً فيرتعش في حالة كَرْبٍ. فينظر أمامه فلا
يجد إلا عُصبة مُلثَّمة من ثلاثة أفراد وهما أنا و"هشام" و"نجيب"
ولزيادة الدراما قُمنا بتوثيق يد "دنا" بجانبه؛ كي يظن أنها ليست طرفاً
في هذه المكيدة هذا جانب، ومن جانبٍ آخر بالتأكيد إلحاحها عليه تلقاء
مطالبنا منه سوف يُجدي النفع. فهنا سيتوجب عليه أن يرتدي رداء
"السوبرمان" ويُنقذ المرأة التي ينشطر قلبه جمالاً لها. وهُنا صرخت
"دنا" في حبكةٍ تمثيلية تستحق الإشادة فكان خطابها بصيغة الجمع ممّا
لمس شغاف قلب "لبيب".

- ماذا تريدون منّا أيها اللصوص! دعونا وشأننا. إنقذنا منهم يا "ليب" لا تركهم يفعلون هذا بنا!

وفي تهكّم بائسٍ كظبيّ مذعورٍ يتنفض "ليب" والماء يُغرق وجهه.

- من أنتم وماذا تريدون منّي ومن زوجتي الحبيبة!

في الحقيقة إبتسمنا جميعاً لما قال "زوجتي الحبيبة" حتى "دنا" نظرت له نظرةً بلهاء أما "هشام" فلم يقدر على تمالك نفسه فانفجر من الضحك لدرجة أنه خرج من الخيمة مُستلقياً على الرمال غير قادر على الحراك من فُرط الضحك الذي كاد يكتم على أنفاسه حد الموت! من بعدها قُمت بسرد القصة كاملةً عليه، في البداية أنكر معرفته بكل شيء ثم قال

- لو قطعتموني إرباً فلن أقول لكم شيئاً.

فكان الرد من "نجيب" مثيراً للإعجاب.

- ومن قال لك أنه سيمسك منّا السوء؟ البركة في زوجتك الحبيبة،

بالمُناسبة ما هو اسمك يا فاتنة!

فإذا به يطشح بيده إحدى خصلات شعرها الذهبية. فصاح "ليب"
في وجهه بعدما صرخت "دنا" وامتزج صوتها بالبكاء.
- حسناً وما الضمان على أنكم ستتركونا على قيد الحياة لما أخبركم ما
أردتموه؟

فكان الردُّ مني بعدما دقت النظر في عينيه من تحت قناعي المُلثم.
- لا توجد ضمانات ولكننا نعدك أن تعودا سالمين بلا أي خدش ولا
ضما مَاتِ.

وبعد تفكير والنظر إلى حال "دنا" الذي غلبه القهر والبؤس.
- لكم ما أردتم. هذه القضية تم توكيلي فيها من قِبَل سيادةٍ كبيرة،
"كَرَم" ليس هو الجاني وإنما الجاني هي ابنة صاحب السيادة الذي حتى
لا أعرفه شخصياً. الأمر وصلني من الشابة "فايا" والدها سبق وأن
دافعت عنه في إحدى قضايا الفساد وخرج منها كأنه ملاكاً بريئاً. "فايا"
كانت الوسيط بيني وبين والد الفتاة القتالة لمريم، يبدو أن الجانية
و"فايا" أصدقاء في الجامعة ذاتها. يوم الواقعة تحدّث والد الفتاة القتالة

دون إفصاحٍ منه عن اسمها الحقيقي ولا حتى عن هُويته. في الحقيقة لم أكثرث كثيراً طالما كان العائد أموالاً لا تعد ولا تُحصى. وبالفعل قُمت بالاتفاق مع شاب سوابق من أحد الأحياء الشعبية الذي سريعاً ما إرتضى بالمبلغ الزاهد الذي عرضته عليه وفي المقابل سوف أدافع عنه. وبعد إتفاقنا المُسبق قام الشاب بتسليم نفسه. ليتصل بي والد الفتاة مُخبرني بتحويل الأموال إلى حسابي بالإضافة إلى السؤال عن إذا ما كان هُناك أدنى مشكلة إن ذهبت ابنته إلى إحدى الدول الأوروبية حين تنفيذ الحُكم على الشاب. فكان ردي :

- ابنتك في أمان تام. يُمكنها الرحيل والمجئ متى شاءت.

وبعد سؤالي عن طريقة التواصل بينه وبين هذه الشابة "فايا" قال لي أن أول مرة أخبرته فيها حيثيات الجريمة كان عن طريق شبكة التواصل الإجتماعي "فيس بوك" كان لا يعرفُ من هي؛ لأنها كان المرة الأولى التي يتواصل فيها معها. كانت على عجلةٍ من أمرها لإنقاذ صديقتها التي سريعاً ما أعطتني رقم هاتف والدها للتواصل معه. ثم أمرتني بمسح سجل المُحادثة وقد كان.

فما إن سمع "هشام" هذه الكلمات من خارج الخيمة سريعاً ما دخل قائلاً والهاتف في حوزته يلتقط الإشارة بعناء:

- أدخلنا على حسابك الذي كانت عليه المحادثة تلك.

لينصاع "لييب" للأمر في رضوخ تام. فما تلاها إلا قام "هشام" بعمله حتى توصل منه إلى الحساب الشخصي لفايا. كان حسابها الشخصي ينقصه وأن يلتف من حوله أسوار من الأسلاك الشائكة، ويطوف من حوله الكلاب البولسية، ومن فوقه طائرات إف 16، ويختزن بداخل معقله قذائف هاون حديثة الصنع. فكان جميع محتويات حسابها الشخصي مُغلقة عن الرؤية إلا الرسائل باعتبار أنها حادثت "لييب" عليه من قبل. قرر "هشام" تسوية الأمور على نارٍ دافئة فقرر من حساب "لييب" إرسال رسالة بها صفحة مزورة لفايا. فما إن تستكمل خطواتها بعد الضغط عليها فحسابها الآن يؤول إليه! وكتب على الرسالة.

- مرحباً "فايا" هذه بعض الإجراءات القانونية في قضية صديقتك من فضلك استكملها نيابةً عنها إن كُنتي على إطلاعٍ بها، لذا يُرجى

الضغط على الرابط. ومن حُسن الحظ أن "فايا" رأت الرسالة في لحظتها
وبالفعل نجح الطُعم! بل وإختتمت الرسالة:

- تمّ! وشكراً لك يا سيد "ليب" على أتعابك معنا.

ليكون الرد مُصاحبه تجويدً من "هشام":

- لا بأس يا عزيزي أنتِ بمقامِ ابنتي الصغيرة!

لتقطع "فايا" طرف الحديث بإبتسامةٍ لزجةٍ صفراء تُشبه صفار
البيض في لونه ولزوجته.

وبالفعل لحظات وينجح "هشام" في إختراق الحساب الشخصي
لفايا ليجد مُحادثاتٍ بالكامل مع صديقاتها وبعد الفحص والبحث من
مُحادثةٍ ينطبق عليها المواصفات التي ذكرها "ليب" فإن الجانية الحقيقية
لقتل "مريم" هى شابة في مثل سن المجني عليها وتُدعى "فريدة"
فكانت المُحادثة كالاتي:

- لقد قتلت "مريم" يا "فايا" أنقذيني. لا أعلم ماذا يتوجّب عليّ
فعله.

- نعم! ماذا تقولين! وما الذي دفعك لهذا!

- لم أتحمل نار الغيرة وهى تأخذ "أحمد" مني بسبب جمالها!
- قمتُ بتأجير عصابة قامت بخطفها وإلقائها في البحر وقُمت
بتصويرها فيديو وهى تغرق ويدها مُكبَّلة بالحبال.
- أنتِ مُحْتلة عقلياً يا "فريدة" سوف يُلقون القبض عليكِ هكذا.
- ليس إذا تدخّل المحامي "لييب" الذي أنقذ والدك من حبل
الإعدام!

ثم في محادثة من يومين فقط.

- "فايا" عزيزتي لقد سافرت إلى "تركيا" بناءً على رغبة أبي. ولن
أعود حتى تهدأ وتيرة الأمور ويُنفذ الحُكم في كبش فدائي. إن وددت
المجئ إليّ فلا تترددي إليك العنوان... بالمناسبة أنتِ تعرفيه هو منزل
جدي لطالما قضينا فيه معاً وقتاً ممتعاً أتذكرين؟ أنا أجلس وحيداً هنا
ولا أعرفُ أحداً. الحياة بائسة للغاية إن أردتِ المجئ فسوف تغمرني
السعادة. إلى اللقاء.

علمتُ حينها أننا تحصّلنا على مُرادنا بعد شقاوة المسير ودناوة
التفسير لكل ما يصير. لينطق "لييب" والرعب يسكن ديار قلبه:

- لقد أخبرتكم ما عندي فلا تغدروا بنا من فضلكم.

فتبسّم "نجيب" ضاحكاً:

- لا تقلق، الآن سوف تفقد الوعي مرةً ثانية. وحين استيقاظك ستجد بجانبك قوت طعامك. لا تقلق مرةً ثانية سوف يكفيك حين تخرج من الصحراء مشياً على الأقدام. ليس عدلاً أن تعدل بين الناس بميزانٍ ظالم، ثم ترفع يدك لربّ العدل، وفي سذاجةٍ تتوسّله ألا تنقلبُ كفة الميزان عليك؛ لأن دائرة العدل تكتمل فقط حين يصير مصير الذي ظلّم كمن ظلّم. أتساءل: كم مرة دافعت فيها عن مُتهم وكنت على بينة أنه مستوجب العقوبة، ولكنه فلتَ من قبضة العدالة؛ لأنّك قمت بتسخير علمك في سبيل براءته. أوّليس الذي وهب العلم بقادرٍ على إنتزاعه منك في طرفة عين؟ يبدو أننا نتناقش في بديهيات!!

فما بعدها إلا كان "ليب" فاقداً للوعي بعد ضربةٍ على مؤخرة رأسه طارت به بعيداً إلى عالم آخر خيالي. انطلق ثلاثتنا بصحبة "دنا" لتصير الرابعة، تاركين من خلفنا "ليب" وهو في الصحراء يُواجه مصيره الذي كان على علمٍ مُسبقٍ بأنه لا بُدَّ يوماً وأن يخوضه. بعض الأحيان

تكون مُفترقات الطرق ذات نهايةٍ مأساويةٍ ناصعة الوضوح، ومع ذلك
يأبى الإنسان إلا أن يصل إلى آخر خط يسحبه سحباً إلى هُوة النهاية،
فيختار بمحض إرادته مصيراً مُظلماً قد سبق وأن رأى مَن خاضوه قبلاً،
ورقدوا في قاع ظلامه بعداً.

ومع ذلك لم يتعظ، ولم يزدد إلا إصراراً فلا يجد لمصيره بعد اليوم من
مهربٍ ولا فراراً!!

افتتح "رفيق" وقائع الجلسة وكأنه يتصيد الأخطاء في فعلتنا البارحة
تجاه المُحامي "ليب". فلقد رأى ما فعلناه عين الهراء وقمة الغباء. يبدو
أن تأثير الرصاصة في كتفه الأيسر قد أفقدته فسه الأيمن من عقله فلا
يستطيع تقبُّل رد الفعل من منظورنا. وبالرغم من تهكُّمه إلا أنه يُحسب
له المجيء رغم إصابته.

دار النقاش بين جميع أفراد "السنابل" فصار جدالاً، وبعد معركةٍ
كلامية ومشاداتٍ تهكُّمية بين مؤيِّدٍ ومُعارضٍ، فكانت كلمة الفصل لمن
يكتوي قلبها بحرقة الفراق لابتتها "مريم". فكان الكلمة الأخيرة
لحنين:

- أنا مؤيدة تماماً بأن نُسافر إلى "تركيا" ونتقصى عنوانها المكتوب في الرسالة النصية المرسلة إلى "فايا" ثم يُقضى الأمر الذي جئنا من أجله! وبالفعل يومان وكُنَّا قد حصلنا على التأشيرة بعد تسهيلاتٍ كثيرة من النقيب "رفيق".

فكان جميع أفراد "السنابل" على الطائرة ذاتها عدا النقيب "رفيق" الذي امتنع عن السفر في سبيل مُباشرة عمله بأرض الوطن. وكانت كلمته الوداعية الأخيرة:

- افعلوا ما شئتم طالما ما كان ستفعلوه لا تصل عواقبه إلى أرض الوطن!!



الفصل العاشر

هى صرخت وها كان الصراخ إلا لمن يبغى الحياة

أقلعت الطائرة بنجاح وكنا نطير حقاً في جو السماء بينما السُحُب
البيضاء نراها عن أسفلنا وهى يُرفرف من تحتها طير السماء في أسرابٍ
مُتجمعة تحت ظل وجهة جناح واحدٍ بالمثل كما كنا على قلب سُنبلَةٍ
واحدة. ولما حطّت الطائرة إلى الأراضي التركية قُمنا باستكمال الخطوات
الروتينية. وأخيراً بعد وصولٍ سالمٍ للفندق الزاهد الذي يقع بإحدى
الضواحي الشعبية بإسطنبول، كان حينها الليلُ قد حطَّ واستراح على
قلب السماء فتلَطَّح وجه السماء بعجینٍ أسودٍ يعتريه مسحات نورانية من
عناقيد نجمية مُتلاألة كالذرة على عنق أنثوي أملس الملمس، وفي ضُجةٍ
قمرٍ هلامي يفيض نوراً من خلف فراغات ثغر السُحُب، سريعاً ما
اشتدت الرياح ليشتد تكثُل السُحُب فتحجب القمر عنا بعد إذ امتلأت
فراغات السماء سحاباً ثقيلاً.

كانت "رحمة" في حالة من الإعياء والمعاناة من أعراض السفر، وذلك بعد إذ نزلت إلى الفندق الذي وفدنا إليه. ويبدو أنها لن تستكمل المهمة فحتى حين شعشع ضوء الشمس وصدحت العصافير تغريداً، فلقد كانت في حالةٍ يخرج فيها الميت من قبره يُنظّم رثاءً في حقها! !

وبدون "رحمة" هممنا بالرحيل نحو رحلة تعقب "فريدة" قاتلة "مريم" فكانت المؤشرات الأولية تُرجح أن المنزل على مقربةٍ من أحراش غابة "بلغراد". ولَمَّا وصلنا إلى المكان المُختار كان قرص الشمس على وشك التواري بالمغيب فكان السحاب يتموّج بالذهب والأفق يتلعلع بلونٍ بُرتقالي فاقعٌ. وبدأت فعاليات الحُطّة بعد إذ تحرّكت "دنا" إلى عتبة المنزل المُطلّة واجهتهُ على الشارع وقامت بقرع الجرس فيما تلاها قامت "فريدة" بفتح باب المنزل بزاويةٍ مُتواربة في حرصٍ شديد، ليزدهي وجه "فريدة" بمفاجأة عارمة بعد إذ رأت أن الضيف هو الممثلة "دنا" ولكن استغربت بعض الشيء بعد إشاعاتٍ أفادت بمقتلها! ولكن مما زاد على المفاجأة زيادةً في السرور لَمَّا عَلِمَت من "دنا" بأنها جارتها

الجديدة وأطلت بيمينها على الشُرْفة المواجهة لمنزل "فريدة". في غصون تلك اللحظات كان "عامر" قد اقتحم المنزل بعد إذ عبّر السياج الجانبي وتسَلَّق نحو الشُرْفة كاسراً زُجاجَها ليتحرَّك فوراً إلى باب المنزل حيث ينتهز حديث "فريدة" مع "دنا" بعد إذ امتنعت الأخيرة عن الدخول. بغرض الإطالة. وفجأة على غفلةٍ قام "عامر" بتكميم أنف "فريدة" بمادةٍ مُحدرة من الخلف فسقطت أرضاً بعد مقاومةٍ ممحوقةٍ غيرُ مُجدية. وبعدها فوراً اقتحمت "دنا" المنزل بعد إذ سقطت "فريدة" مُغلقةً الباب.

بعد نصف ساعةٍ كان الليلُ قد إفترش سوداويةً وظُلْمةً مُخيفةً في ظلٍ سكونٍ جامدٍ لا روحَ فيه. كانت "السنابل" وقتئذٍ مُحْتَشدةً في أرجاء المنزل. كُنَّا قد أطفئنا جميع الإضاءات فكان ظلاماً حالكاً، وبعد إذ استفاقت "فريدة" شرعت "حنين"

بإضاءة قابس النور لتجد "فريدة" نفسها موضوعةً بداخل صندوق زُجاجي ويدها مُكبَّلة بالحبال، والماء يغمُر ما تحت أنفها بشيء قليل وإن كان قد علا بعض الشيء في لحظاتٍ حتى لامس أنفها وطغى على أنفاسها.

- الحياة تُبنى على إختيارات. والإختيارات خلفها عواقب،
والعواقب تدينُ بدينِ الإختيار، فإما صالحاً كان الإختيارُ، فالجزاء من
السعي زيادةً الحُسنى يكونُ. وإما طالحاً كان الإختيارُ، فالعاقبةُ حينها
أشد ما تكونُ. أما التغاضي عن عقوبةٍ نتاجِ سوءِ قرارٍ فهي سذاجة؛ لأن
ما حاكهُ صدر المرء من الإثم لا بُد يوماً وأن يدفع جُرمَ خطيئته طالما
مُحِيَتِ المُحاكاة وخفت أنينُ المُناجاة وخرجَ الإثم من رحم الحياة فصار
نُبضه هو من يُحرّكه ويتحكّم فيه. وهذا ما حدث معكِ يا "فريدة" لما
طغى على قلبكِ نازٌ من الغيرة مريضة، وصرقي شيطانةً مريدةً تستدرج
زميلتها تمهيداً لإغراقها في البحر،

هنا فقط تكتملُ دائرة الظلم إلى ميعادٍ يُفعلُ فيه مثلما فعلَ الظالمُ
بالمظلوم. وها قد قَدِمَ الميعاد بعد إذ ظننتِ ألن يجد لقدمه سبيلاً. النهاية
الآن حتمية؛ لأنك كنتِ آخر قطرة حبر منها. وبعد قليلِ صُراخك لن
يستجدي النفعُ، ولن يسترجي الإحساس، ولن يستعطف قلباً قد
سحقته وقذفتي به إلى مكانٍ سحيق.

هى صرخت، ولم تجد من ييسط لها يد العون. هى صرخت، ويدها
تبطش الماء فى عجزٍ شديدٍ أليم. هى صرخت، وهى تتوسل والموج قد
أحاط بها من كل مكان. هى صرخت، والماء يبلغُ حلقها فتشرب منه
شرباً ما زادها منه إلا ظمآنًا للحياة، هى صرخت، والدمع من عينين
خائفتين يُذرفُ فيُمزجُ بماء البحر. هى صرخت؛ كي لا تهوي فى
الدركاتِ فيرتشفها القاع. هى صرخت، وحين نظرت فى الوجوه من
حولها وجدت نظرات تشقى يشتعل منها الحُطام فى العيون ناراً. هى
صرخت، وما كان الصُراخ إلا لمن يبغى الحياة. هى غرقت، بعدما
زُهِقت من روحها الحياة! فالآن حصحص الحق وجاء الردُّ ولن نمضي
من هنا إلا بعدما يصير الحق ردُّ.

لينبض من "فريدة" أنين صراخٍ مكتومٍ بعد إذ سحبتُ غطاء الوعاء
الزجاجي من أعلى ليتبعني "نجيب" وهو يغمر الماء من فوق رأس
"فريدة" وبعد إذ صار الماء على مقربة من السطح سارعت بإغلاق
الغطاء. ليضيق الوعاء على "فريدة" فما تجد لمتنفس من الهواء، فتبطش

بيديها المكبلة فلا تستطيع نحو المصير الذي سبق وأن كتبتة بيديها. كانت روحها تتشبث بالحياة خوفاً مما ينتظرها، كان يغمرها لمحات من الأسى والإنكسار ولكن كل ذلك محض خواء. فلا ينفع الندم إذ وقع البلاء ولا ينفع الأسى وإن امتزج بالرجاء!!

ويبدو أنه كان يترقبنا ما لا يُحمد عُقباه، فما بعد إذ فارقت "فريدة" الحياة كانت سيارات الشرطة تَحومُ المكان وصيحات إنذارها تدوي بصوتٍ مُفزعٍ. فقمّت بالنظر من الشُرْفة فرأيت أفراداً من الشرطة تسحبُ مسدساتها في سبيل إقْتحام المكان! كُنّا في ورطة بالغة وفي مرتبط عُقدةٍ بلا إنفكاك. حينها أُغمِضت الجفون وسكنت العيون وصارت الغيوم من فوقنا تحوم. وبينما نحن على ذلك نسترق أنفاسنا الأخيرة إذ بالشرطة تقتحم المنزل الذي عن يسارنا وتسحب منه جميع من فيه بعد مُناوشاتٍ وطلقاتٍ من أعيرة نارية. هُنا فقط هدأت فرائسنا بعد إرتياحٍ ضاق ذرعاً على القلب، وخوفٍ يسحب الأنفاس ببطئ. وبعد أجواءٍ مشحونة ببارود الترقب!!

ولما شقشق نور الصباح كُنَّا قد عُدنا سالمين غانمين بعد إنقضاء المهمة ولكن كان بانتظارنا فاجعة جديدة بعد إذ وجدنا سيارات الإسعاف تعجُّ بالمكان، والمُحققين من حولنا يدورون المكان ليُخبرنا فيما بعد موظف الاستقبال المُتحدِّث بالإنكليزية أن هنالك شابة قُتلت في غرفتها وتُدعى "رحمة" وترك الجاني رسالة باللُغة العربية على حائط غرفتها، وما زال المحققون يبحثون عن مترجمين فوريين؛ لمعرفة محتواها. ولما صعدنا العُرفة بعد تحفُّفٍ عن الأنظار خلسة. دخلنا العُرفة فكانت مُلطخة بالدماء وكان الحائط كُتب عليه رسالة خطَّت أحرفها بدم "رحمة"

"أما قبل، فليكن ما حدث عبرةً لكم. أما بعد، فإن لم تنتهوا عمَّا أنتم فاعلوه فإنكم سوف تشاركون المصير ذاته"

فتباينت ردود الأفعال بين ثباتٍ كالوتدٍ وبين تخلُّلٍ كالأرجوحة النائحة، ولكن ما وجدنا عليه عزمًا هو ضرورة جلاءنا عن تلك البلاد والعودة للموطن سريعًا. وبعد إذ أنكرنا معرفتنا بـ "رحمة" حتى لا نفع

فريسة للتساؤلات. قُمنّا بالعودة سريعاً مع أول طائرة عائدة إلى أرض الوطن، كنت أنظر من النافذة بينما نحلّق فوق السحاب المظلم والغيث يتنزّل كرصاصاتٍ كمدّاً ونحيباً على رحيل "رحمة"!!

كانت خسارة مؤسفة ولكن هي حرب، ولا تضع الحرب أوزارها إلا بضحايا. والتضحيات إن لم تُقدّم كقرايين للظفر بالفوز كانت الهزيمة مُستحقة. والهزيمة إن كانت مُستحقة فتمنّى الموت على أن ترى الخزي والعار الذي سيلاحقناك من بعدها لأبد الأبدين. من قال أننا كنا لتتجول في نزهة ربيعية تحت ظلال الشجر؟!

الاجتماع الثالث، جريدة التراث.

في رهفٍ شديد تُفصح "دنا" عن مكنون صدرها.

- أنا في غاية الأسف لإخباركم هذا ولكن المجازفة تختار من يخوض المغامرة باسمها، ويبدو أنها لم تختبرني معكم يا رفاق. لا يُمكنني المغامرة فلدي الكثير لأخسره ولست على استعدادٍ بعد لأتمزّق في هذه الطاحونة.

فكان الرد من "نجيب" بعد إذ تجمّعت فيه "جريتتا" المحاربين.

- نحن هُنا "السنابل" وقد أقسمنا على ألا يفرق بيننا شيء إلا الموت! هذا ميثاق قد سبق وأن تعاهدنا عليه. إن لم نواجه ما نخشاه سوف يظل يُطاردنا مدى الحياة. سوف نُهاجم ولن نرحم فيهم أحداً هي حربٌ! ما لكم ماذا صار بكم! وماذا ينتفع المرء لو كان المقابل من الريح بكل شيء هو الخسارة للنفس! تخسر نفسك حين تظن أنك لن تقدر على شيء، بينما في دفين أعماقك تعلم أنك تقدر على اجتيازه، ومع ذلك تُنكس رأسك كالأنعام في بطن الرمال. تخسر نفسك حين تكون لها ظلوماً جهولاً تتخطّطك طير التنازلات، وتهوي بك ريحُ العبث في مكانٍ سحيقٍ.

لتستكمل من بعدها "حنين" فتألهب هي الأخرى المكان بشعلةٍ على الرغم من أن القصاص بعد الثأر من قاتلة "مريم"

- نحن "السنابل" ولن تؤثرني صداقتي بك يا "دنا" على أن أتخلّى عمّا نحن فاعلوه. المبادئ لا تتبدّل تحت وطئة الظروف ولا بطش العسوف، فإن تبدّلت فهو ليس بمبدأ وإنما كان تعريضاً لمصلحةٍ، ولما

تتعارض المصالح مع المبادئ بحُجّة طوارق الظروف فهي بمثابة غدر
للواء المبادئ، لذلك في أحيانٍ عديدة الثبات على مبدأٍ بعينه يكون أهم
من المبدأ نفسه. في الأخير يا حبيتي هو قرارك ولسنا متخذوه نيابةً
عنك،

وفي ظل امتناع "عامر" و"رفيق" و"هشام" عن الحديث واكتفائهم
بنظراتٍ بحاجين مُنَعِدِينَ: كانت الكلمة من نصيب "دنا".

- معكم الحق تمامًا، فمن دونكم لن أصمد لدقيقتين بالخارج. يبدو
أنه سيتوجب على مواجهة مخاوفي وإن كانت كثيرة بعض الشيء.

كانت حينها الساعة شارفت على العاشرة مساءً، وكان "هشام" قد
أقبل يتشاوب كأنه لم ينم منذ بدء الخليقة، ومع ذلك جاء ميعاد النظر في
ميعاد القصاص "عامر" أو "نجيب".. فرأيت أنه من الأفضل البدء
بنجيب ولم يُعارض "عامر"؛ لأننا في الأخير مجموعةً واحدةً والهدف
واحد. ليخرج أخيراً "هشام" من كهفِ نومه بالحديث.

- هل يُمكننا تكملة النقاش ووضع الخُطة لغدٍ؛ لأنني مُرهق للغاية،
وأريد أن أخلد للنوم! كما أن أُمي مريضة وأريد الإطمئنان عليها.

فما كان الرد مني سوى أن قلت له:

- بالطبع "هشام"، لقد انتهى الاجتماع أيها الأفاضل يُمكنكم
الرحيل جميعاً ثم لُزمت الصمت لبُرهةٍ وضحكت ضحكةً خبيثة بينا
الجميع يهْمُّ بالوقوف.

- بإمكان الجميع الرحيل إلا "هشام"!!

فضحك الجميع بعد إذ كان هو المُتسبب في إنهاء الاجتماع ومع ذلك
لا يرحل، فقاموا بالتحفيلِ عليه أثناء خروجهم وهو نفسه غارق في
الضحك، إلا "عامر" الذي وقف في مكانه ينتظر سماع ما سأخبره
ل "هشام"، لكن سُرعان ما تحوَّك، ورحل مثلما رحل الجميع. ثم جلست
مع "هشام" لبعض الوقتِ بعد إذ لحق بي الشك في "عامر" من وقفته
المُريبة..

فكان "هشام" هو أكثر من أثق به فلقد اتفقت معه مُسبقاً على أن
يطلب الرحيل حينما تقف عقارب الساعة على العاشرة مساءً، وقال لي
يومها.

- الخائن الذي بيننا ويقوم بنقل المعلومات هو من سيتشكك حين نجلس سوياً أنا وأنت.

وبالفعل خرج الجميع في ضحكٍ إلا "عامر" فقد كان يجولُ في نفسه نظرات ترقّب ماذا سنقول. ولكن حين وضعه تحت جميع أصعدة المراقبة من قِبَلِ "هشام" بحُكم عمله الاستخباراتي فكانت النتيجة بأن "عامر" برئ من تهمة الخيانة وأنه أكثر من يمكن الإعتماد عليه حالياً. يومها فقط تيقنت أن ما تراه ليس بشرطٍ أن يكون صحيحاً فالعيونُ لا تُبصر نوايا البشر. تحتاج إلى ما هو أبعد من البصر، ربّما أنت بحاجة إلى البصيرة! لأن أخذ الأمور على محمل الظاهر منها هو خديعة كبرى قد تسوق بالمرء إلى كوارث إن فات الآوان في تداركها. وحمداً لله أننا تيقّنا أن "عامر" ليس الخائن من بيننا!!



الفصل الحادي عشر

ما بين ثنائية الحب والحرب. لقاء مرتقب

في صباح اليوم التالي كنت قد عقدت العزم أن يكون هذا اليوم ملكاً لي، وليكون بمثابة استراحة مُحارب بعد ضيق الكُربات وضير المكروهات. وبالفعل قُمتُ بإلغاء الاجتماع بعدم الذهاب إلى الجريدة من الأصل. فكان ذلك في سبيل الحظي بيومٍ كثيرًا ما تمنيتُ أن يأتي دون إلحاحٍ، ولأن ذلك لم يكن ليحدث فقد قررت حينها أن أكون عزيز النفس ولا أسأل الشيء إلحاحًا، بل وأرغمه بالتجاهل على الإتيان مُهرولاً إليَّ بل ويطرَجِي القبول بين مهابةٍ ورجاء!

كانت الشمس قد سطعت في الأفق وتربَّعت على كبد السماء ومع ذلك كان الجو خريفياً لا بأس به. قررت التسكُّع في الشوارع التي لطالما عشت بين جنباتها وأحجارها العتيقة شاهدة على ميلادي فيها. سريعاً ما إرتديت قميصي وبنطالي وهممت بالخروج بعد إذ سُحبت أطراف القميص بداخل البنطال، وتوسَّط الحزام الأسود مُحيط الخصر، وتم

تشمير أكامٍ ساعديّ، وغاصت قدماي في حذائي الأسود الذي يعلوا
عن الأرض بأربعة إنشات، وتم تسريح شعري على جانبه الأيمن مع
رفع الخُصلات الأمامية نحو الأعلى كأنه موجه مُنكسرة، من ثم لبستُ
نظاراتي الطبية التي لستُ في حاجةٍ إليها وإنما لأن إطلالتي تكون أفضل
في حضرتها، لا بأس هكذا نحن مفتونون بالمظاهر!

كنت أجوبُ الشوارع ومع كل نظرةٍ كانت تجوب معي لطائف
الذكريات ولواعج الإشتياقات. تيقّنت يومها أنني بلغت أسمى مرحلة
في الحب وهي الإخلاص لمن تُحب. هي مرحلة لا يخطوها من غرق في
دوامة النسيان ولا من إنصهر في مشاغل الحياة. الإخلاص في الحب لا
يُولد بين ليلةٍ وضحاها؛ لأن الإخلاص عُرف بمرور الزمان وتقلّبات
الوجدان فحين تكون حاضراً مُستقبلاً ويكره قلبك على نسيان ما كان،
وتكون صدى كلماتهم في أذنيك كعزفٍ رنان. فقط وقتها يصير المرء
مُخلصاً بحق؛ ولأن الإخلاص هو نتاج ثمرةٍ أزهرت بعد معاناةٍ وصمودٍ
في ظل رياح التغيّرات تارةً، وفي ظل أمطار التعوّد تارةً أخرى.
الإخلاص أن يُحفر بداخلك ينبوعٌ من ماء الذكريات فلا ينضب أبداً فإن

مضى الزمان ولم يحفُّ ولم يخفُّ كان ينبوعُ فيّاضاً فتراه يمشي على
جراحك خيَّاطاً بعد إذ جرى ماؤه بلسماً جميلاً تصحُّ منه إن كنت عليلاً
فيُزهرُ من بين شرايينك وأوردتك ورداً مبهجاً يفوحُ منه عنبرٌ وكافورٌ
ومسكٌ وريحانٌ طيب الريح. والآن بعد كل هذه المعطوفات ألا أستحق
-ولو عَطْفًا- أن أزهر في ظل هذه المعطوبات؟

وبينما كنتُ أتابع المشي ساقطني قدمي إلى مكانٍ تقابلا فيه العشاق
"مالك" و"كريمة" والداي. كانوا يُطلقون على هذا المكان "وحي
الروح" هو مكانٌ مُنعزل عن لغط العالم الخارجي كأنه قطعة من
الفردوس وهبطت إلى الأرض. فكان له درجاتٍ سلامٍ تسحبك في
لطفٍ للأسفل فترى المكان من بعد ذلك وهو يُطل على نهر مترقّق
تتألأ فيه الشمس بخيوطٍ ذهبية مُناسبة و متموّجة، ويتجمّع فوق مياهه
اليامُ المهاجر بشكلٍ ملحوظٍ، والطير أمامك يشدو ويصدق خفّاقاً
بجناحيه، فيطير في جو السماء، وحين ترى من أسفلك الأرضية تجد
أحجاراً بازلتية عتيقة تُفصح شقوقها عن كثرة قصص الحب التي قد
شهدت ميلادها، وحين تُمعن النظر من حولك عن اليمين واليسار تجدُ

أَرْضًا مَنْخَفِضَةً بِعُضِّ الشَّيْءِ زُرْعَ فِيهَا خُضْرَةٌ وَوَرُودٌ حُمْرَاءُ تَسِرُ
الْناظِرِينَ، وَحِينَ تَطُوفُ بَاحِثًا عَنْ مَصْدَرِ رَائِحَةِ الْمَكَانِ الْعَبْقَةَ وَلَا تَجِدُهَا
فَتَوَدُّ لَوْ يَتَعَلَّقُ بِمَلَابِسِكَ بَعْضًا مِنْهَا.

وَلَكِنْ خِلَالَ طَوَافِكَ تَجِدُ رِسَائِلَ غَرَامِيَةِ فِي صَيْغَةِ وَرْقِيَّةٍ مُعَلَّقَةٍ عَلَى
حَائِطٍ خَشَبِيٍّ فَتَتَوَائِمُ قَدَمُ الرِّسَالَاتِ مَعَ ثَنَائِهَا الْحَائِطَ وَشَقِيقَةَ الدَّخْلِيَّةِ،
وَبَيْنَمَا تَقْرَأُ تِلْكَ الرِّسَالَاتِ بِشَغْفٍ فَتَتَوَقَّفُ قَلِيلًا فَتَنْظُرُ مِنْ فَوْقِكَ تَجِدُ
أَنَّكَ مُظَلَّلٌ بِخِيْمَةٍ بَيَاضٍ شَفَافَةٍ، وَالتِّي حِينَ تَنْعَكِسُ مَعَ ضَوْءِ الشَّمْسِ
تُعْطِي قَوْسَ قُورْجٍ مِنْ حَوْلِكَ، وَحِينَ تَتْرَكَ الرِّسَائِلَ وَتَقْتَرِبُ فَتَهْبِطُ إِلَى
حَيْثُ زُرْعُ الْوَرْدِ وَتَبْسُطُ يَدَكَ فِي النَّهْرِ فَتَرَى مِنْ نَقَاءِ الْأَسْمَاكِ الْمُلَوَّنَةِ،
وَهِيَ تَتَأَلَّقُ بِزَعَانِفِهَا فِي مَرُونَةٍ شَدِيدَةٍ، وَحِينَ تَرْفَعُ عَيْنَيْكَ تَرَى إِلَى أَقْصَى
الْيَسَارِ أَرْجُوحةَ عَرِيضَةٍ مُبْطَنَّةٍ مِنَ الظَّهْرِ تَتَسَعُّ لِشَخْصَيْنِ فَتَرَاهَا وَهِيَ
تَتَمَائِلُ مِنْ نَسِمَاتِ الرِّيحِ الْخَفِيفَةِ، وَحِينَ تَتَصَعَّدُ مُجْدِّدًا مِنْ بَيْنِ جَنَةِ الزَّهْوَرِ
ثُمَّ تَتَأَرَّجِحُ عَلَيْهَا فَهِيَ تَسْحَبُكَ مَعَهَا لِأَقْصَى مَوْضِعٍ لِلْأَمَامِ فَتَرَى أَنَّكَ
وَالْأَرْجُوحةَ تَجَاوِزُتُمَا الْأَحْجَارَ الْبَازِلْتِيَّةَ وَأَنَّكَ تَتَأَرَّجِحُ فَوْقَ الْمَاءِ مُبَاشَرَةً،
وَحِينَ تَنْظُرُ بِعَيْنَيْكَ عَالِيًا تَرَى سَمَاءَ رِزْقَاءَ تَتْرَيْنِ بِسَحَابٍ كَثِيفٍ نَاصِعٍ

البياض فتراه يتبختر في حركته من مُداعبة الرياح له رويدًا رويدًا، وحين تنظر لأسفل منك ترى بكل شفافية سرب الأسماك وهى تسبح عن أسفلك تمامًا فتود لو بلغت الأرجوحة أقصى موضعٍ للأمام فتترك يدك فتهبط في الماء فتغوص مع تلك الأسماك في ملكوتٍ آخر.. فتنسى الدنيا وما فيها.

اختلف الكثيرون بين الخرافة والمنطق بشأن أصول تسمية المكان فمنهم من قال بأن هذا المكان روحاني نظرًا للرائحة غير المعلوم مصدرها، ومنهم من قال بأن الأرواح قبلما تتآلف أو تتخالف مع شخصٍ بعينه فإنها تأتي أولاً إلى هذا المكان؛ لتتخذ قرارها ثم ترجع إلى أصحابها مُجددًا، ومنهم من قال لا هذا ولا ذاك وأن أصول التسمية إلى شاعرٍ قديم كان كلما جلس في هذا المكان كان الشعر يجري على لسانه مجرى الماء، ولما عَلِمَ هذا قام بتسمية المكان "وحي الروح" حيث تسترسل فيه روحه المعاني بسهولةٍ بالغة. في الحقيقة لم أكرث إطلاقًا لأصل التسمية بقدر ما كان يلزمني بهذا المكان طمأنينة مُبهمة المصدر. خصوصًا وأن هذا الجمال لا يعلم بشأن وجوده الكثيرون، أو ربّما

يعلمون ولكن من يُعطي الجبال حقه المستحق هذه الأيام! لا أحد بالطبع! كيف توفّي حقاً لو أمضيت عُمرُك كله ما قدرت على إيفاءه ولو برُبع شبرٍ من المطلوب

كانت الساعة قد قاربت على الخامسة والنصف فبدأ شعاع الشمس يجبو، والسحابُ صار مُتبعثراً بعد إذ طبع الشفقُ على لونه بعد إذ تنحّى قرص الشمس من الاستيلاء على الأفق، ففقد توهجَه، وصارت لحظات وقرص الشمس سيدوب في الماء، فإذا بي أجد من يقترب ماشياً على استحياءٍ فيقف عن خلفي دون أن أراه ويوقف الأرجوحة بأيديه لأنظر فأرى " حبيبة " ! صدقاً كانت هي واقعاً دون حلم. ظلّت قُرابة الخمس دقائق تقف عن يميني وتبرقُ في عيناى دون كلمةٍ ومع ذلك كانت رسائلُ العقلِ تُفصِحُ عنها المُقل وتكاد الشاعر تضى من عينيها مشاعل وكأن الدنيا خلا منها المشاغل. حتى قالت في صوتٍ مُتهدِّجٍ بين ترده نغمةٌ نحيبٍ غيرُ مُعلنة:

- عودة حميدة.

فكان الردُّ منى على خجل.

- نعم لقد عُدْتُ ولكن ستفهمين أسبابي حين تعرفين لماذا أخفيت خبر عودتي.

لتبَسِّم " حبيبة " وتضيق عيناها على الدمعة فتزرف من بين الجفن لِيُسارع نسيمُ الريحُ في مسح وجهها سريعاً بتطاير الدمعة عن صفحات وجهها.

- لا تخف حيال ذلك، فيومَ تسلَّمت جريدة " التراث " كُنت على علمٍ بعودتك. ولكن إنتظرت أن تفي بوعدك وتهرع إلى رؤيتي. ولكنك لم تفعل وآثرت المشاغل على المشاعر. وحين قَدِمْتُ إلى هُنا فكان لأنني عادةً أحبُّ أن أرى الغروبَ من مكانك هذا الذي تجلس عليه.

فقلْتُ في ودٍ يحتاجُ الكثير لإبراز صدق نواياي:

- ما رأيكُ بأن تجلسي أنتِ الأخرى، وتستمعين إلى ما حدث قبل وضع قلبي فوق مقصلة عتابك، ولكِ من بعدها كامل الحرية في القرار بالصفح بعد الاعتذار أو بالهجر بعد إتخاذكِ القرار، وصدقيني يومًا لم أكن من طينة هؤلاء القساة الأشرار.

لتسحب "حبية" طرف فستانها الذي لا بُد وأن الملائكة قد حاكته
لها ثم تتحرك فتجلس على الأرجوحة وعينيها أسفل موضع النظر، ومن
بيننا قرص الشمس يذوب في العباب رويداً رويداً:
- الفرصة معك الآن، حاول ألا تُفسد الأمر أكثر مما أفسدته،
وبالطبع لو أردت الحكم عليك دون سماعٍ لكنتُ تركت لك المكان،
حتى دون أن تراني.

وبعدَ شرحٍ طويلٍ مُستفيضٍ في بعد الأحداث بشأن ما حدث بعد
تركها، ومقتضب في الآخر بشأن نشاطي الحالي. يبدو أنني قد فزت
بصكوك الغفران! فقالت:

- يوماً ما قالت لي صديقتي: "في أي موقفٍ يمضي في حياتك.. اعبر
إلى جسر الآخر" وها أنا ذا عبرتُ الجسر وضعتُ نفسي مكانك يا
"ريان" ورأيت أنني كنتُ لأفعل ما فعلت إن كنتُ مكانك!

فرحتُ كثيراً بردة فعلها، فماذا سيصيرُ لو وضع كلُّ منا في مكانِ
الآخر ورأى أنه مستوجب العذر ولا يقومُ بجلده جزاءً لأخطائه

البشرية المجبولة على ضعفٍ. ولكن سُرعان ما تبدّل وجهي من تكملة
كلماتها:

- ولكن لماذا سيُريدون إلحاق الأذى بك وقد سلّمت لهم الأموال
بعد بيع ممتلكات جدّك "طيب"؟

حاولت كثيرًا التهرّب من هذا السؤال، ولكن لم يكن لدي مفر
وأجبتها على سؤالها تحت ذريعة أن الإنسان الناجح صاحب طموح،
وأن الحاقدا لا يطمع إلا لمطمح الناجح.

- ربّما معك حقّ في هذا. ماذا عن ميعادِ خطبتنا؟ أما زلت هذا
الشخص الذي لطالما كان بجانبني وقت تحلّي فيه الآخرون عني، أم أنك
ستخطوا نفس النهج ببراعة غير مسبوقة النظير وترحل كمن قبلك؟

وفجأة عجزتُ عن الرد، كيف يُمكنني الإيضاح لها بأن كل من
يخطوا إلى حياتي بمقدّر شبر واحدٍ فقط، فإن هلاكه مؤكد. فكل ما تعلّق
بوريد الروح هو قريبٌ، وكل قريبٍ من القلب هو نقطة ضعفٍ، وكل
من عُرف موضع ضعفه هو نقطة استغلالٍ، وكل استغلالٍ يترك وراءه
فقدٌ، وكل فقدٍ لا يُمكن تعويضه هو خسارة. والخسارة الكبرى حين

يتعلّق المرءُ بإنسانٍ لا هو بقادرٍ على حمايته من بطشِ الملاحقين، ولا هو بقادرٍ على أن يتركه فيتزحزح عن عرش الوجدان، لتصير المواجه بين هُنا وهُنَا.

قررت المغامرة وإن كُنت أكره أن تُطارَد "حبّية" بسببي في يومٍ ما. أحيانًا على أعتاب المُجازفات لا يسعُ المرءُ من شيء لفعله سوى بأن يأمل أن يكون قراره المتخذ هو الصحيح.. لأنه في مواضع كثيرة لا تملك آلية التغيير ولا رفاهية التخيير.

فسبقت العاطفة العقل!

- سوف تُقام الحِطبة بعد ثلاثة أيام؛ لأن غدًا هو ميعادُ زيارتي لأهلكِ أولًا في بيتكِ كريمةً مُدلةً. فإني لخصون قلبك فاتحًا، ولأعاديكِ جثتهم بالسوط جلاّدًا، ولعل هذا يُثبت لكِ كم تكونين عزيزةً على قلبي!

ومع آخر طرف لقرص الشمس في الأفق كانت "حبّية" قد استولت على الأفق بعد قمرٍ بزغ بدرًا على وجهها من فرحة غامرة في طياتِ القلب عامرة

عند منتصف ظهيرة اليوم التالي كُنت قد استقيظت بعد إذ كانت ليلة
البارحة أشبه بالفردوسية، فحتى بعد عودتي كُنت قد نمت على المُحادثة
النصية الشاعرية. وبعد إذ أخذتُ الميعاد منها فكان هو السابعةُ مساءً،
وهو موعدُ الإجتماع الرابع! فقررت تأجيل الاجتماع بدعوى أنني مُرهق
وقُمت بتوكيل "ريهام" السكرتيرة الخاصة بي بإقامة مهام العمل نيابةً
عني، وعند السابعة مساءً كُنت واقفاً أمام منزل بيتها بمظهر آسرٍ قد
تغازلت فيه الفتيات بنظرة فاتنة وذلك أثناء طريقي إلى منزلها، فمنهم من
شيّدت بوسامتي فقالت:

- يا الله أيوسفُ خلُق من جديد!

ومنهم من تفحصتني بعينيها من أسفلٍ إلى أعلى ثم قالت في توددٍ

- ألا ليتَ الجميلُ يطيبُ ويكون لنا فيه نصيبٌ!

وبعد إذ خرجت من محلٍ للورود ومعِي باقة من الورود الحمراء
رأيتني إحداهن فتوقفت عن الحديث وتصلّبت قدماها في موضعها بينما
تُحدث صديقتها على الهاتف:

- يا لحظها من وقعت نَحلةً في حبك يا عسل!

ما كان لي من نجاة سوى بغض البصر والسمع وسائر الجوارح.
وبعد الوصولِ سالمًا غانمًا ضغطتُ على جرسِ المنزل فاستقبلني والدها
السيد "مُختار" بالترحاب، ثم جلستُ والخنجلُ يُكبّلُ لساني، ولكن يبدو
أنني لم أكن بحاجة لقول الكثير؛ لأن "حبّية" قد سبق وأخبرتهم كل
تفصيلة ممّلة كان أو مُهمّة. وبعد قليلٍ إذ بجرس البابِ يطرق وتفتح
"وردة" أخت "حبّية" الصُغرى فإذا بالضيوف هم الثلاث فتيات
الذين سبق ورأيتهم في طريقي فإذا هم كانوا أصدقاء لـ "حبّية" وأنني
كنت بصدد إختبار دون علمٍ وهُنا تيقنت أن كيدهن عظيم!!

ولكن لا بأس يكفي أنها كانت فخورةً بي لما تجاوزت إختبارها
السخيف، وبعد موافقة السيد الوالد على الخطبة تحت بندٍ يُدعى "نحن
نشترى رجلًا" فتمّ الإتفاق على ميعادِ الخطبة في منزلها غدًا، وقد كان
فبعد تأجيلٍ للإجتماع مرةً أخرى تم عقد خطوبتي على "حبّية" بعد
حضورٍ زاهدٍ لعائلي فلم أكن أملك سوى زوجة عمي "فاطمة"

وأولادها لدعوتهم. وددت فصل حياتي الشخصية عن "السنابل" بقدر
الإمكان. لأن الفرق بين الحُب والحَرْب هو مُحْيِف حَدِّ الرُّعْب، وعليها لم
أقم بدعوة أي فردٍ منهم إطلاقاً.

وحين جاء الميعاد المنتظر كنت واقفاً أمام المنزل وأرى نوافذه وهى
مُغطاه بستائر شفافة رقيقة تُفصح عن جنة الألوان والإحتفال بالداخل،
وحين دخلت كان المنزل مُزداناً بهجةٍ ومراسم إحتفاليةٍ إسْطورية، من
فقاغاتٍ من الهيليوم تُحَلِّق في الأعالي، ومن أغاني صادحة رومانسية.
حتى حانت اللحظة المرتقبة بظهور "حبّية" كظهور القمر بين سحابتين
مُظلمتين. فكانت كوكبٌ دُرِّي مُزدانٌ بعناقيدٍ نجمية وكان الزمردُ المنشور
يطوف خجلاً على وجنتيها المُحمّرة، وكانت بسمّة ثغرها تُضاهي العسل
المُصفّى حلاوةً ونقاوةً فكان البرق الأبيض يترأى ما بين شفتيها ما إن
تُفصح عن إبتسامتها. كان يوماً نُقشت تفاصيله على حجرٍ لا يقوى على
طمسٍ ملاحه الزمان ولا يقدر أن يتعرّى في مواجهة عتيد الرياح. بعد لما

استراحت نسماتِ الحُب، كان الوقت مُناسبًا لمعاودة نشاط "السنابل"
بعد إذ كان السبب وراء إنقطاع النشاط هو أنني كنت مريضًا، وفي حاجة
للأجازة فيما بعد قمت بإخبار أفراد "السنابل" عن ضرورة المُسارعة في
البدء صوبَ مهمتنا الثانية حيث القصاصُ من الجاني وراء إنتحار زوجة
"نجيب" وهى السيدة "مرام" والدّة الصغيرة "ريحانة"!!



الفصل الثاني العشر

الإلهاء الناجح أن تعرف متى يقتحم البلياتشو مخططك

الاجتماع الرابع، جريدة التراث..

في تمام السابعة تمامًا تمّ افتتاح وقائع الجلسة بعد إذ حرصت على إخفاء خاتم الخطوبة عن خنصري الأيمن. حتى يلي ذلك أسئلة مفاذها الإطمئنان على صحتي، وتمنّي الشفاء العاجل لي. صدقًا شعرت ولو أن حرمانني من عائلتي قد تم تعويضه فيهم. ليحين الوقت تمامًا في التخطيط لمهمتنا الثانية فكانت الكلمة لنجيب.

- نحنُ الآن أمام جاني مجهول، صحيحٌ أنه لم يرتكب الجريمة ولكنه كان المُساهِم الأساسي والمُحرك الرئيسي في إنتحار زوجتي!

والآن ما نحن فاعلوه سيتطلب تكاتف من جميع أفراد "السنابل" لأنني أحسب المهمة ليست سهلة. مَرَبط الفرس الآن هو ما في حوزة الطيبة "رغدة" التي كانت تتداوى عندها "مرام" من مرضها النفسي، فما رأيكم؟

لتكون الكلمة للطبيبة "حنين".

- عُذْرًا الطبيبة "رغدة أبو السعود"؟ فحين ذكرت قصتك لأول مرة لم أكن قد وفدتُ إلى قاعة الاجتماع بعد.
ليظهر على "نجيب" بشاراتٍ من نور غمزت بوجهه في بحرٍ من حُبور.

- وهل تعرفينها أيتها الطبيبة؟

لتضحك "حنين" فيتباين مع أداء ضحكاتها أن ما بينها وبين "رغدة" يتجاوز المعرفة السطحية بكثير!

- بالطبع أعرفها، لقد عملنا معًا منذ تسع سنواتٍ في السِّلْكِ التدريسي بإحدى الجامعات، وكانت علاقتي طيبة بها للغاية، ولكن ما زالت هُنَالِكَ عقبةً أمامنا، فهي من طينة الطبيبات اللاتي تُخْلِصْنَ لقواعد المهنة، وتترنَّمت في نشر أبسط المعلومات عن مرضاها.

فتلَمَح "دنا" وهي تتقلبُ في ضيقٍ تم الإفصاح عنه قسرًا بعد إذ كانت تحرص على ألا يظهر:

- وما المانع في أن تُساعدنا، لقد ماتت "مرام" مما يعني أن السر بعد الممات لا يعود سرًا، وبالتأكيد حينما تتفهّم أسبابنا، وأننا لا نتطفل على خصوصيات الموتى! صراحة لا أعلم كيف تُفكّر هذه المرأة!
- وحين جاء الدور على "عامر".
- لا بديل عن الطبيعة "رغد" هي خيطنا الوحيد الآن ولكن ما إقتراحاتكم لإجبارها على الإعراف؟
- فيلّمح على "هشام" نظرةً سابحة في خيال التفكير:
- هل تعلمون أين تحتفظ بوثائق تسجيلاتها مع "مرام"؟
- فكان الرد من الطبيعة "حنين"
- في العادة إما شرائط مُسجلة أو تضع التسجيلات على الحاسب الآلي الخاص بها في مكتبها!
- ف سريعًا ما تداخلت في محادثتهم الشائبة:
- "هشام" كيف يُمكننا الاستيلاء على حاسبها الآلي!
- ليُقاطعني "رفيق":
- هذا ليس قبل أن نتأكد بمكان إحتفاظها بالشرائط.

فكانت المُدخالَة من نصيب "دنا"

- ماذا لو ذهبت إلى العيادة الشخصية وتظاهرت بالإكتئاب؟ ربّما حينها سوف نعلم كيف وأين تُسجَّل المحادثات.

لِيُضيء المصباح داخل عقل "هشام"

- فكرة سديدة جدّا، وأما في حال إحتفاظها بالشرائط على الحاسوب فإنه بإختراق بسيط سوف أمتلك جهازها وأنا جالس في منزلي أكلاً رقائق الذرة!!

قبيل رفع وقائع الإجتماع بإجماع ساحق على تقمص الممثلة "دنا" شخصية تُعاني فيها من الإكتئاب! على أن تكون تبعات ما سنكتشفه لاحقاً هي ما تُحدد خطوتنا القادمة!

ولكن ما حدث قبل فُضّ الإجتماع بلحظات لم يكن في الحسبان. فالهاتفُ بدأ بالرنين على الطاولة بينما كنت أحادث "نجيب" فرأته "دنا" أولاً.

- "ريان"! إليك هاتفك أحدهم يتصل بك.

ثم غمست لي بطرف عينها اليُمنى:

"حور" تتصل بك!

يبدو أن أمري قد فُضح سريعاً، ولكن من الجيد أن تظل "حبية" تحت اسم "حور" تلافياً للمصائب. لم أكن أريد من أحد أن يعرف شيئاً بأمرها، ولكن سُرعان ما سأل "عامر" ضاحكاً:

- هل أنت مُرتبط أيها الشاب الجميل؟

فضحكت مُبتسماً:

- نعم، "حور" هي خطيبي.

في الواقع لم أخش من إفصاح حياتي الشخصية لأفراد "السنابل" قدر ما كُنت أخاف أن تخرج معلومات عن حياتي بغير قصدٍ منهم في حالة إن تم استجوابهم في وقتٍ لاحق.

كما كانت الشمسُ مُغتسل البرد، والابتسامة مُغتسل الحُزن، واللقاء مُغتسل الحنين، هي كانت لي مُغتسلاً من كل أوجاع الحياة، فكانت لي كريحِ يُوسف ليعقوب وهي تمحي العمى عن عينيه. المُحبُّ لا يرى حبيبه قدر ما يتحسس وجوده، أعمى البصر قد يكون أكثر المحبين تحسساً لوجود الحبيب، وهو أعظمُ الحب كحب يعقوب ليوسف!

ما بعد ذهاب "دنا" إلى العيادة النفسية للطبيبة "رغد".. الاجتماع الخامس، جريدة التراث.

- لقد ذهبت إلى العيادة النفسية الخاصة بالطبيبة "رغد". لم استغرق من الوقت طويلاً في أخذ الجلسة بعد إذ تعرّفت عليّ موظفة الاستقبال سريعاً، حتى أنه تم إخطار بقية المرضى بتأجيل ميعاد دوريات جلستهم؛ فقط لأن المريضة القادمة هي "دنا زايد"، حين دخلت كانت الإضاءة خافتة بعض الشيء.

- تفضلي يا "دنا" العيادة كلها لك في حضرتكِ!

- لكِ جزيل الشكر أيتها الطبيبة! في الواقع أنا هنا لأتعافى من...

- الإدمان؟

- لا من الإكتئاب، لقد تعافيت من الإدمان قديماً لقد كانت فترة

مؤرقة في صفحات حياتي، والحمد لله على من أنقذني منها.

- لا بأس! هل هنالك سببٌ معلومٌ لديك عن الإكتئاب أم أنه مُبهم

الأسباب؟

- لا أيتها الطيبة إنه مُبهم الأسباب، ولكن هل يُمكننا الآن البدء في تسجيل المُحادثة!

- نعم بالطبع! ولا تقلقي حيال ذلك فجميع المُحادثات احتفظ بنسخة منها على الحاسوب هناك أقصى اليمين.

- وهل أستطيع أن أستمع إلى الشرائط واحتفظ بنسخة، أم أنه لديك بوابر اعتراضات حيال ذلك.

- لا مانع بالتأكيد! سبق وقلت لك أن العيادة كلها لك في حضرتك! والآن تكلمي يا عزيزتي عن ما يقف غصّة وعثرة في مضيق نفسك!

- حسناً، ربّما كما قلتي من الممكن أن يكون صراعي من الإدمان فيما قبل هو السبب في إكتئابي الحالي، ألا ترين الهالات السوداء تظهر تحت محيط عيني وشعري هش متطاير وخصلاته متشابكة كأنها أدغال "الأمازون". أنا في حالةٍ يُرثى لها، بداخلي هُوةٌ سحيقة، وشعورٌ بالفقد مقيت، كيفَ الخلاصُ من كل هذا، لا سبيل لي في العيش وحياتي ليست ملكاً لي!!

وما إن قُمنّا بالإنهاء من الجلسة قامت "رغد" بنقل المحادثة إلى الحاسوب تزامناً مع نظرات تحتمل إختلاسة وجمع معلومات عن المكان، ولكن لما لمحت الكاميرا في أقصى الركن من أعلى سكنت عيناى وخفتت عن التجوّل واستراق النظر، وسرعان ما أخبرتني الطيبة "رغد" بأننى يتوجّب علىّ في المرة القادمة المجئ بقرصٍ لأخذ المحادثة من على حاسوبها، وما كان جوابى إلا إبتسامة مكنونة بالخبث والكيد.

- بالتأكيد في الجلسة القادمة سوف أفعل ما أمرتني به.

وفي ظل تمتّات خافته وطأطة من رأس "هشام" فأردف قائلاً:

- رائع! تماماً مثلما نريد! الآن لدينا الفرصة تماماً لوضع أيدينا فوق ما نريد تملكه، ولكن هُنالك أولاً بعض التدابير اللازم إتخاذها في سبيل ألا تبوء المهمة بالفشل الصارخ، وما سنفعله سيبدأ بك أيضاً يا "دنا" سوف تأخذين القرص الذي طلبته منك لنقل شرائط تسجيلك، ولكن القرص سيحتوي أيضاً على إحدى برامج القرصنة الخفية، وسوف تدعين هذا البرنامج ينغمس بين ثنايا حاسوبها فيكون كالفيروس بل

كالطاعون الطاعني في سائر الجسد، من ثم ستسبح لنا الفرصة بإمتلاك
حاسوبها عن بكرة أبيه بكل محتوياته!

وبعد إتفاق بالإجماع على كلمات "هشام" حان الوقت لـ "دنا"؛ كي
تُبرز قدراتها التمثيلية بعد ثلاثة ليالي! ربُّها كان ميعاد الجلسة متأخرًا
بعض الشيء، ولكن لم نكن نريد للشكوك أن تحوم من حولنا، وفي ظل
تأجل الإجتماع لحين مُضي الثلاث ليالٍ بعد إذ تَمَّت بِصُحبة "حبّية" في
سعادة هنيئة وعشق يُسقط مُعتنقيه في هوى المنية، ليحين أخيرًا مُضي
الثلاث ليالٍ.

الجلسة الثانية..

- مَرَحَبًا "دنا" تبدين مُتألقة في جلسة اليوم عن نظيرتها السابقة، أمل
أن تكون حالتك النفسية في تحسّن. ودعي بشارة العطي والأمل تتمدد
في قلبك بأن هذه هي البداية فحسب

- عظيم! دعيني أخبرك أيتها الطيبة أنني لم أجد من يحتويني مثلك
وإنني أتمنى أن يكون شفائي من إكتئابي معك، وفي حضرة مداواتك.

- لا بأس دعينا الآن نبدأ الجلسة.

- بالتأكيد هيّا بنا.

وبعد مُضي قُرابة الساعة إذ بالطبيبة "رغد" تُنهي الجلسة وتتفقد شريط الجلسة من حاسوبها، ثم إذ بالطبيبة "حنين" صديقة زمالتها تدخل المكتب في حضرة "دنا" بعد إذ غمزت "حنين" لـ "دنا" في سبيل المُسارعة بالخطوة القادمة. وبينما "رغد" تستقبل "حنين" بالأحضان فَعرفت جيداً كيف تُلهي "رغد" بامتياز. لتضع "دنا" القرص بنجاح ثم تفعل ما أمرها به "هشام" في وقتٍ سابقٍ ليُصبح في لمح البصر كافة المعلومات أمام مرمى نظر "هشام" وبقية أفراد "السنابل"!! بما فيهم ملف "مرام"!!!!



الفصل الثالث عشر

إجتماع سابع ولكن على طاولة الطبيب!

الإجتماع السادس..

قُمت بإفتتاحه في فرحٍ بعد إذ سبغتُ من المديح على تخطيط "السنابل" في أرض العمليات بنجاح، وكُنَّا في مرحلة إعلان نصرٍ لكن بعد لحظات إذ بأعلام الفرحة على الوجوه تنتكس والنصر يتبدل بهزيمةٍ غير مُتوقعة بعد إذ رأى "هشام" أن ملف شرائط "مرام" فارغ تمامًا وتم مسح كافة التسجيلات من عليه، وحتى شرائط الكاميرا قد تمَّ محوها! وكأن حينها الأفواه قد تمت خياطتها بإبرةٍ فلا تسمع لها صوتًا ويكأنك في مدينةٍ مهجورةٍ لا يسكنها إلا الماورائيات!

لكن سُرعان ما قُمنّا باللجوء إلى الخُطة الثانية غير المُدبرة إطلاقًا، أحيانًا إضفاء بعض العشوائية قد يؤتي بنتائج مُثمرة لا تتحقق تحت أدهى خُطط التدبير! ولمن لا يعلمه إنه سلاح البركة دون تفكيرٍ ولا حركة!

بعد أربعة وعشرين ساعةً من إجتماعنا السادس، كُنّا قد عقدنا العزم على أن يكون الإجتماع السابع لا على طاولة جريدة التراث! كلا! بل على طاولة العيادة الخاصة بالطبيبة "رغد"! وقد كان!

فبعد إذ دخلت العيادة بصحبة "رفيق" و"نجيب" و"عامر" ونحن مُلثمي الوجه عدا "هشام" فقد وقف بالخارج في سبيل تأمين المكان لنا. وبينما ونحن في خضم الإقتحام فإذ بالسكرتيرة الخاصة بالطبيبة في هلعٍ تستوقفنا، وبعد إذ تمَّ إشهار السلاح في وجهها خُسِفَتْ في قاع الخوف ورقدت ساكنة كظبيٍّ مذبوح، بل كجندي خائن يقف معصوبَ العينين في انتظار أن يهوي قتيلاً رمياً بالرصاص! ثم قام "عامر" بتكميم فمها بشريطٍ لاصق، وكبّل يديها بالحبال الغليظة.

ثم إذ بنا نقتحم مكتب الطبيبة "رغد". فما كان رد فعل المسكينة إلا هلع وفرع يُذيبُ القلب رعباً وهي تستنجد بالعدم ولكن هيهات فما من مُرتحل إلا بعد التحصّل على ما جئنا من أجله. لم يستغرق من الضغط الكثير؛ لكي نتحصّل على ما جئنا من أجله فبعد صولة الخُضوع التي فرضناها، فإذ بالطبيبة "رغد" تنطق أخيراً برصاصات الحقيقة!!

- سوف أخبركم بكل شيء، ولكن أرجوكم لا تؤذونني. كانت "مرام" تتداوى من مرض الإكتئاب والوسواس القهري هنا في عيادتي وقد كانت ما تُخبرني دائماً أن أحدهم يُلاحقها ويُريد زهو روحها؛ لأنّها فضّلت الزواج من "نجيب" عليه.

لُيُقاطِعها "نجيب" وهو مشهراً المُسدّس صوب رأسها.

- وإن كنتِ صادقة لماذا قُمتِ بمحو شرائط التسجيل؟

لتجيب "رغد" وعيناها الوجلة تكاد تُقتلع من مكانها.

- لم أقم بمحوها بنفسِي، فالشخص الذي أرغم "مرام" على الإنتحار قد جاء إلى مكتبي الشخصي وقام بتهديدي تحت سطوة السلاح على محو الشرائط!

ولأن المصائب لا تأتي فرادى فإذ بـ "هشام" يُخبرنا من جهازه اللاسلكي أن سيارة سوداء قد وقفت تماماً أمام العيادة وأن أحدهم بطريقه إلينا.

فسريعاً ما قام "عامر" بإغلاق باب العيادة حتى يظن الطارق أنه ما من أحدٍ بالداخل.

لينفعل "نجيب" في غضبٍ مُستشيطٍ غير مسبوقٍ يكادُ يفوق
البراكين إنفجارًا بعد إذ وضع فوهة المُسدّس تمامًا فوق جبهة الطيبة
"رغد":

- الآن قولي لي أنك قد سجّلتني إقتحامه علي كاميرا المراقبة!

لتصرخ "رغد" وبلا جدوى بعد إذ كانت قليلة الحيلة.

- لا! لقد أمرني بعُنوةٍ على محو البضع ثوانٍ التي تم إلتقاطها له في
كاميرا المراقبة. ولكن كل ما أخبرتني عنه "مرام" أنه كان صديقها
المُقرَّب في المرحلة الجامعية وقالت بأن اسمه "حسين"!

- وبعد سماع التفاصيل التي حكّتها "مرام" لـ "رغد" عن "حسين"
عن عُمره ووصفه وتعليمه فإذ بالنقيب "رفيق" يُطأطئ رأسه في إشارةٍ
مفادها أنه بات يعلم ماذا يتوجَّب عليه فعله في التحريّات!

وبعد إذ خفت إشهار السلاح، واستعادت الطيبة أنفاسها، قام
"هشام" بالدخول بعد إذ رحل صاحب السيارة السوداء بعد إذ طرَّق
الباب ولم يُلبّي أحدهم النداء. فسارع "هشام" بمحو شرائط المراقبة، في

نفس اللحظة التي بادر فيها "نجيب" بتكليم فم الطيبة "رغد". ثم انطلقنا فوراً من المكان كسهمٍ ثاقب.
في إحدى مكاتب التحريات..

وبعد وفقة الإنتباه وتعظيم السلام للنقيب "رفيق" فإذ بصوته يعلوا وهو مُسرّع الخطى:

- قبل إنتهاء هذا اليوم أريد أن يكون هذا المدّنس تحت قبضةٍ من نار في أيدينا!

ليكون الرد هو إذعانٌ فيه سمعٌ وطاعة!!
وبالفعل قُبيل إنتهاء اليوم كانت التحريات قد تعمّق مجراها لتتطابق المواصفات تماماً مع وسيط في تجارة المخدرات وله سجل جنائي لأبأس به من الإجرام بما فيه من هروبٍ من العدالة لكثيرٍ من القضايا مثل السرقة، والشروع في القتل، والإغتصاب. فكان يُدعى "حسين" وكان يعيش في إحدى ضواحي العاصمة. على إثرها تحرّك أسطول من قوات الدفاع المدني وجيشٌ من المجنّدين في سبيل القبض على رجلٍ واحدٍ فقط.

سُرعان ما داهمت عناصر الشرطة محل إقامته وقامت بإحاطة المكان بالمدرعات الحربية في قبضة من حديد، وبعد مُناوشاتٍ وكرٍّ وفرٍّ من قِبَل "حسين" والذي لم يتوقَّع إطلاقًا أن يرى الشرطة تُحاصر بيته بعد إذ ظلَّ قُرابة العامين بعيدًا عن أعينهم، فإذ بـ "حسين" يُقرر أخيرًا بأن يستسلم فإذ به يضع سلاحه أرضًا، ويظهر أخيرًا من مخبئه وَسَط صُراخ من الأهالي يتقطَّعها نحيبٌ يُمزق رباط القلوب. وما إن ظَهَر "حسين" من خلف الأنقاض تمهيدًا لتسليم نفسه واضعًا يده خلف رأسه بعد إحباط غلبه بأنه لا نِجاةَ منهم إلا إليهم فإذ بالنقيب "رفيق" يُطلق النار عليه لتخترق صدره وتذوب الرصاصة في قلبه مُباشرةً دونَ شذرةٍ من عطفٍ أو رحمة، يُسمع كلماته كل من كان يلتفُ من حوله:

- هذه من أجل "مرام" وهكذا تنفَذ فيكَ العَدالة.

ربَّما قد تَمَّ مُعاقبة "رفيق" بعد ذلك من قياداتٍ عُليا بأنه لم يكن عليه أن يُطلق النار ومن أمثال هؤلاء هُم سيادة اللواء "عزت" الذي رأى أن ما فعله يتنافى مع قواعد العمل المهنية التي تنصُّ على حماية المجرم طالما قرر القيام بتسليم نفسه، ورأى أيضًا أنها كانت رُصاصةً غادرةً غير

مُستحقة، ولكن تمَّ تجاوز الأمر؛ لأن "رفيق" كان لديه معارف وسُلطة يستطيعُ منها أن يتخطى المحن بل ويصعد عليها درجات نحو سُلم المنح، فلقد حصل على وسام الشرف بعد إذ قام بتخليص الوطن من إحدى بُؤر الفساد والإجرام على مر تاريخ الوطن الحديث!

فكان الإحتفالُ بتكريم النقيب "رفيق" في مساء اليوم الثاني تحديدًا السابعة مساءً تمامًا حين ميعاد إجتماعنا الثامن، والذي تقرر تأجيله احتفاءً بفردٍ فعَّالٍ في مجموعتنا "السنابل" فكان التكريم تحت قُبَّة شاهقة، وبُصحبة جنودٍ في زيٍّ رسمي تحسَّبهم فيه جمادًا أو تماثيلًا دون حركة فكانوا يُقدِّمون عرضهم الذي تدرَّبوا عليه قديمًا فُرابة الثلاثة أشهر.

تلا ذلك مراسم إحتفالية عظيمة جرى فيها تقديم النقيب "رفيق" ومنحه وسامًا شرفيًا تقديرًا لمجهوداته وسط صيحات تُنادي باسمه وحشودٍ غفيرة تُصَفِّق الأيادي له في تبجيلٍ غلب حدَّ التقديس.

لتنتهي مراسم التكريم والبسمة على وجه "رفيق" ما زالت في عينيه فكانت إحداهنَّ تنتظر ولو على سبيل التمني أن يُبادهنَّ نظرات اللفهة

التي تُبحر في عينيها ولكن هيهات فلقد كان رزينا للغاية لا تُحرّكه نزوة
ولا شهوة، ولا تتساقط التدابير عن تخطيطاته سهوةً.

حتى خرجتُ من حفل التكريم فإذ بالسما غارقةً في سوادٍ يتخلله
نجومٌ مُتراسة على جلد السماء. ينتهي اليوم بالنوم حين يُقبل ستار الليل
بالتخيم.

إلا للمُحبين فالיום يبدأ بهم ولا ينتهي إلا بعد أن يُؤذن له بالرحيل
مع آخر رسائل الوداع ما قبل النوم. فقد قامت "حبيبة" بدعوتي إلى
منزلها كي نتناقش في ترتيبات الزواج بينما نحن على طاولة العشاء، فقد
رأت أنه لا حاجة للتأخير خصوصاً وأننا نعرف بعضنا من قبل، ولا
داعي للانتظار.

وبالفعل خطوتُ نحو منزلها، فاستقبلتني حتى دون أن أقرع
الجرس، فقالت.

- لقد تخليت من اللهفة أن حبّات الساعة الرملية قد كانت تهوي
بثقلٍ وبطئٍ شديدين، ولكن سرعان ما رأيت وجهك فإن ساعة الرمال
تلك صارت حباتها تسقط ككرةٍ ثلجية من أعلى جبلٍ صلدٍ.

فسُرعان ما دخلت لأجد والدها السيد "مُختار" وابنته "وردة" المتبقية له بجانب شقيقتها الكبرى "حبّية" بعد إذ رحلت والدتهما منذ زمنٍ غابرٍ. تناولنا وجبة العشاء على مائدة تحت شموعٍ خافتة كانت من إعداد وترتيب زوجتي المستقبلية "حبّية". لم يكن بالإمكان أن أكون مُمتنًا وشاكراً بما فيه الكفاية لما وهبتُ إياه من امرأةٍ لو وُضعت في كَفّة ونساء العالمين في كَفّةٍ أخرى لرجحت كَفّتها عليهم أجمعين! الحياة قد أعطتني الكثير، أكثر مما راودني فيه خيالي يوماً دون طوعٍ أو منطِقٍ.

هى تخافُ في خُفْيَةٍ ألا تستطيع أن تكون سَنَدُهُ كما ينبغي، وهو الذي يتمنّى لو فقط يجتمع اسمه باسمها لأول مرةٍ بعد إذ رُزِقَ حُبّها. تعاهدنا سوياً أن تُصَلّي قلوبنا في محراب المودة، وأن تتغمدنا نفحات القدسية فتشرُّ رذاذها المقدس من فوق القلوبِ نثراً. حينما اقتربت منها رأيتهَا مثلي تماماً تخفي وجهها خلف ستار من الخجل إنها أنا!



الفصل الرابع عشر

الإيفاء بالعهد متعة لا يعرفها الخائفون!

في الساعات الأولى من الصباح كانت السماء مُلبَّدة بغيوم كثيفة، وكأنَّ الجو يحاوطه لونٌ رمادي داكن ويبدو أننا كُنَّا على وشك هطول أمطار غزيرةٍ غير مسبوقة. سُرعان ما اشتدت سرعة الرياح فصار السحابُ يتبدَّل وجهه ويتغير شكله كأنه موجٌ مُتراقصٌ على الشاطئ. كان الوقت قد حان للنهوض من على الفراش في سبيل تحضيرات ما قبل الذهاب للعمل، وبعد إذ تناولت وَجبة الفُطور فإذا بالهاتف يشرع بالرنين فقُمت بالرد:

- مرحبًا، هُنا "ريان مالِك" من معي؟

فإذ بصوتٍ غليظٍ أغلب الظن أنَّه مُتصنَّع ليس بصوته الحقيقي:

- لسنا في حاجة للتعارف! أنصت لي جيدًا فإن حياتك على المحك

إن لم تتوقف للتخطيط عمَّا تُريد فعله، حياتك، حياة "حُور"، جميع من

تعرفهم سوف يُسجنوا في حُدقةِ الموت وما هُم بخارجين منها إلا
مسلوبي الروح كجُثة هامدة!

ليتم إغلاق المكالمة، وإغلاق الخط بالكامل، وقلبي يرتجف في إهتزازٍ
مدوي لم أستطع إحكام قبضتي عليه إلا بعدَ فترة ليست بوجيزة. لكن
الأمر الجيد هو أنني تأكدت تمامًا أن في المجموعة خائنٌ بيننا؛ لأنه ما من
أحدٍ غيرهم يعرف بأن اسم خطيبي هو "حُور" لا "حبيبة"

والآن قد حان الوقت لتدبير مصيدة لايقاعه فيها. فتبادر في ذهني
أمرًا لا بأس به سوف يحدثُ مباشرةً لفضحه في الاجتماع الثامن!
حين شرعت الساعة السابعة بالقدوم كان الليلُ مُظلمًا مُخيفًا فلا
يجوبُ أحدًا الشارع فكان خاويًا من المارة من شدة البرودة فكان الليلُ
معقلٍ التدبير، وفيه غياهب التفكير. حتى اكتمل جميع أفراد "السنابل"
بالمجيء.

الاجتماع الثامن..

مرحبًا بكم لقد شارفنا إلى تحقيق العدالة في كل المجرمين الذين
سَلَبوا منَّا عزيز ما نملك فكما رأينا جميعًا لقد تمَّ أخذ القصاص منَّ

قَتَلت "مريم" فكان الجزءء من مثل ما فعلت بمريم بالضبط وهو الغرق،

وكما رأينا "حسين" وهو يُلاقِي المصير الذي أجَبَر "مرام" على الإنتحار جراء تهديداته لها بعد تفضيلها الزواج منك يا "نجيب" عليه،
الآن تبقى تحقيق العدالة فيمن قتلوا ابن "عامر"، ولكن قبل ذلك
يؤسفني القول أنه من بيننا نحن الستة هناك خائنٌ يجلسُ بيننا. تعلمون
جميعاً بأن الخائن في أرضِ المعركة مصيره الإعدام، أيضاً يقولون بأن
الخائن حين يُحاول سد ثغرات خيانتته فإنه يلجأ إلى أمور غاية في التعقيد؛
لأنه يتوقع ممن يتحرى وراءه أن يلهث وراء التفاصيل المعقدة، فماذا لو
كان الأمر أبسط من ذلك، أبسط بكثيرٍ، وكان الاستدلال على الخائن لا
يحتاج للتطرق إلى تلك إلتواءات وحبكات مُعقدة!

في البداية دعونا أولاً نحاول الإتصال بصاحب الرقم الذي تمت
مُهاففتي منه اليوم لعلنا نستدل منه على أثرٍ، فإذ بالهاتف يرنّ ثم إذ
بصوتٍ ما في غُرقة العمليات يُسمع صوته من خلفٍ عازِلٍ ما، فُقمت
بتحسس حقيبة "هشام" فإذ بي أجد الهاتف يقوم بالرنين، هو الخط الذي

تمَّ تهديدي من عليه! لم يقدر "هشام" على الإنكار فكأن لسانه قام بتكيله بأصفادٍ مُحْدَرَة مُفْقَدَة إِيَّاهُ النُّطْق. فكانت صدمة بالنسبة لي أن تأتي الطعنة مِّن وثقت بهم يوماً فقد كان "هشام" من أقرب من كانوا لي يوماً. لتكون حقائق الأشخاص من حولنا هي شמוש لا تغيب. قد تنكشف، ويحتجب النُّور لِبُرْهَةٍ. لكن حالما تتبدد غيوم الغموض، وتُرفع سطوة الكسوف، وقتها سيسود النور، ومعه فقط يُسْتَبان سبيل حقائق مَن حولنا. فتذكّرت كيف كان مشهد إغتيال "يوليوس قيصر" مُهيباً، ذلك الإنسان في المقام الأول قبل كونه إمبراطوراً، قد خانه كل من وثق فيهم يوماً، تجمّعوا من حوله، وطعنوه في سائر أنحاء جسده إلا أنه وقف صامداً، ولم يسقط، وكأن إسقاطه أرضاً كان يستدعي أكبر من تجمّع لحفنةٍ من الخائنين المرتزقة ناكثي العهد. ليظهر فيما بعد صديق عمره "بروتوس" من وسط بركة الدماء القائمة. حتى ظن "يوليوس" أنه قد جاء ليُنقذه من هؤلاء الخونة، وأن هذا العرض الإجرامي على وشك الانتهاء، إلا وأن "بروتوس" إقترَب منه وطعنه هو الآخر بخنجره ليقول "يوليوس" كلمته الشهيرة "حتى أنت يا "بروتوس" .. إذاً

فَلَيُمْتُ "قيصر". هُنا فقط سقط "يوليوس قيصر" أرضاً، سقط لأنه لم يطعنه في جسده قدر ما طَعَنَهُ في كبريائه، في ثقته، في عزة نفسه. هكذا إرتضى بالسقوط بعد إذ كانت الطعنة ممن عبروا الجسر نحو ذاته، ووثق فيهم حدَّ الموت!

وأنا وثقت فيك حدَّ الموت يا "هشام" لم تتوقع أن ينفضح أمرُك من ثغرة بسيطة كهذه، هكذا هم المجرمون لا يعلمون أن أمرهم سينفضح من أبسط الثغرات التي لم يُعَيروا لها إنتباهًا. مازال "هشام" في صمته المُخجل المُخزي فتستعري منه الكلمات حتى تُحافظ على شرفها من الخيانة وألا تُستخدم في الدفاع عنه بكلمةٍ سمحةٍ جائزة أمام محكمة عدلنا الجائرة!

طلبَ "هشام" تسليم نفسه وعينه تتكسُّ أرضاً، وعلى إثرها تمَّ فض الاجتماع وقام النقيب "رفيق" بسحبهِ إلى سرايا النيابة العامة. من المؤسف أنه سوف يظل فقط لبضع أيام في الحبس ثم يخرج؛ لأنه ما من تهمَةٍ مثبتةٍ عليه، فنشاط "السنابل" هو خارج عن سيطرة القيادات الأمنية ولا يعلم بأمره إلا المنضمين إليه، وكُنَّا نخاف أن يُفضح أمرنا من قِبَل "هشام" فقررنا أن نبرم معه صفقة.

- سوف تُسجن لثلاثة أيامٍ في سبيل الإنتهاء من تحقيق العدالة لجميع أفراد "السنابل" ثم نُطلق سراحك! فلا أنت تعلم لسبيلنا وجهة ولا نحن نتبّعك!!

- لكم ما أردتم ولكن إن استمر الحبس فسوف أفشي سر هذه "السنابل" أسمعتموني!!!

سُرعان ما قام النقيب "رفيق" بسحب "هشام" إلى سرايا النيابة العامة وقد حرصت على مرافقته إلى هناك فكانت المرة الأولى التي تخطوا فيها قدماي إلى هناك وبينما كان يتم إجراء محضرٍ مفبركٍ له تجوّلت في إحدى الأروقة، ودار بيني وبين إحدى القيادات هناك نقاشات خفيفة، وسُرعان ما مضى الوقت سريعاً، وخرج النقيب "رفيق" سريعاً بصُحبة "هشام" ويدها مُكبّلة بالأصفاد ليتم إيداعه بالسجن في نهاية المطاف. فدار بيني وبين النقيب "رفيق" بعض النقاشات الخفيفة

- أمامنا ثلاثة أيام قبل أن يخرج "هشام" ولن يتم تجديد المدة لعدم وجود أدلة ضده، وحين يخرج من المؤكد أنه سيكون واشياً بكل شيء لمن أرسله!

- لا تقلق يا "رفيق" هذه أطول بكثير من المدة المطلوبة لإتمام كل شئ.

- وعلى ماذا سوف ترسي شراع سفيتك؟

- لن ترسي إلا والعدل يتحقق فوق كل ظالمٍ.

- وماذا وإن غرقت سفيتك في عرض البحر، لن تجد من ينتشلك وستغرق وحيداً.

- المجازفة مطلوبة، ومن دون المجازفة تصير الحياة سقيمة حد الملل، لكل شيء ثمن، وأياً كان الثمن فلقد سبق وقررت فأما من قتل ولد "عامر" فسوف يُلاقي الجزاء ذاته، وأما من قتل أبي وأخي فإن المصير ذاته سوف يتشاركه، وربما يقولون إن المساواة في الظلم فُجِّر، ولكن بالنسبة لي المساواة في الظلم هي قمة العدل هكذا يسود القصاص، وهكذا تتحقق العدالة. لتنتهي المحادثة بيننا، ولكن تظل العقول في حيرةٍ حيال القادم.

على الأقل كان لزاماً عليّ العودة للمنزل بأقصى سرعة؛ لأن الطقس كان أشبه بالسقيع، فكادت قدماي تتجمد كأنها لوحٌ ثلجي، وعلى الفور

غادرت سرايا النياية في طريقي إلى البيت، لينتهي اليوم دون مُفاجأتٍ أخرى، فبعد العودة بسلامٍ إلى المنزل قُمت بوضع المفاتيح على المنضدة وخلدتُ إلى النوم قُرابة الاثنتي عشرة ساعةً فلم يوقظني إلا حرّ الشمس. وحالما استيقظت وجدت أكثر من ثمانية وخمسين مُكاملة فائتة من "حبيبة" فيبدو أنني قد أخذت كفايتي من النوم، لكن سُرعان ما نهضت وقُمت بمُعاودة الإتصال بـ "حبيبة" لأجد هاتفها غيرٍ مُتاح! وفي لمحِ البصر كُنت قد إرتديت ملابسِي مُطلقاً فيما بعد بأقصى سُرعتي إلى منزل "حبيبة" لأقرع الجرس فيفتح لي سيدة في الخمسين من العمر فتراجعتُ قليلاً في فزعٍ ظناً مني أنها والدتها المُتوفية، ليتبين فيما بعد أنها عمّتها، وأن "حبيبة" قد قامت بمُهافتي؛ لأن والدها السيد "مُختار" في وعكةٍ صحيّة، وحين دخلت رأيت الطبيب يجلس عن يمين السيد "مُختار" ويؤكد على شقيقته السيدة "زينب" بعض النصائح للتداوي سريعاً. فوقفتُ عن يمينه بينما هو مُستلقي على السرير:

- اجلس يا بُني! وأنتِ أيضًا يا "حبيبة" اجلسي.

ثم أردف قائلاً:

- أنا استشعر كما لو كنت في آخر أيامي وأن هذه بدايات سكرة الموت، لست خائفاً فحين أموت سوف أرى زوجتي حبيبتي من جديد. أما الآن أنتما أيها الشباب اليافعان لا بُد وأن أرى زفافكما قبل رحيلي، هذه أمنيّتي الأخيرة يا "ريّان" فلا تحرمني منها، فالموت يا حبيبي لا يستأذن قبل طرّقه على أبواب القلوب، هو يقتحم دون سابق إنذار. أرى أن تتوكلا على الله وأن يتم الزفاف غداً فأنت ما شاء الله لديك شقة والدك، ولا بأس أن تستكملا حياتكما فيها في أمان وسلام حتى يأذن الله بواحدةٍ خيرٍ منها.

لم يكن السيد "مُختار" يُدرك عن طبيعة المُعترك الذي أخوضه هذه الأيام، وهكذا قد تمّ وضعي بين شقي الرُحى، فإن طلبت التأجيل فما سيظهر هو أنني أتهرّب وعواقب ذلك لن أتحمل العيش معها ليومين مُتتابعين بعد إذ تهجرني "حبيبة"؛ لأنها ستري أنه ما من داعي للتأخير إلا إذا كنت أتهرّب. وعلى صعيدٍ آخر إن وافقت فإني هكذا أضع "حبيبة" في مهب الريح فمن يُحرّك "هشام" بالتأكيد سيلاحقني، ولن يتركني أمضي بسلام. فقررت المجازفة من جديد على تمّني أن يكون

إختياري هو الصحيح بلا رجعة ولا ندم. وبعد تدبيرٍ لكافة الأمور المادية، وغيرها اقترح والدها على أن يكون الزفاف غدًا، لكن بالنسبة لي كان مُستحيلاً فطلبت منه أن يتم تأجيل الميعاد لبعد ثلاثة أيام تحت ذريعة أن المنزل الجديد في حاجة لبعض تجهيزات الزواج. وبعد الموافقة توقّف قلبي عن الارتعاش واستعدت أنفاسي، لأتحرك فيما بعد إلى مقر الجريدة في العاصمة، وحين وصلت كانت "ريهام" وافقةً في انتظاري فكأن شئ ما في صدرها توذُّ إخباري به. فدخلت المكتب ولاحقتني من خلفي، وحين جلستُ قالت:

- مَرحبًا سيد "ريّان" لقد قام أحدهم بإرسال هذا المَظروف إلى عنوان الجريدة وتم كتابة اسمك عليه من الخارج.

أشرتُ بيدي على المظروف بأن تتركه على المكتب ثم تمضي رحيلا لإتمام بقية عملها. وكأنني لا أبالي لأمر المظروف، فقامت بفعل ما أمرتها إياه، وما إن خرجت قُمت بفتح المظروف وقراءة الرسالة على الفور فكانت

- "لقد وصلت إلى مُنعطفٍ من يدخل لا يخرج، إلا اللهم على قبره!
انسحب قبلما تُسحب وإلا سوف ندّعك تخسر كل شيء بنفسك، وأنت
من ستدمر نفسك بنفسك، وفي الأخير نحن من نربح بعدما تخسر كل
شيء تملكه.

لم يكن لدي أدنى فكرة حيال ما يُمكن فعله، لقد تاهت عني الأفكار
كشاهٍ ضالة عن القطيع. فكّرت كثيرًا في التخلي عمّا أريد تحقيقه وذلك
سيطلب فض "السبع سنابل" ولكن كلما رأيت أن النهاية قريبة كنت
أشدّ ثبوتًا لما هو قادم. حسّمت قرارى مُجددًا، وإن كان فيه توضّحيات
كثيرة،

قلتُ سابقًا هي حرب، وفي الحرب مهما بلغت التوضّحيات ذروتها ما
يهمُّ في الأخير هو الظفر بالفوز! والفوز هو تحقيق العدالة لمن رحل دون
استحقاق الرحيل. لكن تذكّر لا يُمكنك الفوز بكل شيء"

هي أولويات وأتمنى أن أكون جمّعت ترتيبها بالتسلسل الذي لن
يؤرق ضميري فيما بعد إن كانت عواقبه ليس مُرضية. أظن أن الوقت قد
حان لمواجهة المصير الذي سطرته بنفسى، ولكن ليكن مبدأ "السنابل"

كما اتفقنا أن نُنهي تحقيق العدالة فيمن قتل ابن "عامر" لتمضي الساعة
فتصيرُ السابعة مساءً فيحين الاجتماع التاسع.

- مَرَحَبًا بكم جميع أفراد "السنابل" الآن نحن بصدد التوصل إلى من
خَطَفُوا ابنك وقتلوه، المهمة الآن غاية في الصعوبة لأننا نواجه تشكيل
عصابي مُسلَّح، وهؤلاء ليس لنا عليهم سبيلًا، ولكن دائمًا يستتر وراء
كل جريمة مُنفذ ومُحرَّض؛ ولأننا لن نقدر على المُنفذ فسوف نستهدف
المُحرَّض.

لتحين كلمة النقيب "رفيق".

- لا بأس نستهدف المُحرَّض ومنه نستدل على المُنفذ هذا ما يُسمى
بالقرينة وهو الاستدلال على أمر مجهول من أمرٍ معلوم، معكم بكل قوتي
في هذه المهمة.

وحين حانت كلمة الطيبة "حنين".

- دعونا نتكلم بواقعية نحن الآن أمام طرفين مجهولين، على فرضٍ
بأن المُحرَّض ليس هو المُنفذ؛ لأنه واردٌ جدًا أن يكون الإثنان طرف
واحد، وحينها لن نصمد أمام تشكيل عصابي إرهابي مُسلَّح.

ليتداخل معنا "نجيب" على نفس الخط:

- لتحديد إذا ما كان المُحرّض هو المُنفذ أم لا يتوقف هذا في تحديده عليك يا "عامر". هل كُنْ لديك عداوات أو ما شابه ذلك مع من كانوا يُجاوِظونك؟

ليكون الرد من عامر

- بلى! كُنْتُ أملك واحدًا وهو المهندس "صفوت" فقد كان يُضِـر لي عداوة شديدة بعد إذ تَمَّت ترقيتي عليه في عملنا محطة الكهرباء.

ليتداخل النقيب "رفيق" مُجددًا

- ألا يُمكنك إخبارنا المزيد عنه؟ حياته الشخصية، مواقف عنه، حياته الزوجية، هل هو معك فقط هكذا أم مع الكل؟ وبالتأكيد زيادةً على ما ستقوله سوف نتحرى عنه بما إنه صار رسميًا مُشتبهًا به.

لتُلَمَح نظرات تفاهُم مُتبادلة بين النقيب "رفيق" و"عامر" وعلى إثرها كان الرد من "عامر":

- "صفوت" زميلي في العمل مُنذ أربعة سنوات لم يسبق وأن تآلَفَت أرواحنا يومًا. يومَ تَمَّت ترقيتي إلى مُسؤولٍ فهُنا تَقَلَّبَت عليه مواجع

النقص وصار ينظر إليَّ بعين من الحقدِ والنُفور. لم ألتفت له كثيرًا؛ لأنني لم أتوقع أن الضغينة المتأججة في صدره قد تدفعه إلى إلحاق الأذى بي وبعائلي.

ليلة مقتل "يوسف" كنت قد أجلسته على قدمي وقُمت بسرد بعض النصائح على مسامعه لو كنت أعلم أنها اللحظة الأخيرة كانت ستفرق كثيرًا، لو كنت مُطلِّعًا على الغيب لكنت ضممته إلى صدري فلا يسرقه الموت وهو بين أحضاني غدًا وعدوانًا. جلس صغيري بين أحضاني.

أي بُني.. إن خفت أن تحيفَ يوماً بظلمٍ فانسحب قبلما تُسحبَ فلا تعود مثلما السابق.

أي بُني.. لا تتوسَّل بُغيَّة عيشٍ رَغِدٍ ولكن سلِّ الله القوَّة وأنت في خضم المعركة.

أي بُني.. الدنيا نبْضُ البلاء، وعين الشقاء. فلا تغلبنك نفسك فتشقى، ولا تركن غافلاً كيلا تستفقد إلا وأنت في غمرات الموت تهوى.

أي بُني.. الفِطنة معقلُ الذكاءِ، وليس الذكي من مَشى بين قومِهِ
مُحتالاً بذكاءه، وإنما الذكي من كان مُتغابياً بإختياله.
أي بُني.. الدُّنيا كمثُل بريق تحسبه ذهبَ وحين تظن أنك قد ملكته
بيمينك تجده قد ذهبَ.

أي بُني.. الدُّنيا كمثُل قطرة ماءٍ في خضمٍ مُحيط فامدّد يدك بسببٍ إلى
المُحيط واسحبها فانظر هل إغترفَ بَنائكُ بشيءٍ وقطراتُ الماء تنسابُ
منه؟

فيا بُني لا تُصاهرِ بني السوء فتهلك، وخالط بني الحُسن فنفسُك بين
أيديهم تَمَلِّك.

أي بُني.. حين تُصادف جاهلاً فلا تُجادل يا بُني وقُل سلام فهكذا
علّمني ربي وربُّك.

أي بُني.. تعوّد على أن تُلمِمَ جراحَكَ وتُنيرُ مصباحَكَ، وتمسحُ دمع
عينيك بنفسك، ولا يعلوا سقفَ طموحاتك بالآخرين فيسقط.. على
رأسِكَ.

فكانت نصائحى الأخيرة ولم أعلم أنها وصايا ما قبل موته، بالمناسبة "صفوت" غير مُتزوج؛ لأنه إن تمَّ تخيير امرأة بالزواج منه على أن تجلس بجانب الصَّبَّار في حرِّ الشمس طيلة العُمر لفاضلت المكوث فوق الصَّبَّار نفسه على أن تصير هى وهو كيانًا واحدًا.

لتقاطعه "دنا" بعد كل هذه التفاصيل بينما تتناها علامات من الدهشة مُرسمة على وجهها:

- الدوافع واضحة للغاية يا مُهندس "عامر"! لا تُخبرني أنك لم تذكر كل هذه التفاصيل في تحقيق النيابة!

ليخبوا النور في عين "عامر" بعد إحباطٍ مُتطرف بلغ عَنان وجهه:
- لا! بل تم أخذ جميع أقوالى، ولكن بعد التحريّات والتحقيق مع "صفوت" قيل لي بأنه ليس مُشتبهًا فيه بعد اليوم لعدم وجود أي دليل ضده!

ليتسائل النقيب "رفيق" عن المسئول في هذه القضية ليكون الرد من "عامر"

- سيادة اللواء "عزت"!

لينفعل النقيب "رفيق"؛ لأن هذا العجوز يُضمر حقًا مكنونًا له،
علاوةً على ذلك كما قال فيما بعد.

- هذا العجوز الطاعن في السن ننتظر تقاعده بفارغ الصبر، فهو لم
يعد يقدر على مهام العمل، ولا يقوى على مُتطلباته المُستعصية علينا
نحن فما بالك وهى عليه! للأسف سوف نُعيد فَتْح القضية من جديد،
وسوف نتقصى صغائر التفاصيل من جديد!

وبعد إتفاقٍ منّا على أن يكون المهندس "صفوت" هو محطة
الاستهداف الأولى، وبعد إذ قام النقيب "رفيق" بتوليّ مسؤولية هذه
المهمة. حان الوقت لفُضّ الاجتماع.

وبعد إذ رحل الجميع استوفقت النقيب "رفيق" فدار بيني وبينه
مُحادثة دارت حول تلك الرسالة التي تُهددني في عُقر مكتبي فقال في لُكنةٍ
حازمة:

- ومن يجراً على أن يُلحق بك الأذى وأنا موجود! دعه يقتربُ منك
وسيكون آخر يومٍ تشهده روحه.

فما كان جوابي إلا إبتسامة مُنتعشة يعترىها صمت يرتعش خجلاً،
وإن كان في الصَّمْتِ كلماتٍ لا يقوى الفمُّ على خروجها منه من مقدار
المشاعر الفائحة من رائحتها! ولكن سريعا ما تطرقت إلى موضوعٍ آخر.
- ماذا عن المهندس "صفوت"؟ كُنت أَسْأَل هل من العادي أن
ينفلت أحدهم من قبضة القانون حتى لو كان مُجرماً؟

- بكل تأكيد، في الواقع قد تُصادفنا قضايا يكون الجاني فيها هو من
يُبَلِّغ الشرطة مُستتراً خلف رداء الذئب البرئ! ثم تظن بعد ذلك أن
شخص بالموصفات سالفة الذكر ليس بمشتبه به. دع هذا الأمر لي أنا
أعرف تماماً ما يتوجَّب عليَّ فعله تجاه ذلك.

ليتم إنهاء الحوار بمُصافحة حارة، فخرج بعد ذلك النقيب "رفيق"
من طاولة الإجتماع ثم عاودت الجلوس بمُفردي على المكتب من جديد،
حتى مالت رأسي بالكامل على سطح المكتب، وغرقت في بحرٍ من الحيرة
فسريعا ما لامستُ قاعه بالغرق في سُباتٍ عميق فلم يوقظني أحدٌ إلا
"ريهام" وهى تستأذن الرحيل إذا ما أردت شيئا آخرًا منها؛ لأنهمض

مُرتعدًا، ولكن لم يمضِ من الوقتِ كثيرًا إلا وكنْتُ آويا إلى بيتي أنا
الآخر للنومِ في سبيلِ الهرب من مآسي الواقع.

وبينما كنَّا في جوف الليل حيث السماء غارقة في حلكةٍ سوداويةٍ فاذا
بالهاتف يصدح بالرنين. فكان كفيلاً بأن يخسف بقلبي فزعًا وهلعًا،
فتمنيت لو أنَّي متُّ قبل هذا، ولكن ما لهروبٍ من سبيلٍ إن وقع الاختيار
علينا وصِرنا والمصائب تحت مظلةٍ واحدةٍ نشارك المصير ذاته. فكان
المتصل هو النقيب "رفيق" لأضع الهاتف على أذني وأتمنَّى بأن يُصيبنني
منه بشارة خير في تلك الساعة المظلمة.

- مَرَحَبًا "ريَّان" يتوجَّب أن تلتمس لي العذر لإيقاظك في تلك
الساعة المتأخرة، ولكن لدي نبأ لك سيطوف بك في أعالي الفردوس!
لم أتمالك نفسي لسماع الخبر فكان صدقًا هذا ما يُلازم هاجسي بأن
أستمع لخبرٍ ينفض قتر الهم وغبر الغم عن صدري، وفي لهفةٍ بلغت
طبقات صوتي الخاضعة

- أخبرني رجاء!

- لقد تَمَّت التحريّات مع المهندس "صفوت" وكالعادة أنكر معرفته بكل شيء، حتى أنكر معرفته بشخصٍ يُدعى "عامر" ولكن بعد إذ تحرينا في منزله وجدنا أداة الجريمة في حديقة منزله وهى نصل سكاني حاد تم دفنه في بطن التراب وحين مُقارنة فصيلة الدم التي على سطحها بفصيلة دم "يوسف" اتضح تطابقهما!! وليس هذا ما لدينا فحسب بل إن زاوية القطع في عنق "يوسف" تمت مُحاكاتها بنفس النصل السكاني!! بالإضافة أن المهندس "صفوت" أعسر يمسك الأشياء باليد اليسرى فكانت زاوية الجرح مؤشراً هاماً بأن من قام بقتله قام باستخدام يده اليسرى. الآن تظل هذه أسرار تحت ظلال مكتب التحقيق. إن تمّ تنفيذ العدالة فيه فإن حُكم الإعدام سوف يطول وربما يتم تخفيف العقوبة فلا تصل لحدّ الإعدام، ولكن هنالك حلٌ آخر يُمكنني الآن إطلاق سراحه على مُعاودة استئناف التحقيق في الصباح الباكر خصوصاً أنني لم أواجهه بعد بالأدلة الجديدة فلن يهرب حتى لا يُثير الشبهات حوله. وبينما هو في طريقه للمنزل نرصد له كمين فلا يخرج منه إلا على قبره.

كُنت في أوج سعادتي فطلبت منه أن يقوم بتأخيرهِ بعض الشيء؛
لترتيب عدالة تستحق لقتله الصغير "يُوسُف"، فقامت بإغلاق الخط
على انتظار الإتصال به من جديد حين تكتمل المصيدة التي سُدَّ بِرَ له.
لحظات وكُنت في إتصالٍ هاتفي مع "عامر" طالبًا منه بأن يستفيق من
سكرة نومه هذه وأن ينصت لي بحرصٍ!

- الآن سوف يتم أخذ القصاص فيمن قتل "يُوسُف" .. في المهندس
"صفوت".

لتدوب ملامح النوم عن "عامر" والحسرة في صوته تقول:
- لقد أخبرتهم من قبل، ولكن لم يصدقوني. كُنت أعلم أنه هو،
فإحساسي وبصيرتي أبدًا لا تكذب.
وفي سبيل طمأنته حيال القادم.

- لقد حان الخلاص يا صديقي، وحان الوقت لأخذ القصاص
فيمن قتل ابنك بالطريقة التي قتله بها! استعد فالمهمة لا بُد وأن تنقضي
قبل وضح النهار. فسوف يتم إعداد كمين له بينما هو خارجٌ من التحقيق

الآن، تمامًا متى تُعطى "رفيق" الإشارة. تُمّ بالاتصال بـ "نجيب" فإننا سوف نحتاجه معنا، وبعد قليل سوف أُعطيك إشارة الإنطلاق، إلى اللقاء.

لحظات وكُنْتُ على أهبة الاستعداد ليحين الوقت لصافرة التخطيط بالإنطلاق بعد إذ طَلَبْتُ من "رفيق" بأن يخلي سراحه إلى بيته، وأيضًا طَلَبْتُ منه بأن يُغلق المدخل الذي يسوقه إلى الضواحي؛ كي يضطر أن يأخذ طريقًا صحراويًا فلا يجد لمهربٍ منه هُناك، وهو منبوذٌ بالعراء في الطريق بمُفرده. وبعد عدة دقائق كان "عامر" قد مرَّ على منزلي بِصُحبة "نجيب" بعد إذ طلبت منه وهو قادم بعض الأسلاك الشائكة فما كان منه إلا وأن ذهب للمدرسة المُجاورة لبيته وقام بنزع الأسياج الشائكة عن سور المدرسة بمُساعدة من بعض المُعدات الآلية! ليمضي بها في حذرٍ، وهو يتلوا صلوات الشُكر؛ لأنه من غير وضع الأسياج الشائكة لكان المُخطط سييؤء بالفشل! وكما ذكر لاحقًا.

- أمضيت ثلث عمري في المدرسة وهذه المرّة الأولى التي أجد منها

فائدة حقيقية!

ليمضي ثلاثتنا سويًا إلى الطريق الصحراوي وعند الجهة المختارة قُمنَا
بفرش عرض الطريق بالأسلاك الشائكة، وأخذنا رُكْنَا فما هي إلا
لحظات وكانت سيارة "صفوت" تمرُّ من أمامنا ثم فجأة إذ بإطارات
السيارة تنفجر بعد إذ خطت بإمتياز على الأسوار الشائكة فتعيد سيارته
على إثرها إلى أقصى اليمين. فيغدو من بعيدٍ عاجزًا تمامًا عن الحركة.
لنقترب في حذرٍ من السيارة فما وجدنا "صفوت" إلا غارقًا في دمه،
ونصف فاقد للوعي فيفتح نصف عينيه، ولا يكاد يرى من أمامه، ثم
تكلم وجبهته تتندى بالدماء!!

- حمدلله! ظننت أنني بمفردي على الطريق! لقد جئتم عونًا لي من
السماء! ساعدوني!

ليضحك "عامر" كما لو لم يضحك من قبل، فقد كانت نار الثأر
تنهش في قلبه نهشًا، وتؤزّه شياطين عقله أزا. فعيناه كانت تلفح بسوادٍ لم
أرى يومًا مثيلًا له طيلة حياتي! فقام بسحبهِ على الأرض وقام بسفك
دماءه بالسكين كما فعل تمامًا في ابنه وسط صُراخ واستنجاد لا يجد له من

يستنصره بعد اليوم، فلقد كُتب مصيره بنفسه وما يجنيه هو نتائج كانت
من عواقب إختياره الذي لم يُجبره أحدٌ على فعله سوى نفسه الشيطانية
المريدة، فالآن يصيبه بعض الذي كتبه على نفسه. فلا شفقة ولا رحمة لمن
تجسّد في صورة الشيطان الأعظم ظناً منه أنه لن يدفع ثمن ما جناه على
نفسه، ولكن اليوم آتٍ، وما من مهربٍ لمصيره، ولو إختبئ صاحبه في
جُحرٍ ضَب!

وبعد إتمام المهمة بنجاحٍ باهر غادرنا مسرح الجريمة كما هو وركبنا
السيارة والمذيع يُردد

فإن ضاق الخَطْبُ فلا تأسى
فما يلي العُسر إلا يُسرًا

وإن طغى الإِظلام في حلكته
فلن يطول ليل الدُجى سرمدًا

ولنا في نورٍ من الله موعدٌ
فالصُّبح آتٍ وسينفرجُ تنفُّساً

وفي طريق عودتنا كُنْتُ قد هانفت " رفيق " حاملاً إليه البشارة بأن
المهمّة قد تمّ تنفيذها بنجاح، بعد إذ حَقَّت كلمة العدالة على قاتل
"يُوسُف" .

فما كان جوابه إلا أن قال

- أخيراً، لقد طال هذا اليوم لكي يأتي!

فقمت بإختتام المُكالمة الهاتفية معه بأنه في تمام السابعة مساءً هنالك
الإجتماع العاشر في سبيل إتمام المهمّة الأخيرة، وهي تحقيق العدالة لي
فيمن قتل أبي وأخي .. مهما كانت العواقب !!!



الفصل الخامس عشر

مفترق الطرقات!

حين وصلت إلى باب البيت كان تحت أقدامي مطروف آخر مُلَطَّخًا بالدماء. وبعد إذ إنتشلتته من على الأرض بأطراف أصابعي فإذ الرسالة تمّت كتابتها بروح ضارية إنتقامية!

- يُمكنك إعتبار هذه الرسالة بمثابة التحذير الأخير، فلقد قدّمتنا النصح ولكنك لا تحب الناصحين. لكن صدقني طوق النجاة الذي تحتمي به الآن لن تجده ليتشّلك من كبوتك لاحقًا، القاع سوف يترقّب وصولك بأبواب غير مؤصّدة سيد "ريّان"! كل مُحاولاتك البائسة في تحقيق العدالة والإنتقام ممّن قتل أبيك وأخيك لن تطول أحدًا في الخسائر سواك، وستضيع رمال أمانيك سُدى على شاطئ الفقد والفجيعة. فكّر فيما تملك، فيما ستخسره، المُجازفة لن تصنع منك بطلاً بل سينقلب ضدك كل من أسبغوا من المديح عليك يومًا وسيقذفوك بأشنع الألفاظ؛ لأنك ستصبح وصمة عار عليهم؛ لأنك أناني، لا تُفكّر إلا في مصلحتك

وفقط، ولا تُبالي إن كان المقابل من هاجسك في تحقيق العدالة هو تضحية بأقرب من إليك. أمامنا لن تصمد لأكثر من دقيقتين أعدك بهذا! وعلى كل حالٍ مازال بالإمكان كل شيء، وكل الاحتمالات مفتوحة. والإختيار لطالما كان إختيارك.

لا يُمكنني نُكران الحقيقة، حقيقة أن الكلمات لامست شغاف قلبي، ولكن من يُلاحقني بالتهديدات لا يعرف أن التفاصيل تكشف الستار عن معادن الرجال؛ فكما هنالك من يחדش بريقه من أول منعطف في مسيرته. هنالك من يحافظ على بريقه حتى الرmq الأخير، وأما صراعات مثل هذه فهي الأساس في قياس صلادة تلك المعادن أيها نفيس وأيها بخيس، وأما الفوارق الطفيفة هي ما تُرجح كفة أحدهم على الآخر. لذا لم يكن لقلبي أن يتوانى عن تحقيق ما عزم عليه مُسبقًا، فلا فائدة ولا طائل في طلب تنازلاتٍ من شخصٍ سبقَ وأن راحت أولوياته أدراج الرياح. كيف لشخصٍ حُرِمَ من عزيز أمانيه وذاق بأس الفقد بأن يفضي إلى تنازل عاش سنينَ دأبا وحفرًا في أصلدِ الصخور؛ كي يحين تحقيقه، ثم بعد هذا يقف عاجزًا لاستئناف ما بدأ فيه. لقد مضى الكثير، ربّما الكثيرُ

جدًّا ولم يتبقى سوى القليل. حادثني نفسي كثيرًا إن لم تفعل فإنك إذاً
لن المتشابهين مَن إذا أَلقيت نظرةً في جوف قلوبهم لوجدت القلب
فارغًا، تمامًا حدَّ الفضاء!

سُرعان ما طويت الرسالة ثم قذفت بها فتطايرت فوق سطح
المكتب، ثمَّ دخلت في قيلولة قصيرة ثم تحرَّكت إلى منزل "حبيبة" بعد إذ
تزينت ومسحت عن وجهي ماء الإرهاق في سبيل مُعانقةٍ للصبر.
فخرجت من المنزل مُبتسمًا مُرتديًا نظارتي السوداء مُحاولًا نسيان كل مريرٍ
مرَّ ولم يمرَّ أبدًا مُرور الكرام فلا ينزاح الكُبت عن صدري، ولا تتمد نار
الحسرات في فلذة كبدي. قرعت الجرس فاستقبلتني "حبيبة" في أبهى
حلية جميلة مُتزيّنة يُنسب الشعر في وصفها كمرونة الماء فقلت لها

النُّورُ يُضِيُّ وَأَنْتِ مِصْبَاحُ
فَكَيْفَ النِّجَاةُ وَعَيْنَاكِ الْفَلَاحُ

عَسَلٌ مِنَ الْعَيْنَيْنِ يَذُوبُ
تُضِيُّ دَوَاخِلُ جَمَالِهِ الْأَرْوَاحُ

طَغَى الظَّلَامُ حَوْلَكَ بَاغِيًّا
وَأَنْتِ الْهُدَى وَفِيكَ الصَّلَاحُ

عَلَا الْجِهَادُ مِنَ الْجَمَالِ رَايَةً
وَلِلظَفَرِ بِكَ يُرْفَعُ السِّلَاحُ

لم تتمالك "حبيبة" نفسها فكاد يغمرى عليها في غياهب الحب، وبعد

إذ دخلت المنزل ومكثت ثابتاً في مكاني قالت لي

- ماذا بك؟ لم لا تخلع نظارتك؟ فلا أرى شمساً هنا!

فقلت لها بأن العيون نوافذ النوايا منها يُنظر على ما قوالب القلوب،

أما في لغة الجسد، فالعيون تحمل في طياتها ما يعجز الكلام على حمله في

رسائل ومن المؤسف أنه ليس الوقت المناسب لإظهارها. ثم سكتُ
لُبرهةً ثم ضحكت

- بالطبع ليست لدي أدنى مُشكلة! ما رأيك بأن يتم الزفاف غدًا
تنفيذًا لوصية أبيك الأخيرة.

فضحكت في خجلٍ مُنكسرٍ وعيناها تتدثر بالحياء.
- قل لي بعض الغزل أولاً، وأخبرك من بعدها.
فقُلت لها:

مُحاق قمر لك ينقلبُ بدرًا
إذا ما علا طرف وجهك بالنور
فإن كان هذا صنيعُ طرفٍ
فما بالُ عينٍ تغار منها الحور

فما كان منها إلا أن سقطت على الأريكة من خلفها بعد إذ اختل
توازن قلبها. فقُلت لها

- يبدو أنني قد ربحت، أليس كذلك؟

فَسَال لَوْنُ الضَّحْكَ عَلَى وَجْهِهَا فَاصْطَبَغَ بِالْأَحْمَرِ الْوَرْدِي.

- نَعَمْ لَقَدْ رَبِحْتَ الْإِتْفَاقَ، وَلَيْسَ الْإِتْفَاقُ فَحَسَبَ بَلْ قَدْ رَبِحْتَ

قَلْبِي مَعَهُ عَلَى سَبِيلِ الْهَدِيَّةِ!

فَنَظَرْتُ فِي عَيْنَيْهَا عَلَى سَبِيلِ الدَّهْشَةِ.

- أَلَمْ أَكُنْ قَدْ رَبِحْتَ قَلْبَكَ قَبْلَ ذَلِكَ؟

فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَّا أَنْ وَضَعْتَ أَصْبَعِيهَا عَلَى غَطَاءِ عَيْنِي وَبَادَرْتَ

بِإِغْمَاضِهِمَا، ثُمَّ قَالَتْ لِي

- مَاذَا تَرَى؟

وَفِي ظِلِّ سَوَادٍ يَجْتَاحُ عَيْنَايَ قُلْتُ

- لَا أَرَى شَيْئًا، فَقَطَّ سَوَادٌ طَافِي.

فَقَالَتْ.

- "هَكَذَا كَانَ قَلْبِي بَعْدَ أَنْ أَبْصَرَ حُبَّكَ" ثُمَّ ضَحَكَتْ قَلِيلًا

وَاسْتَكْمَلَتْ.

- لَا بَلْ هَكَذَا كَانَتْ حَيَاتِي مِنْ قَبْلِ مَجِيئِكَ فِيهَا يَا مُنْقَذِي الْأَوْحَدِ مِنْ

ظُلُمَاتِ الدُّجَى. وَدَعَنِي أَخْبَرُكَ كَمْ أَنَا مُمْتَنَةٌ لَذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي جَمَعَنِي بِكَ

لأول مرة، حين رأيتك ولم يكن يترادف في خيالي حدوث ما قد حدث بالفعل. الإمتنان والشكر يقفا عاجزين عن إيفاء الحب.

وبعد إذ دخلنا غُرْفَةَ والدها حيث يرقد في سريره راضي النفس، مُطمأن البال، بعد إذ سمع أن زفافنا غداً. بل وتمددت إنكماشات وجهه فصارت تلمع بريقاً بعد إذ سمح له الطبيب بحضور الزفاف والطبيب سيتكفل بكل التجهيزات الطبية في حال وقوع أدنى مكروه له.

كُنَّا في سعادةٍ ناصعة حتى إني ظننت أن جوهنا قد تشرق بديلاً عن شمس المحبة في الصباح الباكر. بعد ذلك خرجتُ من المنزل وسط توديع من "حبيبة" ويدها ترتجفُ إهتزازاً من الوداع. فظننت من طريقة وداعنا حتى لقائنا ليلاً وكأنه وداع أبديٍّ. فتحركت بعد ذلك صوب مقر العمل في إجراءٍ روتيني حتى وصلت لأجد عربات الشرطة تُحاصر البناية بالكامل، وحين اقتربت من أحد المسؤولين كان صغيراً في السن ويُدعى المُلَازِم "مُحسن" وبعد إذ تسائل عن هويتي.

- مَرَحَباً سيد "ريّان" لقد وصلتنا معلومات بأنك تحت التهديد المباشر، لذا فنحن سنعمل على تأمينك لحين معرفة مصدر التهديدات.

فتساءلت من قام بإرسال كل هذا الدعم؟

فكان الرد:

- الحماية كانت بأمرٍ من سيادة النقيب "رفيق"، لذا من فضلك جميع تحركاتك لا بُد وأن تكون معلومة؛ لأنه إن أصابك مكروهٌ فإننا جميعاً سوف نتعرض للمُساءلة.

وبعد إذ تمنت ووضعت يدي على كتفه في مُفاصحةٍ خفيفة.

- لا بأس حيال ذلك.

ثم صعدت إلى البناية لتدبّ قدمي في مقر الجريدة، وبعد إذ رأته "ريهام" في نظرةٍ تحمل الكثير من المهام، بالإضافة إلى المشاكل، فقلتُ بالإشارة إليها بيدي في إيجاءٍ ضمّني مفاده "ليس الآن!"

ثم دخلت المكتب فجلست على الكرسي لأزيح الستار بعض الشيء. فأرى من خلف النافذة عربات الشرطة وهي تُحاصر المكان. حقيقة لا أعلم، فبالرغم من كون كل هذا الدعم لخدمتي إلا وأني كنت في فزعٍ شديد، ربّما هذا ما بعد أعراض مقتل "صفوت" على كُلِّ حالٍ السابعة مساءً كانت قرية والاجتماع العاشر كان في الانتظار، ولكن

رفضت وبشدة بأن يُعقد الاجتماع في مقر الجريدة؛ كي لا يُثير الشُّبهات. وكان المُخطط بأنه في الوقت الذي تقترب فيه الساعة من الساعة فإني سوف أرسل رسالة لجميع أفراد "السنابل" بأن الاجتماع سوف يُعقد في بيتي وليس في الجريدة، ثم بعد ذلك أطلب من أحد موظفي بأن نتبادل ملابسنا سوياً ونخرج من البناية في الوقت ذاته في حركةٍ إلهاءٍ فلا يكتشفوا الأمر إلا بعد إذ خرجت وغبت عن أنظارهم. وبالفعل استدعيت أحد المحررين ويدعى "سمير" فأخذت غطاء الرأس الذي كان يرتديه من حر الشمس، وقُمت بإرتداء ملابسهِ في وسط تسائل منه، ولكن لم يكن هُنالك وقتٌ للتساؤل، فقام بإرتداء ملابسِي هو الآخر ثم خرجنا سوياً من البناية، فقام بأخذ اليسار بينما شرعت في سلك اليمين وغطاء الرأس يُخفي ملامحي، حتى حين لمحوا "سمير" من الخلف وهو مُرتدياً ملابسِي فعلى الفور ابتلعوا الطُعم بينما كُنت قد تواريت عن أنظارهم بالكامل. حتى إذا سقطت مقصلة الساعة على الساعة. كنت أمام البيت فرأيت أمامي جميع أفراد "السنابل" بإستثناء "عامر" الذي

وصل متأخرًا بعد إذ دخلنا المنزل، وبعد إذ حلَّ شمل جميع أفراد "السنابل" حان رسميًا البدء في وقائع الإجتماع العاشر.

- مَرَحَبًا بكم في البدء كان التساؤل يا "رفيق" لماذا كلَّفت قوات خاصة بحراستي؟ ما زلت في دهشةٍ من فعلتك هذه. ألا تعلم أن هؤلاء الرجال إن عرفوا أنك متواطئ معنا في هذه "السنابل" فهذا سيصير بك وبنا؟

ليكون الرد حازمًا جدًا من "رفيق".

- "ريّان" دعني أفعل ما أجد فعله، ولا تقلق بشأنني فإنني لا أخشى من أي شيء، وأما كوني فردًا في هذه "السنابل" فإنه لفخرٌ لي أن أحقق عدالةً يعجز القانون عن تحقيقها؛ لأن إلتزاماته مُستعصية في بعض الأحيان على تنفيذها بحذافيرها على أرض الواقع. ولا أخفي عليك لولا هذه "السنابل" لما تمت ترقيتي! فأنا الآخر طرف مُستفيد. أما هؤلاء الرجال ليسوا لغرضٍ سوى حمايتك، خصوصًا وأنك قد سبق وأن تعرضت للتهديد!

حتى نسجَ "نجيب" من نفس خيط كلمات "رفيق"!

- أنا أؤيد تمامًا ما فعله "رفيق" فكلنا تحت خطرٍ، لذا أرى أن ينفض شمل "السنابل" لقد حققنا العدالة وكل من طغى وبغى قد أصابه الجزاء من فعلته، فماذا ننتظر الآن!

ليُعارضه "عامر" بكُل ما أوتي من قوةٍ وبصياحٍ في ترده نبرة جدالٍ.
- كيف نُنهي شمل "السنابل" وما زال قاتل والد "ريّان" وأخيه طريد العدالة، بالإضافة لقد اتفقنا على أن ينضم للـ "سنابل" عناصر جديدة حين الإنتهاء من مهمة "ريّان"

ليظهر صوت "دنا" مُتخبطًا مُرتعشًا

- أنا أخشى أن أخبركم هذا ولكن لقد تسَلَّمت رسالة في الصباح الباكر مفادُها بأنني إن لم أكُف عن مساعدتكم في هذه "السنابل" فإني سوف أدفع الثمن غاليًا. وقد جئتكم لأقول لكم سوف أنسحب من "السنابل".

ليظهر "عامر" مُجددًا والغيط يقتله.

- كيف تفعلون هذا برجلٍ ساعدنا جميعًا؛ كي نأخذ القصاص ممّن قتلونا في الحياة مرّتين! مرتين أيّها الأوغاد! وبالمُناسبة لقد وصلتني نفس

الرسالة يا "دنا" لكن الفرق بيني وبينك هو أنني قد أضحي بحياتي في سبيل من لي قد وهبوا!

حتى تقاطع "رفيق" في أطراف المحادثة من جديد وسط صمتٍ منِّي.

- من الواضح أن الجميع قد تسلم الرسالة بما فيهم أنا، ولكن كُنت قد قررت كتمان هذا حتى لا يتأثر أحد فيفعل مثلما تودّ "دنا" فعله، فيبدو أن السر لم يعد سرّاً بعد إذ عرفه الجميع. بالتأكيد من يُحرّك "هشام" هو من قام بإرسال هذه الرسائل لتهديدنا. ليؤيد "نجيب" حديث "رفيق".

- نعم بكل تأكيد من يُحرّك "هشام" كالعروسة الدُمّية هو المتورط خلف كل هذا. لذا أعرف أن ما سوف أقوله هو صعبٌ بعض الشيء، ولكن لدي ابنتي الصغيرة وليس لها أحدٌ غيري في هذا العالم البائس، وودتُ لو قمت بتربيتها في هدوءٍ وسلامٍ. ومُحال أن يكون للتفكير مجال إن كان التهديد وصل لحد القتل.

لأنكلم أخيراً مُستفهماً عن صمت الطيبة "حنين"

- وما قولك يا طيبة، هل تنسحين أنتِ أيضًا؟

ليكون الرد في نبرة إنكسار وخضوع.

- "ريّان" دعني أخبرك بأنني مُمتنة لصنيعك معي في إخماد نيران صدري في التشفّي ممن أغرقت ابنتي، ولكن الشخص الذي تُطارده أغلب الظن أنه أقوى منّا بكثير، ولا يوجد من يقوى عليه في الخارج، لاسيما أن التهديدات لم تصلنا إلا بعد إذ وصلنا إلى مهمتك. قد ترانا نغدر بك، ولكن كإخوة لك دعنا نُخبرك بأن الأفضل للجميع الإنسحاب؛ كي نمضي بقية حياتنا في سلام، خصوصًا وأن لدي ابنة أريد أن أربيها هي الأخرى.

ليتطرق بالحديث النقيب "رفيق" من جديد.

- "ريّان" أعلم كم هو جرح صدرك مُتأججٌ، وأعلم أنك فؤادك على جمر نارٍ يتقلبُ، وأعلم كم هو مقيت أن ترى من ساندتهم يتخاذلوا حين تركز إليهم سائلًا المُساندة، ولكن ضع نفسك مكانهم، هل كنت لتساعدهم إن كان المقابل من مساعدتك هو إزهاق لروحك وروح أحبّتك؟ فكّر فيما لديك لتخسره قبل أن تُراهن بكل شيء من أجل فوز تكسبه.

في بعض الأحيان شرف المحاولة يكفي؛ لأنه ثَمَّةُ مُحاولات يَكُونُ
خط النهاية فيها بمثابة فخ يسحبك سَحْبًا إلى هاويةٍ تسوقك إلى هَوَّةٍ
سحيقة. ضع نُصب عينيك كُلَّ الإحتمالات الوارد حدوثها فإن كان
نصيبُ الأسد منها هو فوز مؤكد فتوَكَّلْ، وإن وجدت نصيب الأسدِ
هزيمة مؤكدة فتوقَّف. وأنا أرى أن تتوقف يا "ريَّان" ليس من أجلي،
ولكن من أجل من قد تزهق أرواحهم سُدى؛ لأنهم تورَّطوا فيما لم
يُحيطوا به علمًا.

طأطأت رأسي في ذلِّ وإنكسار لم أعاهده قط على نفسي.

- معك حق يا "رفيق" ولكن ليس الخُذلان في عدم إتمام الحاجة قدر
ما كان فيمن أسندَ إليهم قضاء تلك الحاجة، فليس هيئنا أن ترى بعينيك
من ساندتهم يومًا، وهم يتنازلوا عنك تخاذلًا في نهاية المطاف. يستعصي
على القلب أن يُبصر عهدًا يُنكث في ضواحي الخيانة، وبكافة نواحي
الإهانة.

لو فاضلوني بين العمى عن ما أراه بعيني الآن لآثرت العمى على
النظر إن كان في البصر ما يحيط القلب منه الحذر. لن أفرض عليكم

عهدًا جديدًا سبق وأن ذبحته في قيعان التنكيث. أفعّلوا ما طاب لكم
فالثبات ليس إلا لمن صبر وصدق، والآن من أراد منكم استكمال ما
بدأناه فليجلس، ومن أراد الرحيل فليرحل، فإن من قدر على ألا يرحل
وآثر الرحيل على البقاء، فإن البقاء معه هو عين البلاء، وإن في رحيله لا
يترك من خلفه أدنى فقد ولا خواء.

وفي الأخير طوبى لمن إذا رأى قلوبًا تنقُص هدمًا فأقامها ومضى
رحيلًا دون أن يتخذ عليها أجرًا، فهؤلاء لا تغادر معهم الأشياء
بالمغادرة، لا يُغادرون، لأنهم تركوا بالداخل ما لا يغادرك وإن فارقوا،
طوبى لمن تعاهدَ بالأمرين ناكثًا مُتخاذلاً إن كان الأمر يتعلق بميثاقٍ
غليظٍ.

طوبى لهؤلاء الذين يقبلونك ليس لأنك شبيهًا لهم، ولكن لأنك
أنت بُكل عيوبك، وبكل مساوئك السقيمة، وبكل مواجعك الأليمة.
طوبى لمن كان سندًا وسط غياب الحنان، وحِصنًا وقت ذهاب
الأمان، وقلبًا حين يغفو عن ذكرك الأنام. طوبى لمن وهبوا الآخرين
حياة ولا يملكون من الموت فرارًا ولا لمهربٍ منه فكاكًا.

طوبى لمن كانوا في التضحية لا يملكون نصرًا لأنفسهم، ولكن
لغيرهم ينتصرون.

طوبى لمن غاص عمقًا في آبار الفرح باحثًا عن مياه الروح؛ كي
تشرب منها فتضرب في جذور سعادتك؛ لأنه يُحب أن يُبصر ضحكة
قلبك.

طوبى لمن تشبَّت بحلمك كأنه حلمٌ له حتى وإن كان حلمك بعيدًا
تمامًا فوق سحابة خفيفة في الأعلى.

طوبى لمن إذا آويت إلى كهفك مُنْعَزَلًا كان مُرتحلًا إليك وكفى
بِقُربك نعمة عن الأنام أجمعين.

طوبى لمن هرعوا بمد يد العون لانتشالنا إذا ما غرقنا في بحرٍ من
الهموم نُجلد فيه بسوطٍ من العذاب مُهين.

طوبى لأنقياء القلب لمن تزدهي أفئدتهم حلاوة، لمن لم تختلط قلوبهم
بالسواد الفحمي من حولهم، لمن لم تنصهر قلوبهم في مُصاهرة بني
السوء، وظلوا مُحافظين على أنفسهم حتى الرمق الأخير، البريق الأخير
الذي لم يزدد إلا نصاعة وسط كل العتمة الرائجة.

لحظات معدودات من حين تخفيف الكبت عن صدري إلا وقد قامت "دنا" من مقعدها تاركة المكان لتسحب رسميًا من "السنابل" ليتبعها على الفور صديقتها الطيبة "حنين" فلا تفارق صديقتها هي الأخرى، وفي توجّس بين القعود أو الرحيل كان "نجيب" في حيرة لحسم قراره، ولكنه في الأخير فضّل الرحيل على المكوث، ليقول في كلمته الأخيرة

- نحن نواجه شعبًا لا نعرف عنه أدنى معلومة قد تُقَرَّب سُبُل الوصال بيننا وبينه. يجب أن نخشى مُواجهة ما يخفى على مدارك معرفتك، فكّر معي فنحن نبدأ ما تحت الصفر، وحين سنصل لنقطة الصفر سنكون أشلاء يُتلى عليها صلوات الموت.

وإذ بالنقيب "رفيق" ينهض هو الآخر ثم يقف مُتسنِّدًا على طرف الكرسي.

- إن كان الاختيار بيدي لكنت جلست، ولكن الرحيل يضمن لي أن كل من يجلس هنا لن يطوله الأذى، ومع ذلك سوف أترك القوات تقوم بتأمينك إلا إذا أردت غير ذلك.

- نعم يا "رفيق" لا أريد أي قوات تقوم بتأمين تحركاتي!!
ليرحل هو الآخر ويطأطئ رأسه بالموافقة! فلا يجلس سوى "عامر"
الذي قرر بأن يكون الفارس الأسود بل كطائر "الفينيكس" وهو يُولد
فيه الروح من تحت الرماد. يمكنني القول بأن كل حاجدٍ هو من يقول
بأن المفاضلة بين الاختيارين أمر يسير، فلا أعلم لو كنت مكانهم ماذا
سيكون إختياري. ما يؤلم ليس في الرحيل، فكل الأشياء تجد طريقها في
الرحيل عنّا، ما يؤلم هو كل توقعٍ رُسمَ على سحابة الخلود، والسحابُ
إذا امتدَّ اشتدَّ. فيومئذٍ تتلبد التوقعات بالغمام ودمع أعيننا يكون المطر!
يكون الدمعُ لقاء كل ظنٍ فاني تمنينا لو كان في داخله الخلود. مؤلمٌ هو أن
ينهار نُصبَ عينيك من شِدَّت له في قلبك معقلاً تطلّب بناءه سيلاً من
المشاعر الجارفة، ثم في طرفة عينٍ سقط كل شيء حدَّ الإنهيار كأنه لم يكن.
بعد مُضي لحظات من إنسحاب جميع أفراد "السنابل" بإستثناء "عامر"
جلسنا سوياً أنا وهو نعدُّ العُدَّة، فنخطط، ونُدبّر، وبعد مُضي ساعتان من
التفكير إذ بالباب يطرق علينا!!



الفصل السادس عشر

تهام الحب على طبول الحرب

حين فتحت إذ بي أجد "حبّية" تقتحم المكان لتدخل فترى "عامر" يجلسُ في الداخل وتعانق عيناه الأرض.

- مررت بالصُدفة حول شقتنا المُستقبلية فلمحت الإضاءة مُشتعلة بالداخل، فظننت أن لصًا ما بالداخل، ولكن اتضح أنه زوجي المُستقبلي فحسب برفقة صديقٍ له.

في الواقع لم أكن في حالة مزاجية للخوض في نقاش مع أحد، ولكنني حاولت قدر المُستطاع بأن يتوارى وجهي طيلة المُحادثة بإبتسامة زائفة، وبالفعل انطلى عليها الأمر، في حالة إن لم تكن اكتشفته سريعًا، ولكن قرّرت بالألّا تُفصح أمري فأقع في الحرج فلا أجيّبها، لذا سريعًا ما رحلت بعد إذ ظهر على صفحات وجهي بعض الإنزعاج دون قصدٍ، لينقضي الاجتماعُ سريعًا ما بعد مُغادرة "حبّية" بعدة دقائق،

فيخرج "عامر" من المنزل ثمَّ يشق طريقه، ثم تبعته بعدها بخمس دقائق، فما إن وصَّدت باب المنزل وكُنْتُ في سبيل إرتحالي عنه فإذا بي أجد "حبيبة" تنتظرني بالشارع كأنها تترقب لحظة خروجي فكانت تجلس عن اليمين إذا ما أبصرت عيناى الشارع. اقتربت مني فقالت.

- لا تقل لي أنك ممَّن يتهافُ الغُرباء عليه قُربا، ويُحاوطه الأقربون كُربا.

- معاذ الله! فلا قلبي خان العهد ولو في خيالي، ولا تلاشى الوصالُ بعدَ وصالٍ.

فتبسَّمت ضاحكةً.

- ولم يظهر على وجهك "المائة وإحدى عشر"؟ فيبدو وكأن وجهك غارق في الإذعان وقلة الحيلة. فسُرَّعان ما ظهرت تعاريج الابتسامة على وجهي.

- صاحب البصيرة مهما بلغ بصره فلا بُدَّ يوما وأن يقع فريسة في بحر الحيرة، فحين يمدُّ يده لمن وثق فيهم بالبصيرة فإن اليد الممدودة من بعدئذٍ تصير قصيرة. وبالمثل حدث معي، وأنا الآن غارق وما من أحدٍ

ظَلَّ باقياً على العهدِ ليتشَلَّني بطوقِ نجاتِهِ من ظُلُماتِ التَهْلُكَةِ،
وضَلالاتِ الحَيودِ! فارتسم على وجه "حبيبة" إيماءاتِ جادةٍ غيرِ
مُسْتَهزئةٍ إطلاقاً.

- يا إلهي! صدقاً أنتُمثلُ بارع! بالكادِ صدقتك، يجب أن نُقدم لك
في معهدِ تمثيلِ مسرحيٍّ لاستغلالِ موهبتك على أكمل وجه. فسارعت
بضحكةٍ عريضةٍ تتناسب طردياً مع عرض الخُذْلانِ المقيتِ في صدري.

- الخُدعة قد انطلت عليكي! لكن لو تفكّري قليلاً، كيف يمكن
للحزن أن يتسلل إلى قلبي وأنتِ بجانبِي؟ كيف يرنوا القلب إلى
صومعته مُبتهجاً فرحاً إن غابت شمس وجهك عنه؟ كيف تنكمش
خيوط البهجة من على وجهي وهو يُبصر وجهك الفائض بدلالِ الجلال
جمالاً؟ كيف لروحك ألا تسكن روحي، ونحن المُخلقين سوياً في
ملكوت الأَحَبَّة؟ كما كان السحابُ معقل السماء، والماءُ معقل الحياة،
والروح معقل الجسد، فإن محبتك هي معقل قلبي وفكري وروحي
وسائر جوانحي. بل ومعقل كل جميل يُخفق بجناحيه حناناً في كون الله

البديع. لتهوى "حبيبة" بعد ذلك في غياهب العشق سقوطاً. ثم عيناها
لاحت من المشرق إلى المغرب في طرفة عين، فقالت.

- أنت جميلٌ حد الكمال!

- ما من جميلٍ يظهر للناسِ أهونُ إلا وكان سترُ الله على قبيحه أعظم.
ثم سكنتُ قليلاً فقلتُ.

تعرفين، منذ الصغر راودني حلمٌ جميلٌ بأنني سأصبح قبطاناً عظيماً
يُذاع صيته من مشارق الأرض حتى مغاربها، قبطان تطوف سفينته شتى
بقاع الأرض، ومن حينها لم يفارق خيالي يوماً هذا الحلم، ولكن أدركت
مؤخراً أن خيالي لن يُعانق حلمي يوماً، يكفي أنني ما زلت لا أجيد
العوام!

- تمزح! قبطان ولا تجيد العوام يالسخرية القدر، ولكن لم قبطان
بالتحديد؟

- بخصوص الدافع دعينا نقول حتى ينتهي بي المطاف أسيراً في محيط
قلبك.

فتضحك على استحياء بعدما تصبغ وجهها بلون الحمرة وتدرج على وجهها الناعم شتى درجات الحمرة.

- ومتى سيكف شرع سفيتتك عن الإبحار في محيط قلبي؟

- لن يحدث هذا، ولو غمرتني أمواج المحيط المتعالية وجعلت مني كائناً رخواً يترنح يميناً ويساراً على ضفاف الموج، حتى إذا هلت تلك الموجة العاتية شاهقة الارتفاع وأقبلت تكتسح ما يعترضها لكي مني وعد غير قابل للنكث، لن تعطيني تلك الموجة طالما يعتريني حبك.

- لبرهة كنت على ظن أنك مثل الآخرين، لا يتردد على شفاههم سوى معسول الكلام، حتى إذا تخطينا تلك المرحلة، وبلغنا مرحلة العهود والمواثيق كانت لتُنقض العهود وتُزق المواثيق! ثم سكتت قليلاً حتى سَكَنْتَ.

لكن معك صار الأمر مُتَغَلِّفاً، إختلافٌ دون إختلاق أو تصنُّع! مُتَغَلِّفٌ حد الغرابة، وغريب جُمع فيه صلة القرابة، وقريبٌ حد الاستنساخ. واستنساخ حد التطابق، ثم صمتت فجأةً ونطقاً في صوتٍ واحدٍ

- وتطابقُ حدَّ الحب!

- أعتقد أن الشرايين المحيطة بقلبك لا تُمر فيها دماؤك المُعتَقة
فحسب، بل ينبثق من جذورها ورد أحمر يفوح منه طيب الروائح
وأذكاها نقاءً وصفاءً، لا بل قلبك نفسه كوردة حمراء سُحِبَت برفقٍ دون
وجعٍ من بطن التراب تمامًا في ليلة ربيعية تحت ظلال قمر مُنيرٍ يترامى
عرش نوره حين يحل مساء السماء.

فقمنا بالمسير بعد ذلك إلى شراء فستان الزفاف، وما تبقى لنا من
أساسيات الزواج، ليحين تدوين يومنا المُنتظر بعد عهدٍ لطالما تعاهدنا
أيام الصِّبا، وليالي الصِّبا، وذكرى الصِّبا. فياليت الـ "كان" يعود ونغيّره
بعد إذ عرفناه إلى ما "سوف يكون" قبل أن يكون.

وفي صباح الفرحة المُنتظرة استقيظت صائحًا دون فتورٍ رُغم أن
الأرق كان يُعانق عيناى طيلة سواد الليل. وفيما بعد إذ بالباب يطرق فإذا
بها "فاطمة" زوجة عمي "خالد"!! تُعانقني فرحًا بي بعد إذ تبادلت
التحية على توأميها "مالك" و"كريمة" حينئذٍ تكرّمت بواجب الضيافة
ودعوتها للدخول ثم صنعتُ لها بعض الشاي، ثم دار بيننا بعض

الأحاديث الروتينية والتي تم إنهاؤها بأنها تمتنع عن حضور الزفاف؛
لظروف عائلية طارئة، لُتَمْنى لي زواجًا طيبًا مُباركًا ثم خلت راحلةً
بصحبة أولادها. سريعًا ما مضى الوقت بعد إذ كان يفترش على بساطٍ
زُبّقي يجوبُ تحليقًا خفّاقًا في سماء المحبة. كُنّا في أبهى زينة ممكنة فيحسبنا
الرائي كأننا ملكين هبطا من الأعالي حيث ملكوت المحبة. كُنّا نتبادل
النظراتِ سويًا فنسجت عيناها خيطًا تقاطع مع خيط عيني فتقابلت
عليه قلوب الأحبة. كان حُبًّا يقف له "روميّو" و"جوليت" ليتعلما منه
كيف يكونُ الحبُّ حقًا.

فلأبد الدهر في السراء والضراء، في الفرح والترح، بين المدح
والقدح. لن أخجل بعد اليوم وبدون رهبة وبكل ثقة ومن غير كلل
أقولها اليوم ولتشهد الموائيق وتُكتب العهود بأنها من دقّ قلبي لها وأعلن
العصيان وإفعل التمرد لحين الإفصاح عن عشقه لها. إني أحبك كثيرًا
جدًا جدًا جدًا.

فيشرع الزفاف في البدء وسط حضور السيد "مختار" رُغم مرضه،
بينما كنا سويًا وسط مقاليد الزفاف المعتادة، والوجوه من حولنا ترسم

بإبتسامات بشوشة، وإن كانت بعض القلوب تُضمر ما لا تُظهر. لينتهي اليوم وتميّت بالألا ينتهي أبداً، ولكن التمني لا يكفي لأن تصوير معه الأمور حقيقة.

في صباح اليوم الجديد كُنا قد عقدنا العزم على قضاء شهر العسل، ولكن ليس الآن فكان الغطاء تحت ذريعة العمل وأنه لا يرحم، وأن هنالك بعض المهام المصيرية التي لا بُد من تنفيذها. لتستجيب لي "حبيبة" بإبتسامةٍ مُرييةٍ حتى أني خفت منها. ليمضي الوقت إلى ما بعد العصر فطلبت منها بأن تختار أهبى فستانٍ لها للعشاء بالخارج. فابتسمت مُفصحة عن أسنانها البراقة المتألأة ثم قالت:

- لم لا! ما رأيك ببعض القهوة، أنت دائماً تفضّل كوب القهوة قُبيل العصر؟

فكان الرد بكل بشاشةٍ.

- لم لا يا عزيزتي، طابت يداكي لي.

لحظاتٍ قليلة وإذ برسالةٍ نصيّةٍ تُرسل لي على الهاتف كانت كفيلاً بأن تتلاطم منها أمواج الشك نائرة في قلبي.

- أعرف أن الأمر غلب الجنون، مبدئيًا ليس لي من مصلحةٍ فيها
أقول، ولكنني سأحاول مُساعدك، ولك حُرّية الاختيار فيما بعد. ربّما
الأمر بمثابة صدمة إن عرفت أن زوجتك تُخطط لقتلك،

هل حسبت أن رؤيتك لها من جديد في "وحي الروح" كان صُدفَة؟
هل حسبت أن خبر مرض والدها صحيح وأنه صُدفَة أن يحدث في هذا
الوقت تحديدًا؟

هل حسبت أن هُنالك امرأة ستتنازل عن حقها في أن تفهم حياتك
الغامضة هكذا؟

ماذا لو قلت لك أنها تمّ تجنيدها من قِبَل من تسعى خلفه! وذلك
وقت ما ترحّلت إلى بيت جدّك هربًا، ماذا لو قلت لك بأنّها كانت
تُراقبك، وأنّها حين جاءت إليك أنت و"عامر" فكان لكي تضع جهاز
تصنّت على مُحادثتكما؟

فإن لم تُصدّق فانظر إلى أسفل كراسي الطاولة! ماذا لو قلت لك بأن
حب حياتك كان كذبة؟

ماذا لو أخبرتك أن والدها رجلٌ سليمٌ مُعافى، وأن الطبيب الذي زاره ليس بطبيبٍ ويُدعى "شكري" وهو في الأصل تاجر في الأدوات المنزلية بالشارع الذي خلف منزلها؟

ماذا لو أخبرتك أن "زينب" هذه ليست بأخته، وإنما هى تعمل لدى من تُطارده!

ماذا لو أخبرتك بأنك لو ذهبت إلى المطبخ وأخذت عينة من القهوة وقمت بتحليلها سوف يظهر بداخلها السم! الذي ستشربه بعد لحظات، ولست بحاجة لإخبارك بأنك ستُفارق الحياة مع أول رشفة؛ لأن السم كان قويًا بفضل إختيار زوجتك له، هل سبق وأن رأيت حُبًّا أعظم من هذا. أتعرف ما هى الخديعة؟ الخديعة هى وقية غير متوقعة، تمامًا كالحال الذي أنت عليه، أتعرف ما الكذبة؟ حياتك!

لديك الآن فرصة للانتقام منها ثم أخبرك أكثر عمّن تريد الوصول له والثأر منه، وسوف أتحصل على جائزتي منك لاحقاً لكن ذلك يتطلب تضحية بأن تُقتل الخائنة التي تلاعبوا بها لأجل إيقاعك!

رفعت رأسي فإذ بـ"حبيبة" قد أتت وفي يديها كوب وفنجان
إحداهما من الشاي لها والآخر من القهوة لي! فنظرت في جوف عينيها
دون رمشٍ.

- شكرًا يا عزيزتي! بإمكانك الجلوس بجاني.

فوضعت القهوة على المنضدة ثم جلست بجاني، فقلت لها.

- ما رأيك لو شربت أنا الشاي بينما القهوة تركتها لك؟

فقلت في صوتٍ يُغالبه المزاح والتوتر في نفس الوقت.

- لا بالطبع! لن أسمح لك بهذا! أنا أكره القهوة فهي تذكرني دائمًا

بمآثم الأموات!!!!

فنظرت لها والحذر يترقبني.

- لا بأس يا عزيزتي كنت أمزح فحسب!

فضحكت دون إرتيابٍ في نواياي ثم نهضت سريعًا لأنظر إلى ما

أسفل الطاولة، لأجد بالفعل جهاز تصنُّت صغير تم زرعه! فقلت.

-هل تترك القهوة تبرّد، وتجلس عوّضاً عن ذلك على الأرض
لتلعب كما يلعب الأطفال، هيّا انهض فالمسلسل التركي سيبدأ بعد بضع
لحظات.

تركت جهاز التصنّت لصيقاً في مكانه ثم جلست بجانبها دون أن
تشعر بذرةٍ من شك كأن شيئاً لم يكن، في الواقع لم أقدر على أن أطلب
منها عنوةً على الشرب من القهوة! فكأن بقاياها المتناثرة بداخلي من جميل
ذكرها تمتنع عن التسليم بكل هذه الأدلة على كونها حقائق، فتظاهرت
بأن ذبابةً ما قد سقطت في الفنجان ثم نهضت لأفرغ الفنجان في
المرحاض وسط استياء شديدٍ منها.

ثم خرجت من المنزل تحت ذريعة أمر طارئ في العمل! فذهبت إلى
منزل والدها لأطرق الباب فيفتتح لي صغيرتها "وردة" لأدخل فوراً
فأرى والدها يغسل بنفسه الصحون المتسخة في المطبخ! فكان الأمر
بمثابة صدمةٍ لي!! الرجل كان من يومين يتظاهر بالموت! لكن حرصت
على كتمان الأمر فقلت.

- يا إلهي إنها مُعجزة؛ كي أراك مُتَعافياً يا والدي العزيز! لقد عُدْتُ؛
لأخذ بعض الأشياء التي تركتها في المنزل حين أخذها من جديد.
ثم نظرت إلى طابة خضراء فأخذتها ثم قلت له.

- هذه هي يا عمّي، ليلة سعيدة!

فرجعت إلى المنزل وتظاهرت كأن شيئاً لم يكن ففتحتُ الباب فإذا
بـ "حبيبة" ما زالت تُشاهد المُسلسل التركي. فجلستُ بجانبها وفي
داخلي الكثير للحديث به، لكن فضّلت الصمت حين اللحظة المناسبة،
حتى جاء الليل فقررت اصطحابها إلى أرقى المطاعم الفاخرة وهُنالك
تناولنا العشاء وسط فرحةٍ منها أقل ما يُقال أنها صدقاً بارعة في إخفاء
مشاعرها، وحين رجعنا سألتها.

- عزيزتي لمَ لا ندخل المطبخ سوياً نعدُّ بعض القهوة بينما نحن ننظر
من نافذتنا المطلّة على القمر؟

فكان ردها مُراوغةً بعض الشيء، فقالت.

- لا أشرب القهوة في الليل لأن بها بعض المُنبهات التي قد تُورقني
ليلاً، ما رأيك بأن نشرب سوياً في الصباح الباكر؟

فكان الرد مني مصحوباً بإبتسامةٍ خفيفة.

- لك ما أردتي يا عزيزتي!

ولسان حالي الخفي ينطق: إلى أين ستذهبين مني يا خبيثة! فاليوم

الذي تتهرين منه سوف يأتي رغماً عنك!

ثمّ جلسنا سوياً بالليل أمام شرفتنا المطلة على القمر نتحدث بعد
وَقَع صَمْتٍ لَا يَقْطَعُهُ صَوْتٌ، وَبَيْنَمَا عَرْشُ السَّمَاءِ يَعْتَرِيهِ قَمَرٌ فِي بَدْرٍ. إِذْ
بَصَوْتٍ رَخِيمٍ يَلَامِسُ وَتَرَ الْأَذَانِ فِي حَفِيفٍ وَحْسِيٍّ مَلَأَكِي:

- لمعان حَذَقَةٍ عَيْنَاكِ فِي الضَّوِّ الْحَافِتِ يَسْتَحْضِرُنِي بِمَقْطُوعَةٍ فَرَنْسِيَّةٍ
عَتِيقَةٍ عَزَفَتْ أَلْحَانَهَا لِأَجْلِكَ، وَمَعَ تَتَابُعِ الْقُرُونِ غَابَ صَدَاهَا عَنْ كُلِّ
الْمَعْزُوفَاتِ إِلَّا وَإِنِّي قَدْ عَثَرْتُ عَلَيْهَا أَخِيرًا، كَمَنْ وَجَدَ ضَالَّتَهُ ثُمَّ
إِهْتَدَى.

- "ما لي لا أراها، تُرى أين هي الآن تلك المعزوفة؟" على استحياءٍ
مُفْرِطٍ تَقْصُ "حُور" شَرِيطَ الصَّمْتِ.

فترى "حور" وجهه يتقلّب في السماء:

- إِنِّي أَمَعِنَ النَّظَرَ فِيهَا الْآنَ!

- تقصّد أنّها تسكن السّماء؟

- بل تسكن القمر! قمر وجهك! فمثلك عندي كمثلي القمر في
استدارة وجهه وبهاء ثغراته، وليس على سبيل المبالغة إن صارحتك بأن
القمر يسكن في جوف عينيك.

- أتعلّم يا "ريّان" أنّك أشبه بفوّهة مدفعيّة حربيّة لكن لم تكن أبداً
لتحمّل باروداً، وإنما مشاعِرَ فياضة تنزل على القلب فتزهر!

- "ربما الفارق بين رياحين الحب وطواحين الحرب كبير، ولكن
أتعلمين؟ كنت دائماً على يقينٍ بتواجدٍ قاسم مشترك يجمعُ بينهما" ثمّ
تفيض عيناه بالاتساع.

ثمّ الشغف من داخل عينيها يثور كاللهب المتراقص!

- وما هو يا ثرى؟

- كلاهما يدافعان عن الشيء ذاته.

ثمّ صمّت قليلاً بعد أن ألقى نظرة في النجوم.

- يدافعان عن حق الوجود!

فكان "حق الوجود" آخر كلمة أنطق بها تلقاء زوجتي ورفيقة دربي "حبيبة" من قبل أن تفوح من أعيننا رائحة النوم في جوف من الليل متأخر، وبعد إذ انشرح صدر الصباح بعد الظلام تنفساً. واستيقظت بعد إذ لامست خيوط الشمس جفون عيني فكما معلوم قبلاً لم أجد لها وجوداً فكأن الأرض انشقت وابتلعتها!! تلاشت كما يتلاشى المارة وسط الضباب! حتى جئتني تلك الرسالة ليلاً بعد إذ استيقظت أنها تم خنقها وهى أسفل السرير. حتى وصلت إلى سرايا النيابة العامة وأحادثك الآن يا سيد "مجدي" وكما ترى فأني في حالة يرثى لها. فكيف أحياء بعد اليوم وأنا منكسراً ذليلاً، بينما أجلس أمامك!

فيتتاب تعاريج وجه السيد "مجدي" بعض لمحات التعجب الشديد.

- مهلاً مهلاً، الأمر غير منطقي إطلاقاً يا "ريان" فحين قمت بتكليف النقيب "رفيق" برفع الحراسة عليك، في الواقع هو لم يفعل ما أمرته، ومن تكفل بمراقبة تحركاتك هو الملازم "محسن". والرجل قد شهد بأنك لم تخرج من بيتك لا بعد العصر إلى بيت السيد "مختار"، ولا حتى خرجت مع زوجتك "حبيبة" لتناول وجبة العشاء كما ذكرت، ولا حتى ذهبت إلى أي مكان ليلة مقتل زوجتك!!

كل ما ذكرته عن ما حدث ليلة القتل، وما بعد ليلة القتل هو قصة مُتخلّقة، لم تحدث إلا في خيالك؛ لأنه ما من أحدٍ دخل بيتكما إطلاقاً ليلة مقتل زوجتك، وحتى بعد تفتيش بيتك، فقد أكّد من فتّشوا أنّهم بحثوا أسفل السرير حيث عثرت على زوجتك... ولكنهم لم يجدوها يا "ريّان"!!!! ثمّ أنت من بعد رحيلهم تجدها مقتولة في نفس المنطقة التي قُتل البحث فيها! ثمّ أنت الآن تدّعي الإغماء وقت وجدتها! وهذا تفسيره الوحيد أنّ أحدهم قد اختطفها ثمّ قام بتهريب جثتها، حين لم تجد الشرطة شيئاً في المنزل، وبينما كنت أنت تدّعي الإغماء عليك من الصدمة! راح ودخل البيت ثمّ وضعها في مكانٍ بحثت فيه الشرطة جيداً!! مما يدفعني للقول بأنك هذا الشخص!!!! أنت من قتلت زوجتك!!! وذلك تنفيذاً لما جاء في الرسالة في هاجسٍ منك للوصول إلى من قتل والدك وأخيك! أليس كذلك؟ اعترف!!!



الفصل السادس عشر

"أنت ترى لكنك لا تلاحظ!" شيرلوك هولمز.

سكت قليلاً ثم قال بصوتٍ خافتٍ من خلف مكتبه.

- لقد سبق وحذرتك بأنني سوف أدعك تُدمّر نفسك بنفسك، ألا تتذكر؟ نعم أيها الأحمق!! أنا من يُدبّر كل شيء هنا، أنا من سبق وأن رأيته حين كنت في العاشرة من عُمرِكَ وأنا أهدد والدك في عقر الجريدة، أنا من أمرت بقتل والدك؛ لأنه رفض أن يتسرّر علينا في شحنات المخدرات وفضح سترنا، أنا من أمرت بقتل عمّك؛ لأن وجوده صار هلاكاً لنا، أنا من كان يعرف تخطيطاتك أولاً بأولٍ، تعرف لماذا أيها الأحمق؟ لأن في وسط "السنابل" التي أخفيت خبرها عني طيلة مُحادثتك كان أخوك غير الشقيقٍ بداخلها كبؤرة سرطانية! نعم هو لم يمت بعد مقتل والدك! فلقد عجز الرجال عن قتل صبي في الخامسة عشر من عُمره وأتوا به إليّ، ومن حُسن الحظ أن زوجتي هجرتني؛ لأنني عقيم! فكان أخوك هو ابني الذي حرصت أن يكون مثل والده!

الآن تعرف من هو! نعم هو النقيب "رفيق" أيها الغبي! أما بخصوص الشاهد الوحيد "عادل" في قضية مقتل والدك وأخيك، فلقد كان شاهداً زوراً، وتم استبدال جثة بدلاً من أخيك من المشرحة بوصاية مني دون أن يشعر أحداً.

لقد كان هاجساً لك أن تصل لي، وها قد وصلت، وصلت إلى آخر مراحل حياتك تماماً كلقائك بملك الموت، ألم أقل لك بأن الخديعة هي وقية غير متوقعة، الآن ستدرك تمام المعرفة ما الذي ورطت نفسه فيه، وبعد قليل يأتي تقرير الطب الشرعي فيثبت بأن القهوة المسممة قد شربت منها زوجتك، و"رفيق" الآن في منزلك يبحث عن السم، وحين تتطابق العينات فأنت حينئذ القاتل، وإن كنت قد خنقتها كما تزعم فأيضاً كل التهم توجه سهامك نحوها، وعلى إثرها ينتظرك حكم بالإعدام!!!

أتعلم؟ لقد كان بإمكانك قتلك تماماً حينما بدأ الأمر وتوغّل "رفيق" في "السنابل" وبدأ بإخباري أنك تستهدفني، ونُحِطُ لتحقيق ما تُسميه بالعدالة! أنت أحق للغاية! ربّما ستعرف متأخراً أنك لم تحقق العدالة

أبدًا، وسأكون حريصًا أن أخبرك عن حقيقة الأمر بنفسى ومن حول
عنقك الأحبال المشدودة. قالوا قديمًا بأن سرقة الأمل على بُعد خطوة من
تحقيقه هى أشد على النفس من الخسارة فى بادئ الطريق. هكذا فعلت
بك، فكل يوم كنت أجعلك تظن أنك تقترب منى أكثر فأكثر حتى إذا بى
أربح كل شيء بعد إذ جعلتك تدمر نفسك بنفسك. فأنت الآن ميت
حتى من قبل أن نبذل جهدًا فى تطويق عنقك بالأحبال. لقد سبق وأن قام
"رفيق" بتحذيرك وكثيرًا ما أرسل إليك وإلى بقية رفاقك رسائل تحذيرية
بألا تخوضوا طريقًا قد رقدت تحت أرضه من خاضوه قبلاً. فاستجاب جميع
الأفراد إلا أنت و"عامر"، وبالمناسبة سوف يُحاكم هو أيضًا بتهمة
الإعدام؛ لأنه من قتل الفتاة "فريدة" فى "تُركيا" ولدينا شرائط مصورة
تُظهره وهو يتسلل بهدف إقتحام المنزل ليُفقدوها الوعى وهى تتكلم مع
"دنا" على الباب، ألا تتذكر؟

انظر إلى نفسك، لقد قلتها بنفسك منذ عدة لحظات.

- "وكما ترى فإنى فى حالة يرثى لها. فكيف أحيأ بعدَ اليوم وأنا
منكسرًا ذليلاً، بينما أجلسُ أمامك".

لذا كُنت حريصًا بأن أكون آخر وجهٍ تراه وهو يستجوبك قبل أن تمضي كلبًا ذليلاً في الحبس الإنفرادي حين قدوم ميعاد إعدامك.
صمت.

- دعني أعترف لك سيد "مجدي" بأنك عقلاً مُدبّرًا بحق. لكن أرجوك أتوسّل إليك، سامحني! وأخرجني من هذه الورطة التي أقحمتُ نفسي فيها دون درايةٍ، أرجوك لا أريد الموت! نعم أعترف بأنني قتلتها، وأنني لم أخرج من البيت ليلة مقتلها، وأنني حين أرغمت كلب الحراسة على شرب القهوة فإنه قد مات، لذا قمت بإضفاء بعض القهوة على الشاي الذي شربته ليلة ما قبل الاختفاء المزعوم. حتّى أنّها قالت.
- "ريان" لن أتمكن من شرب بقية الشاي فهو طعمه يغلب عليه القهوة!

وبالفعل حين دخلت المطبخ لإلقاء الكوب سقطت أرضًا جثة بعد إذ جرى السم في دمها!

ثمّ ادعيت في اليوم اللاحق إختفائها وجعلت الشرطة تصدق قصة المخدر الذي وضعت بصماتها عليه! ومن ثمّ قام "عامر" بمعاونتي في

شراء العبوات التي أدخلت البيت في عباءة بيضاء، لكنني خفت أن أخرج وأدفن جثتها بالخارج فيُفتضح أمري، فتكفل "عامر" بكل شيء يخص إختبائها، وأعترف بأن كل ما سرده عن ليلة القتل، وما بعدها ليس بصحيح، أعترف بكل شيء؛ لأنني كنت أحمقًا جازفت بحياتي دون مُراعاةٍ مِنِّي بأن حياة الآخرين على المَحَكِّ بسببي. الآن من فضلك لا أريد الموت أنت تقدر على أن تُخرجني من هذه الورطة، ودعني أتأسف لك، ولكن من فضلك لا تحكم عليّ بالموت! فلحظات وحين يتصلون بك في مصلحة الطب الشرعي فحاول إخفاء الجثة؛ كي لا يتبين أنها ماتت مسمومة!

- هاهاهاها لقد قُضي الأمر، ومع قضاءه قُضي عليك. ألا تتذكر طيلة الوقت أنك كنت مسئولاً عن عواقب أفعالك. ألا تتذكر أن الجميع قد حذرك من خوض هذا المعترك. ألا تتذكر أنك جازفت بكل ما تملك؟ من أجل ماذا؟ من أجل هوس عندك في اللحاق بي، فالآن لا تلومني فأنت من جَئيتَ على نفسك. إن كُنْتُ شيطانًا مريدًا فأنت كنت من الغاوين، سحبْتُك إلى ما أريدهُ تمامًا، جعلتك مهووسًا بأن تقضي

عليّ، جعلتك تفقد ثقتك فيمن حولك. نعم، ربّما قد نسيت إخبارك ولكن "حبّية" أبدًا لم تكن لتخونك!! وإنّما أنا من نزغت بين صدوركم، وجعلتكم في عداوةٍ وبغضاءٍ فسوّلتُ لك قتلها فقتلتها، والآن ها أنت أصبحت من النادمين!

لم لا تخشون من الندم قبل فعلتكم الجريمة وليس بعدها؟ لقد تربّصت بك طيلة الوقت، جعلتك تحسب أنك تملك كل شيء، وما كان الملكُ لك إلا غُرورًا زاهقًا زائلًا، زيّنت لك كل شيء تمامًا؛ ليُناسبك، فما وعدتك من شيء إلا وكان نهايته فيه هلاك لك، لكنك لم تتعظ، ولم تعتبر. ظننت نفسك قادرًا على شيء، وأن قدمك لن تزل بعد إذ ظننت بها الثبوت، لكن هيهات فإن كنت إلا تظن الظنون، بعد إذ كنت طيلة الوقت أنفثُ لك في عُقدِ الكراهية فترى كل شيء من حولك يمشي تمامًا كما خططت.

ولكنك لم تكن تدري أنك طيلة الوقت كُنت دُمية مُتحركة أطراف خيوطها كان أنا وابني "رفيق"، فكنا من نُسيّرُك تمامًا حيثما أردنا. ألم أقل لك منذ قليل أنك أبدًا لم تُحقّق العدالة؟ سوف تعرف فيما بعد كم كانت

"السنابل" التي صنعتها سرًا هي من سهّلت علينا الطريق كثيرًا في عدة أمور، ودعني أخبرك أيضًا بأني لست ملاكًا، وأني شيطانٌ رجيم ربّما كان أفضل ما صنعته في حياتي هو ألا أقتل صبيًا في الخامسة عشر من عُمره! أكنتم تُلقبونه "مُراد" أم "رأفت" كما كانوا يلقبونه في الملجأ هاهاها! لم تكن لتُدرك بأن "رفيق" هو "رأفت" يالصنيع القدر! لحظات ويأتيني تأكيدٌ خبرٍ ما فعلته من مصلحة الطب الشرعي!!
لتحين اللحظة المُرتقبة فيشرع الهاتف بالرنين فيُفتح الخطّ.

- الملازم "مُحسن" يتكلم! لقد كان فخًا يا سيدي! الفتاة لم تمت! حوّل هنا الملازم "مُحسن"! الفتاة لم تمت! هل تسمعني يا سيدي! نحن نُطاردها هي ومن اصطحبها مُنذ خمس دقائق، بعد إذ استفاقت فجأة في غرفة التشريح، وقامت بإصابة طبيب التشريح برذاذ من الفلفل الحار تمامًا في عينيه ثم هربت! حوّل الفتاة هربت ولم تمت! لقد كانت مكيدة! وقبل أن ينطق "مجدي" بكلمةٍ واحدة. فقط استقبل الصدمة ثم أغلق الخطّ. ثم حاول أن يرفع سلاحه من مُحيط خصره المُترهل، إلا وكان "ريان" قد سبقه مُستخرجًا السلاح الذي سبق وأن قام "رفيق"

بإعطائه إياه يوم إقترحام مكتب الطيبة "رغدة". مُستغلاً ثغرة عدم تفتيشه بعدما إمتنع المجندون عن تفتيشه إكراماً له، فهو صديق النقيب "رفيق" وهكذا ظنّ الأغبياء أنّهم بهكذا سداجة يُسدون إليه معروفاً! فقام "ريان" من مقعده على الفور في حركةٍ بوليسية فداثية ممسكاً المُسدس بيده اليُسرى وتامّماً فوّهة المُسدس تقبّع في منتصف رأس "مجدي" على سبيل الخروج، ثم قال.

- أيها العجوز! هل ظننت أنني غبي لتلك الدرجة؟ فكل الغباء لمن ظنّ بنفسه كامل الذكاء! وها قد تقمّصت الدور عليك ببراعة، ولحظات وأنت من ستتوسل بالألتوت.

- أنت أحمق! إن استجرات وضغطت على الزناد فإنك لن تخرج من مكتبي هذا إلا وستكون كل قطعة في جسدك مخترقة بالرصاص! أنت في جهاز المباحث العامة! هل تُدرك ما تُقحم نفسك فيه! إن أطلقت الرصاص فأقسم لك أنك لن تخرج حياً!

ليدخل "ريان" في نوبةٍ تردّدٍ وتذبذبٍ فارتخى المُسدس بعض الشيء، ثم إذ بالباب يطرق في سبيل أن يأذن "مجدي" للخارج بالدخول، فسُرعان ما قام "ريان" بسحب الزناد قائلاً في نبرة تهديدٍ خافتة.

- إن دخل علينا من بالخارج فإن لك الوعد مني بأنك سوف تسمع صوت الرصاصة قبل سماع صوته! وإن لم تُصدّق فاخبرني!

ليستشيط من عين "مجدي" هيبّ حارق، وفي صُحبة نظرة ثاقبة لا ترمش، وسط كتم واضح للغیظ. صمت. ثم صمت نشاز.

- لا تدخل أيها الجرّز الذي بالخارج ليس الآن ميعاد القهوة!

- كما أمرت يا سيدي! سوف أرسل لك القهوة في وقتٍ لاحق.

ليستعيد "مجدي" أنفاسه بعد إذ قارب رزقه منها على النفاد.

- لا أعرف كيف فعلت هذا بهذا التخطيط المُتقن، ولكن "ريان" من فضلك دع السلاح جانباً، ودعني أخبرك بأنني لا أمانع بأن أقبل عرضك الذي عرضته منذ قليل، وأنني سوف أتركك تخرج سالماً، وسوف أعطى لك أموالاً كثيرة، ولك من كنوز الأرض ما طاب لك، ولكن أرجوك لا تقتلني.

- أخشى بأن أحطّم آمالك وأقول لك ما تعرفه! نعم تعرفه! أأست تعلم أنّ من لائحات "السنابل" بأن الجاني لا بُد وأن يأخذ جزاء فعلته بنفس الطريقة؟ بالتأكيد تعلم فكما تمّ غرق ابنة "مريم" فكان مصير

"فريدة" هو الغرق، وكما ذهبت "مرام" بعد موت غادر هكذا كان جزاء
"حسين" وهو رصاصة غادرة!، وكما تم قتل الصغير "يوسف" ذبحاً
فهكذا كان المصير ذاته لقاتله "صفوت"، وفي الأخير كما تم قتل والدي
بالرصاص غدراً وفي عقره ومقر عمله، فهكذا ستقتل غدراً في مقر
عملك.

لقد كنت تتساءل كيف كشفتُ مُحطتك، ولكن دعني أولاً أعدك
بأنني سأخبرك كل شيء، ولكن بينما يحترق جسدك في السعير وفي
العذاب النكير، لا مرحباً بك أيها الطاغوت الأعظم!
فتخرج الرصاصة من فوهة المُسدس فيهتز لها المبنى بالكامل لتسكن
الرصاصة داخل جمجمة شيطان تجسّد في صورة إنسانٍ!! ليغرق سابحاً
في دمه!!! ثم ينطفئ النور عن المبنى بالكامل تزامناً مع إطلاق رصاصة
الغدر، فما يُرى من شيء سوى ظلماتٍ فوقها ظلمات!



الفصل السابع عشر

**الخطبة الناجحة ليست التي لا يتوقعها العدو فحسب بل أيضا
التي لا يتوقعها الحليف!**

ما بعد حوذتي لوثائق ممتلكات جدي.

كُنت في طريقي للصعود من القبو، ألا تتذكر أيها الأحق؟! أخبرتك بأنني حين صعدت تحسست أن أحدهم في المكان ولكن اتضح أنه إنذار كاذب. لا لم يكن إنذارًا كاذبًا، كل ما الأمر أنك كُنت مُغفلًا. فبعدَ إذ صعدت من القبو وفي ظهري مُستندات التنازلات، وحتى حين موعد فتح باب القبو، كان "هاشم" ينتظرنِي، ألا تتذكره من مكانك في الجحيم؟ فهو رجلك الذي لطالما استأمنته! فكان ينتظرنِي بمُفرده وعيناه ترتقب كنزاً بحوذتي. ولكي أروي ظمآنه وعطش جشعه وطمع طموحه، أعطيته الوثائق لتحريرها، ومن جهة؛ كي يلمس في حديثي المُسبق مصداقية. فلمَّا استشعرت أنه استكان في وداعةٍ بعدَ إخباري بأن المال العائد من هذه التنازلات يفوق أضعافاً ممَّا تداين به عمِّي. وقتئذٍ كان الوقتُ مُناسباً لإبرام صفقة كانت لتصيرَ في أقاصي خيالاته!

- نصف الأموال العائدة بعد سداد الديون هي خالصة لك! على شرط واحدٍ فقط فما رأيك؟

كُنت على علمٍ مُسبقٍ بإجابته فكيف يرفض وهو عبدٌ مُرتزق يلهث وراء المال لهثاً، وكيف يرفض وهو يرى زعيمه لا يكسب وُدّه ويُعامله في جفاءٍ يشوبه الاستحقار أثناء حديثه معه بالهاتف! بالنسبة لي كانت اللوحة مُكتملة بأدق التفاصيل وأدهى الصغائر، ببساطة؛ لأنني رأيتها تنساب أمام ناظري وهي تُرسم! كان ردُّه مُتسائلاً في عينٍ يغزوها الخوف خشية ألا يقدر فيضيع المال عليه، فسرِعاً ما قرأت ضحولة أفكاره وقُمت بإخباره فقط أخبرني بكل ما تعرفه عن الطاغوت الأكبر قاتل عمي. فإذا به يُخرج من أنفه زفيراً عميقاً كان يختزنه المسكين طويلاً، فيتسائل

- وما الضامن أنك ستُعطيني المال فور إخبارك؟

فقلتُ.

- هل تتذكر حين قلت إنك لآتٍ بي ولو من قاع المحيط!

ويبدو أنني بالفعل قد فزتُ بودّه في ظرف خمس دقائق، وهو كما أخبرني يعمل لصالحك ستة أعوام. ستة أعوامٍ يا "مجدي" ولم تستطع طيلة هذه المدة أن تضمن إخلاص رجالك لك! صعبُ الميراث أنت يا "مَجدي"! لم تُدرك يا مسكين أن شرك سوف ينكشف ممّن نظرت إليهم بعين الإخلاص، وأنهم سيُذعنون لك بعين الولاء، ويتقربون إليك بقربانٍ من السَّمع والطاعة! ولكن دعني أخبرك أن "هاشم" كان بمثابة المُسمار الأخير في خشبِ نعشك، وميراثه قد أعطيته إياه فذهب النصفُ إلى "هاشم" بعد النطق بكُل ما يعرفه وبالفعل نطق بكلماتٍ أشبه بالرصاصاتِ الثاقبة.

- سوف أخبرك بكل شيء أعرفه. الأمر بدأ بشخصٍ ما يُدعى "صبري" كان يعملُ لدى الزعيم وعلى مقربةٍ منه. فبدأ في يومٍ عن لاوعي يسرد مُتفاخراً عن ضحاياه الذين قتلهم بدمٍ بارد تنفيذاً لأوامر الزعيم بينما كان ثاملاً من شُرب الخمر. فقال يومها الكثير حيال جريدة تُدعى "التراث". ثم قال بأن الأمر بدأ برئيس تحرير جريدة اسمه السيد "مالك".

ثمّ تابع مُستطردّاً.

- السيد "مالك" قام بقذف حجر صغير في بركة مياه تحسبها راكدة! فقد قام بتسليط الضوء في جريدته على تجارة المخدرات، ويبدو أنه قد وصلته إنفرادات صحفية عن شحنةٍ مُهرّبة تم ضبطها، وكانت تلك الشحنة ترجعُ إلى الزعيم. فلما قام السيد "مالك" بنشر الخبر وعلا صيته بين صدى الجموع الغفيرة وإلتفت له غيرُ المُتنبه. صار السيد "مالك" يُشكل تهديداً صريحاً على تجارة يخشى الزعيمُ كسادها. وكما ذَكَرَ "صبري" قد تمّ نصب فخ للسيد "مالك" في عقر داره ومقل حصنه في جريدته وقاموا بقتله فافترش الأرض طريحاً، ولم يقدر "صبري" على قتل الصبي ابن السيد "مالك" بالرغم من كونه يُشكل عائقاً فهو شاهد على جريمة مُكتملة الأركان. ولأول مرة وقف "صبري" يتخطه العجز عن ضغط الزناد. لم يقتله! في الحقيقة "صبري" قرر خطف الصبي إلى الزعيم. ومن أجل إضفاء نكهة على الحكمة أمرَ الزعيم بالنزج بشاهد زور اسمه "عادل"؛ كي يشهد بما لم يراه في قاعة المحكمة. هذا آخر ما قاله لي "صبري" من قبل أن يقتله الزعيم لمجرد أنه يعرف الكثير ربّما

أكثر من اللازم! ظناً منه أنه بمقتل "صبري" تموت الحقيقة معه في قبره!
وبالمُناسبة "صبري" كان قديماً هو حلقة الوصل بيني وبين الزعيم؛
لأنني أبداً لم أرى الزعيم، أما حديثاً بعد مقتل "صبري" فيد الزعيم
اليُمْنى هو شخص يُدعى "رفيق".

دعني استكمل لك، من بعدها لما جاء عمُّك "خالد" كان قد أبرم
إتفاقاً مع الزعيم على أن تُستغل الجريدة في نشر معلومات تفضح ستر
أقرب مُنافسيه في السوق بعد إذ وعده الزعيم بالأمن من شرهم،
وعلاوة عليها قام بإهدائه عينة مجانية من المواد المُخدرة؛ كي يضمه إلى
صفه فلا يحيد. فلما تم نشر الخبر عن معاقل المهريين، والمُشتريين، وكيفية
التهريب وغيره، هُنا إزدادت مبيعات الجريدة بشكل غير مسبوق، وعلى
إثرها بُنِىَ على المعلومات المنشورة سريعاً ما قامت الأجهزة الأمنية
بتعقب أقرب المُنافسين للزعيم في السوق وقاموا بالزج بهم في السجن
مدى الحياة فضلاً عن تنفيذ حكم الإعدام في حق العشرات منهم.
لينجح الزعيم في فرض هيمنته على السوق باعتباره المنفذ الوحيد للبيع
داخل البلاد. حينئذٍ قام برفع الأسعار بمُعدل فائدة يزيدُ عن الضعف!

يومها غَضِبَ عَمَّكَ "خالد" بعد إذ أَحَسَّ أن الزعيم قد تلاعب به مُستغلاً اسم الجريدة في تبديد مُنافسيه ورفع الأسعار من بعدها؛ كي تُنَاطِح السحاب.

فعَمَّكَ بعد أول جرعة من المواد المُخدرة صار زبوناً دائم التردد، وحتى من قبل خواء السوق من المُنافسين كان تقريباً قد أَفْلَس من شراء المواد المُخدرة حتى لجأ للإقتراض من الزعيم. فحينها صَبَرَ عليه الزعيم حتى ينتهي من قطفِ كامل ثمار ما بدأ يُجنيه حتى إذا ما تَخَلَّص من كافة مُنافسيه فإذا به يتخَلَّص من عَمَّكَ "خالد"، فقد رأى أن المال الذي خسره في عمك "خالد" لن يُسَدِّد بعد إذ انقضت مُهلة السداد البالغة من الزمانِ عامين. فرأى الزعيم أن الأموال التي خسرها في عمك قابلة للتعويض على عكس إن وشا به "خالد" للأجهزة الأمنية حيثُذِ الحُسارة ستكون فادحة.

ولم يخف الزعيم أن يفضحه "خالد" من قبل، فقد كان الزعيم كثيراً ما يُذَكِّره بنقاطِ ضعفه في زوجته وأولاده التوأم. فبعد انقضاء مُدة السداد سارع الزعيم بالتعجيل في زهقِ روحه قبلما تُوسوس نَفْسُ

"خالد" ويصير واشياً مُجازفاً بحياته وحياة أسرته. فكان عمُّك هو كبش
الفداء في تنفيذ مُحطّط الزعيم بعد إذ قتل والدك واختطف أخيك!

ما قبل حادثة القتل المزعوم بيومين.. الإجتماع العاشر.
- "من أراد الرحيل فليرحل، فإن من قَدَر على ألا يَرحل وآثر
الرحيل على البقاء، فإن البقاء معه هوَ عين البلاء، وإن في رحيله لا يُترك
من خلفه أدنى فقد أو خواء."

فبعد إذ غادر الجميع بإستثناء "عامر"، كُنْتُ قد سمعت قبل ذلك
بقليل أن أحدهم يعبث في المطبخ، أغلب الظن أنه كان "رفيق" هو من
دسَّ السُّمَّ في القهوة. صراحة لم يخطر على بالي فعلته، ولكنني ربطت
كافة الخيوط بعد إذ إنجلي الأمر لي.

وبعد إذ رحل الجميع فلم يبق سوى أنا و"عامر" فقال والعجز
يتخطه.

- الآن من أين يُمكننا البدء، ونحن لا نعرف من نستهدفه؟

فكان الرد هو سُخرية من كلماته؛ لأنني كنت قد عرفت هوية الزعيم.

فقال "عامر" وعيناه تلهج بتطُّع المعرفة.

- ومن أين عرفت هويته؟ ولماذا أخفيت ذكر ذلك عن بقية أفراد "السنابل"؟

فطلبتُ منه بأن يُعير لي إنتباهه لما سأقوله.

- "رفيق" هو أخي غير الشقيق! كنت أعرف هذا من البداية! حين صدر ذلك الإعلان في الجريدة الذي يستهدف مقابلة كل من لم يأخذ ثأره بالعدالة، فمثل ما تقدّمت أنت، كُنت أعلم أن أخي غير الشقيق هذا سوف يبحث عني، خصوصًا وأن دوافعي بالنسبة له واضحة للغاية. فحين جاء ميعاد المقابلات لم أكن أعرف من هو من بينهم، كان الزمان كفيلاً لأن تتغير ملامح الوجوه، ولكن كُنت أعلم أن أخي يكتب باليُسرى، لذا لو تتذكر طلبت من الجميع ممن قابلتهم بأن يكتبوا أسمائهم، وأرقام هواتفهم في ورقةٍ أعطيتها لهم، والسبب كان لأرى صاحب اليد اليُسرى في كتابته. في الأخير كان ثلاثة فقط من كتبوا

باليُسرَى امرأة، ثم عجوز، ثم شخصٌ تمامًا في عُمر أخي غير الشقيق الذي عرّف نفسه فيما بعد بأن اسمه "رفيق"! والذي كان بالفعل قد أخبرني عنه "هاشم". طيلة الوقت كنت أعلم أن "رفيق" سيساعدني في تحقيق العدالة للأبرياء طالما كان الأذى بعيدًا عن والده الذي صار "رفيق" خادمًا يعمل لحسابه، وبالفعل ساعدني حتى الرmq الأخير، لكن حين تعلّق الأمر بوالده فقد قدّمني له وجبة ساخنة ظنًا منه بأنه سيلتهمني، أو كما قال بأنني سأدمر نفسي بنفسي مثل ما يُهاجم الجهاز المناعي نفسه فيُردي المرء قتيلاً. أما عن هوية الزعيم فلقد تطلّب الأمر صبرًا مريّرًا، كان الأمر يستلزم خطأ واحدًا من "رفيق" تمامًا مثلما فعل حين قُتل "حسين" رُغم أن "حسين" كان أعزلاً وترك السلاح أرضًا، حينها ظهر اللواء "عزت" ليُعارض فعلته بهجومٍ شديد. ولم تكن الفرصة لتتم إنتهازها بأحسن من هكذا فرصة، فكانت اللحظة مناسبة لتبادل أطراف الحديث مع السيد "عزت" خصوصًا وإن كان النقاش سوف يدور على شخصٍ يُبغضه مثل "رفيق"!

يوم الإجتماع التاسع، حيث تم اكتشاف خيانة "هشام" ..

كُنت أعلم مُسبقًا أن كافة تحركاتي تحت مرمى "رفيق"، لذا اتفقت مع "هشام" على أن يتقمص هو دور الجاسوس الخائن من بيننا بعد إذ أعطيته هاتفًا بشريحة جديدة ووضعتها في شنطته، ثم إتصلت به في إجتماعنا التاسع؛ كي تنظلي الخُدعة بأن الخائن هو "هشام".

كُنت أعلم أن "رفيق" سيكون مسرورًا بهذا الخبر؛ لأنه إن تم القبض على الخائن فجميع الشبهات حوله ستتلاشى، لذا كان حازمًا ذو حماسٍ حين أخبرنا بأنه سوف يُبرم صفقة إخلاءه من طريقنا لثلاثة أيامٍ ثم يخرج؛ لعدم وجود أي أدلة ضده، خصوصًا وأن تنظيم "السنابل" هذا ليس قانونيًا. فتزامنًا مع الوقت نفسه الذي كان يتم فيه إجراء محضرٍ مُلفقٍ لـ "هشام" كنت في الغرفة ما بعد المُجاورة لمكتب "رفيق" فجلست مع اللواء "عزت" وعرفت منه ما سعت خلفه في دهاء خفي. وبعد إذ طرق الباب ثم جلست.

- مرحبًا سيدي معك "ريّان مالك" رئيس تحرير جريدة "التراث".
لدينا معلومات مؤكدة عن صفقاتٍ مشبوهة يخوض السيد "رفيق" غمارها، وأنا في حاجة بالغة إلى الملف الخاص به!!!

فقال في تعجّبٍ .

- "رفيق مجدي"؟

فلم أجد لساني إلا وهو يُردد نعم!

ليكون الرد.

- ما هي طبيعة الصفقات المشبوهة؟

- قتل، وإتجار بالمواد المخدرة!!!!

- إن صدق كلامك فإن لك عندي جائزة بحق إيقاع هذا الوغد

الذي لطالما كنت أعلم أنه يستتر من وراءه مصائب!!

وحين بلغني الملف الكامل بـ "رفيق" حيث كل شيء يخطر على

بالك تجده بعدها صار الزعيم معلوم الهوية بالنسبة لي يا "عامر". فكان

مثل "مثل الأب يكون الولد" أمام عيني!! كيف لا ومكتبه بعد مكتب

ابنه بأقل من عشرين مترًا! فكانت المثابرة، والعزم على البدء ولو من

نقطة الصفر هي النقطة الفاصلة التي ما يسبقها يختلف عن ما يليها!

توصّلت إلى هويته متأخرًا ربّما؛ لأن الأشياء العظيمة تستغرق وقتًا

يتناسب مع مقدار كم هي عظيمة! والبشر جميعًا لديهم نقاط ضعف إن

تلاعبت على أوتارها بالكيفية الصحيحة ملكت قلوبهم، فيصبحوا لك عن لاوعي خاضعين، فقط إن عرفت كيف يُمكن استغلال أبسط خطأ لصالحك الشخصي دون أن يتم تصنيفه منهم أنه لصالحك الشخصي.

فكما ترى في ملح البصر كان "هاشم" قد خان شخصاً لم يسبق وأن رآه فقط؛ لأن نقطة ضعفه أنه عبدٌ للمال، وها هو "عزت" قد كان يُمكن ألا يُعطيني أدنى معلومة لولا أن الحديث عن شخصٍ له في صدره منه كراهيةٌ وضعيفة، فحين تلاعبت على وتر المشاعر سريعاً ما استفرغ كل ما في صدره لي بالرغم من أنه لا يعرفني، ولكن المؤكد أنه كان بانتظار شخص ما سيزيح مقدار الكراهية هذا عن قلبه. وها هو عمي "خالد" حين تلاعب به "مجدي" بوتر المُخدرات سُرعان ما فعل ما أمره "مجدي" في سماعٍ وطاعة ثم تخلص منه "مجدي" عند أقرب مُفترق.

تعلمت بالأفصح عن كل ما أعلمه إلا لأولي الثقة فقط، وبما أن الجميع قد غادر إلّاك فأنت محل ثقتي الآن يا "عامر" والمهمة سوف تنجح بنا سوياً.

تسائل "عامر" في دهشة.

- ولكن كيف؟

فإذ بالباب يطرق فكانت "حبّية" قد دخلت البيت بجسارَةٍ. لَيتَم استكمال النقاش إلى ما بعد استلام الرسالة الأخيرة. تمامًا ليلة القتل المزعوم.

- "عامر" لقد قالت الرسالة بأن الزعيم سوف يدعني أدمّر نفسي بنفسِي، ما يعني أنه سيستهدفني أنا وزوجتي، لذا كنت أعلم أنه سوف يستغل كافة المعلومات لصالحه ثم يقلبها في قالبٍ يظن المرء لأول وهلةٍ أنه صحيحٌ. وبالفعل فعل الزعيم ذلك ببراعة، فقام باستغلال كل شيء يعرفه ضد "حبّية"؛ ليجعلني أفعل ما يريد فلا أتردد لحظة في قتلها، وحتى إن فشل الأمر فكان سينظر إلى حيلةٍ أخرى، لذا قررت بأن أغلق عليه كل المداخل وأمضي في ممارسة الأفعبيه الأفعوانية بالطريقة التي تمر على هواه.

"الخديعة هي وقبعة غير متوقعة، تمامًا كالحال الذي أنت عليه، لديك الآن فرصة للانتقام منها ثم أخبرك أكثر عمّن تريد الوصول له والثأر منه، ولكن ذلك يتطلب تضحية بأن يُقتل الخائن من قبل أن يقتلك"

حين رفعت رأسي كانت "حبّية" تحملُ الشاي لها والقهوة لي، وبعد إذ أدارت لي ظهرها؛ لإنارة التلفاز، حينئذٍ قمت بالبدء في شرب الشاي، وحين عادت سألتها على غير العادة أن تشرب من القهوة فامتنعت. ما حدث بعد ذلك هو أنني لم أخرج من البيت قط، ولم أطفئ جهاز التنصّت أبداً، ولا حتى أرغمت الكلب على شرب القهوة. في الواقع أرغمتها على أن تشرب عُنوةً وغصباً. فلو كانت هي من وضع السُّم حقاً فمهما فعلت فلن تشرب أبداً، ولكن بعد طلبٍ مُتكرر مني بأن ترتشف القهوة ولو برّيع الفنجان، وافقت أخيراً.

فإذ بشفتيها تُقارب الفنجان فتلامسه، وحين كانت القهوة على وشك أن تلامس فمها بمقدار أقل ما يُقال عنه أنه أقل من عشرة ملي متر، فيبدو مؤكداً أنها ستشرب منه! حينئذٍ سرعان ما أنقذت الموقف، وسحبت بيدي كوب القهوة من طرف فمها فانسكب على ملابسها وسقط الكوب الزجاجي أرضاً مُتبعثراً إلى فُتاتٍ. حينئذٍ وضعتُ يدي على فمها وأشرت لها بأصبعي بأن تلتزم الصمت، ثم قمت برفع صوت المُسلسل التركي، وتهامست في أذنيها.

- اسمعي! هُنالك من يُريد لنا الهلاك، وهذه ورطة ستظل تلاحقنا مدى الحياة. لكن متى خططنا بإحكام فسوف نتخطى تلك الورطة. لا تُصدري آية صوتٍ فأنتي الآن مُفترض بك أن تكوني في تعداد الأموات، ولا أقدر على أن أتكلم معك بصوتٍ أعلى من هذا؛ لأن البيت مَبْثوث فيه أجهزة تنصت، أقسم أني لا أعرف من وضعها ولا متى وُضعت، ولكننا لن نغلقه؛ حتى لا نثير الشبهات، ولا أعلم أيضًا من وضع السم في القهوة، ولكن حتمًا سوف أعرف ما سوف يدبره "رفيق"!

فتساءلت "حبيبة" في صوتٍ خافتٍ.

- ومن يكون "رفيق"؟ وماذا يُريدُ منّا؟

- ليس الآن، المهم أنتي الآن ميتة، هكذا هي الطريقة الوحيدة لمُقابلة الزعيم، أن يراني في أوج ضعفي. أعرف أن الأمر غاية في الصعوبة، ويستلزم ثقة كبيرة، لكن هذا الحل الوحيد، وما من خيار أمامنا سوى هذا. غدًا سوف يكتشفون أنك ميتة، وسوف أكون حريصًا بأن ينظلي عليهم خدعة لا تصير إلا في خيال أحلامهم! بالمناسبة الكثير في الخارج

يعلمون أن اسمك "حور" هكذا ظننت أن هويتك قد تم إخفائها بعض الشيء.

غداً في الصباح الباكر سوف يطرق الباب شخصٌ يُدعى "عامر".
سوف يكون معه عبوات تثير ضباباً كتلك التي تحدثها الغازات المشرية
للدموع، بالإضافة إلى مخدر سوف أدّعي أنني تم تخديري ولهذا سوف
استيقظ متأخراً، ثمّ نضع بصمات يديكي على عبوة المخدر حتى نجعلهم
يظنون أنكى هربتني بعد إذ قمتي بتخديري!

- وهل أنا بالفعل سوف أهرب؟!

- سوف تأتي الشرطة ومن المؤكد أنّهم سيأتون بزي وأقنعة؛ كي لا
يكتهم الدخان بالداخل، ومن جهةٍ كي يفتشوا البيت قطعة قطعة.
سوف يكون الأمر بالمفاجأة لكنك لن تغادري البيت، بل سوف تبحثين
مع الشرطة على نفسك!

- الأمر مخيف للغاية يا "ريان" ولكن كيف؟

- لا تقلقي حيال الملابس والأقنعة سوف يتكفل بها اللواء "عزّت"
هو في صفنا بغرض إيقاع "رفيق"!

صباح حادثة القتل المزعومة!

بالفعل قبل أن يأتي "عامر" بالعبوات كانت قد وصل طرد يحمل ملابس لها وقناعتين لي ولها. فكانت تمامًا مثل التي تخصص وهكذا عمليات! ثم قامت "حبيبة" بارتداء الزي ثم القناع، وأنا إرتديت القناع ثم فتحت العبوات في كافة أرجاء المنزل، فلا ترى شيئًا إلا ضبابًا مكتومًا!! ثم دخلنا المطبخ، وأخرجنا بعض الخضراوات، ووضعناها أسفل الصنبور، ثم تركنا الصنبور مفتوحًا! ثم دخلنا الغرفة وفتحنا عبوة الغاز الممتلئة بالمادة المخدرة! ثم خرجنا سريعًا!

- "رفيق" اسمعني جيدًا، أخشى أن ما لم أكن أتوقعه قد حدث. "حور" قد إنشقت الأرض وابتلعتها! والبيت مكتومًا بالضباب وأتنفس بصعوبة بالغة، أنقذني يا "رفيق"!!

وبعد إذ خلعت القناع قمت بتكسيه إلى فتات وإلتهمه الصرف.

- "حبيبة" سوف يأتون بعد لحظاتٍ من الآن، سوف تختبئين في الحمام. ثم إذا اطمئننتي أنهم قد اقتحموا البيت للعثور على أدلة إختفائك يمكنك وقتها الانضمام إليهم بنفس الزي والقناع كأنك منهم!!!

" فبدأوا بالخيط الأقوى وهو غرفة الزوجين ثم باقي المنزل ليبدأ البحث وينتهي سريعاً بعد أوّل تطابق اكتشافي لأمر مريب!
ومن خلف أقنعة أحد المسؤولين، وبجانبه مسئول آخر يحترز ما
عثروا عليه:

- سيدي! لقد عثرنا على عبوات غاز في كافة أرجاء المنزل،"
هم أبدأً لن يتخيلوا أنّك ستكونين المسئول الآخر الذي يحترز
الدليل!! سوف تقفين أمام "رفيق" وجهًا لوجه ولن يدري أنّه ينظر إلى
هدفه أمامه مباشرة، التفاصيل لا يدقق أحد فيها أبدأً!
سوف يرحلون عن البيت بعد إذ عثروا على أبعد دليل يؤكد
هروبك! وحين رحيلهم سوف تختبئين مجددًا في الداخل! حتى إذا
إختفت كثافة الضباب سوف أدخل الشقة مجددًا! وبهذا ينجح الشق
الأول من الخطة!

الشق الثاني يتطلب منك أن تكوني فاقدةً للوعي من تأثير عقار
يسبب "CATALEPSY" أو "الإغماء التخشبي" سوف يجعلك
وكأنّك ميتة بالفعل! حتى لو تحسس أحدهم نبضك سوف يؤكد

موتك! فلن تستفيقي إلا وأنتي في الطريق إلى المشرحة، على كل حال لا تقلقي، فلن أسمح لأحدٍ بأن يرى حتى وجهك فضلاً على أن يتحسس نبضك! ذريعة الغيرة قد تؤتي ثمارها في هذه الحالة حتى ولو كنتي ميّنة! حين تستيقظين ستكونين في عربة الإسعاف. أريدك أن تبقى على تلك الحالة لحين اللحظة المناسبة، والتي سيتم سحب جسدك فيها للتشريح؛ لمعرفة سبب الوفاة! وللهرب من الطبيب سيتوجّب عليكى استخدام بعض الرذاذ الحارق الذي سيتم وضعه في محيط خصرك. لن يراه أحد هو صغير للغاية!

فقط حاولي أن تتذكري المكان الذي ستدخلين منه؛ لأنك ستهربين منه ركضاً بينما في انتظارك شخصٌ في سيارةٍ سوداء يُدعى "عامر" هو نفس الشخص الذي مهمته الإتيان بالعبوات الغازية والعقار الكيميائي! اركبي معه، سوف يتركك عند أول مكان تلاقينا فيه "وحي الروح" تذكريه؟ كوني في انتظاري هُنالك، وتمنّي لي الخروج من فم الأسد على قيد الحياة؛ لأنني سوف أقابل الوحش الذي لا يعلم أنّي قد أحضرت معي قفص سجنه! وحين يُشقشق الصباح سوف أراكِ هُنالك، فلا تغيبى.

وبعد إذ اتفقنا على مكان إختبائها والذي سيكون أسفل السرير خصوصًا وأن السرير كان مُغلَق من الأسفل، تمامًا من جميع الأركان، وخصوصًا بأن المكان لم يكن ليخطر على بال أحدٍ أن يروا فيه جثة هامدة! ومع ذلك بحثت الشرطة فيه!

مساء حادثة القتل المزعومة.

وبعد سبعة ساعاتٍ كانت "حبّية" تحت تأثير المُخدر، فاختلفتُ بأن أحدهم اتصل بي؛ لكي تطول الكذبة في الإنتفاخ. وكان تأثير المُخدر ينقضي تمامًا في لحظةٍ المناسبة إذا ما إتصلت بـ "رفيق" الآن، لأخبره في سذاجةٍ وأنا أعرف أنه يعتقد بأنني من قتلها فأقول.

- "رفيق" لقد وجدت زوجتي أسفل سريري مقتولة!

وحين جاء "رفيق" كنت قد حرصت مُسبقًا على تكميم وجه "حبّية"، فخرجت "حبّية" وهى في رداءٍ أبيضٍ، وسط الجموع الغفيرة التي تُشاهد الحدث وتُعطى رأيها بشأن القاتل، مما أضاف مصداقية هائلة لعملية القتل المُزيفة!

أما دور "عامر" كان بأن يفصل الكهرباء بالكامل عن المنبى لشوان معدودات قبل اللجوء إلى مولدات الكهرباء، وذلك بحكم عمله الإحترافي بهندسة الكهرباء، وسيفعل ذلك سواء كان في الدخول؛ كي لا يُكشف وجهي، أو في الخروج؛ حتى لا أكون طريد العدالة بعد تنفيذ عدالتي!

- "عامر" حين تسمع طلقة المسدس فيُمكنك إعتبارها إشارة الإنطلاق!

أما "هشام" عمّا قليل سوف يكون ميعاد خروجه بعد إنقضاء يومه الثالث تزامناً مع حديثي مع الزعيم إن صحّت رؤيائي وفقط حينها يُمكنه تنفيذ ما خططته معه قبلاً، وهو أن يستفز صافرات الحريق بإحدى السجائر المشتعلة بإحدى الأماكن غير المخصصة للتدخين! والآن بعد إذ تمّت المهمة الأخيرة بنجاح، كانت المقولة التي تقول "ليس صعباً أن تغتال سياسياً. الصعب هو أن تنجوا بفعلتك!" تتجسّد أمام عيني!!!!



الفصل الثامن عشر

بين غريزة البقاء ورغبة الخلاص!

منذ أقل من ثلاث ثوانٍ سقط الزعيم! تزامناً مع نجاح "عامر" في قطع الكهرباء مُجدداً في سبيل الخروج من بينهم كشيخٍ لم يُلمح له أثر قبل استخدامهم لمولدات الطاقة! ثم لحظات وكان المبنى بالكامل يضيحُ بصيحات الحريق! بعد إذ نجح "هشام" بأن يستفز استشعارات الحرائق بسيجارٍ قام بإغراق المبنى في شلالات مياة. ما يهم أنه حين سماع طلقة المُسدس، وغياب الضوء، قام على الفور أحدهم بإقتحام الغرفة، فحين فتح الباب كنت عن أقصى يمينه، فتسللت في الظلام وخرجت من الغرفة قبل أن يشعر بوجودي من اقتحمها؛ لأركض مثلما يركض الجميعُ بسبب إنذارٍ بوجود حريقٍ، وفي ظل خروجي من المبنى ارتطم وجهي بأحدهم كان يهْمُ بدخول المبنى فسقطت أرضاً منه وسقط منه شيء على ما يبدو أنه حُرز!

- معذرة!

لكن سُرعان ما حاول التشبيه على وجهي بعد إذ تعرّفت عليه وإذ به
"رفيق"! فكنت أتلوا صلواتي بألا يكون قد تعرّف عليّ. أمّا الحرز فكان
المغفل يحمل القهوة المسومة! لكن حتى تلك اللحظة التي صرخ فيها
من اقتحم المكتب، ويجأر بأعلى صوته.

- لقد قُتل "مجدي" باشا! أحدهم قتله.

وقتها أجزم أن الزمن توقف تمامًا عن التحرك.

ثم لمحت بطرف عيني أن "رفيق" يُحدق النظر لي من الخلف في
خِصَم الظلام بعد إذ نهضتُ، وفي صوتٍ يرتعدُ منه عظيم الجبال.
- "ريان" أيها الحقير!

ثم عدوت بأقصى سرعتي في محاولة للتخفي بين الناس في الظلام،
فما كان من "رفيق" إلا وأن أشهرَ سلاحه ثم ركض ثم أطلق النيران
فرمى به بريئًا ثم الثاني ثم أصابني في الثالث فأرداني أرضًا طريح
التراب!!

ثم نورٌ أبيض هو ما يُبصره النظر.

ما قبل الحادثة المزعومة بيومٍ..

- اسمعني يا "رفيق" أريد هذا الجرز بأن يعتبر، فحين يُفكّر أحدهم بأن في إمكانه الصمود أمام الزعيم فإنه لا يستحق الموت، بل يستحق حياةً يتمنى فيها الموت وما هو بميتٍ. أريده أن يكون عبّرةً، أريده أن يُدمّر نفسه بنفسه يا "رفيق" أريد أن أجعله يجلس أمامي ثم يسرد كل مواجهه ثم أخبره بالحقيقة فأجعل قلبه يحترق حسرةً وهو غير قادرٍ على فعل شيء.

- أمرك يا والدي، لكن قد يتكفّل أحدهم بأمر التحقيق معه حين اقتحم المنزل وفي يدي دليل جريمته إذا فعلها. فنحن لا نعرف كيف ستكون ردّة فعله إذا علّم أنك من تُدبّر كل شيء.

- لا تخف! هو عاجز وليس في يديه أدنى حيلة. دعني أستلذ قليلاً وهو يعاني ويتوسلني بالأضع رقبتَه فوق جبل المشنقة!!
ما بعد إطلاق النار بنصف ساعة.. "وحي الروح"
زوجتي الحبيبة، تحية طيبة وبَعْد..

إن كُنْتَ تقرأين هذه الرسالة فهذا يعني بأن "عامر" قد لحق بك ما بعد هروبك من مصلحة الطب الشرعي، ويعني أيضًا بأنه تركك في

مكان اللقاء الأول "وحي الروح" كما أمرته. أنتِ الآن تقفين تمامًا أمام لوح الخشب الذي وُضع عليه رسائل للأحبة، ومعنى قراءتك لما كتبتَه الآن، فهو يؤكد أنكِ قُمتِ بسحب رسالتي.

دعيني أخبركِ بأن كثيرًا من الرسالة المعلقة أمامك كُتبت، ومن المؤسف أنها لم تُقرأ لمن كُتبت لهم. ربّما كُنْتَ محظوظًا ببعض الشيء؛ لأن رسالتي يقرأها الآن من كتبتها لها. أعني تمامًا أنني قد وعدتك بالمجيئ ما بعد تمام المهمة، لكن حتى في ظلال أشد المواثيق رغبا في الإبقاء عليها، من المؤسف أن تُنكث بلا أدنى حيلة لمنع ذلك. فإن مضى أكثر من ساعة، ثم لم تجديني أمامكِ، فاعلمي بأنني قد فارقت الحياة، ولا يجب أن تبكِ على ذلك. كُل ما في الأمر أنني لم أنجح في الخروج بآمانٍ. أعلم بأن الصدمة مؤلمة حد البشاعة، وأن فجیعة الفراق مؤلمة حد ذبح القلوب نحرًا. لكن أرجوكِ لا تبكِ، فعينكِ لم تُخلق من أجل البكاء. ما حدث لن يجد طريقه للحدوث بطريقةٍ مُغايرةٍ مُجددًا؛ لأنه قد حدث بالفعل، ولا يجب أن تتمني غير ذلك. بعض الخسارات لا يُمكن تلافيها؛ لأنها خلقت لتحدث. ولا يجب أن تتوسّلي لغير ذلك. على قدر

الوفاء يكن الإخلاص، فإن كنتي لي مُخلصَة بحقِ فعاهديني على ألا تنجرفِ بحقِ نفسك في سيلٍ من التخاذل، ولو بمثقال ذرّةٍ من تهاون. فلا أريدُ ضريحًا لي تبكين عنده فتتمسّحين في مناديلك المدماه، ثم تمضي كأن ندوب روحك قد تعافت من البُكاء. لا أريدُ منكِ فعل ذلك، ولا يجب أن تتمني غير ذلك.

"في الواقع سوف تُفجعين دائماً وأبداً. لن تتجاوزي موت محب، ولكنك سوف تتعلمي أن تتعايشي مع هذه الخسارة. سوف تستشفين من جديد حول محور الرحيل الذي عانيتِ منه. سوف تكتلمي مجدداً ولكنك لن تعودِي أنتِ. لن تكوني مثلما السابق. لن تعودِي أنتي ولا يجب أن تتمني ذلك. تعلّمي أن تتواصلي مع الصمت في داخلك، وإعلمي أن لكل شيء في الحياة مبتغى. ليس وجوده عن خطأ أو عن صدفٍ، كل الأحداث نَعَمْ قدمت إلينا لتتعلم منها. الأشخاص الأجل من بين الذين قابلتهم هم أولئك الذين عرفوا الهزيمة والكفاح والعذاب والخسارة، ووجدوا طريقتهم الخاصة للخروج من الأعماق السحيقة. هؤلاء الأشخاص لهم رؤيتهم وحساسيتهم وفهمهم للحياة. يملؤهم

التعاطف والتواضع والبساطة، والقلق المحب العميق. الأشخاص
الجميلون لا يأتون من لا شيء.

دعيني أتقدّم بصلاتي، لا لأكون بمنجى من الأخطار، ولكن
لأقابلها وجهاً لوجه دون وجل. لا لأسأل التفريغ عن ألمي، ولكن
ليكون لي الجلد على تحملها. لا لأتوسّل في رعب شديد، بغية النجاة،
ولكن لأتعلّل بالصّبر حتى أظفر بحريتي. هيّء لي، يا رب، ألاّ أكون
جباناً لا استشعر بنعمتك إلا حين أصيب النجاح، بل دعني أظفر بضمّة
يدك في خذلاني."

إلى عزيزتي..

إن كنت ما زلت تقرّأين رسالتي هذه فهذا يعني بأن الساعة قد
إنقضت، وصار موتي مؤكداً. لذا هذه وصيتي، فاقرأها جيداً ولا تبك.
ستمضي بي الحياة أو بغيري يا حبيبتي، أمّا من يُعاتب المُعانة يتعب،
ومن ينبش في الماضي يمرض. تخفّفي من ثقل الوفاء؛ فإن لك في
التخفف منه شفاء.

زوجتي التي سكنت ديار قلبي ولم تُفارقني..

لم تُفارقيني ولو في خيالي، أمّا الثبات فلمن صدق، وصبر، وعزم
فَعَبَرَ إلى ضفاف الحُب ثم نظر فوجد حبيبته يفتح له أحضان حنانه بعد
وصول. وأنا سوف أنتظرك حين يخلوا العالم من كدرته، ويصفوا لنا،
فقط أنا وأنت. حين تُزهر أرواحنا بعد ذبول ذليل، حين تمضي السنين
العِجاف وتُضاء سنابل أرواحنا الذهبية في حقول الحُب، فتتقلب فيها
تحت أشعة الشمس الرقيقة، وهى تُداعب ظلالنا. وقتها سوف أكون
بانتظارك؛ لنمضي سوياً إلى عالم خلقناه سوياً في خيالات أرواحنا. قد
تتباعد المسافات بين الأشجار، ولكن تعانق الأغصان مازال مُمكنًا. قد
تُقتل الآمال ولكن الولادة مُمكنة، ولو من رحم الحرب. أمّا أنتِ لي
كمثل ما لا يُنقض مع نقض العُهود، كالكثير جدًّا ممّا لا أحتاج على تأكُّد
وجوده بشُهود. في صدد انتظارك، فلا تغيب.

زوجك الحبيب..

طوت "حبيبة" الورقة بعد قرائتها، وماء العين ينسكب مُنهمراً من
عينها بعد انتظار قارب الساعتين من الزمان، ولكن "ريان" لم يأت

أبدًا. نظرت "حبيبة" إلى السماء بعد إذ شقشق الصباح وغرّد الطير تحت
صفحة السماء.

- قد كان لك في القلب ما الله به عليم. ربّما قد غادرت، ولكن من
طغت بصمة جمال وجوده، فإنه لا يرحل مثلما البقية، ولا يرحل حتى
من الأساس؛ لأنه داخل القلبِ موجودٌ، وذكره محفورٌ، وطيب خاطره
مجبورٌ. قد شغفني حُبك، ولا يرمم من بعدك خوفًا كانَ أمان العالم بأسره
فيك. ولا يطيب خاطري من بعدِ غربةٍ إلا الأُنس بك. وسوف أبكي يا
حبيب، حتى يجمعنا اللقاء في الحياة الأخرى. وداعًا أيها الفقيد في الدُّنيا،
غير المفقود في الأفتدة. وداعًا أيها الطيّب. وداعًا يا زوجي الحبيب...



الفصل التاسع عشر

حقائق الأشخاص شهود لا تغيب!

في مكانٍ استخباراتي على عمقٍ سحيق أسفل الأرض، بعد يومين من إطلاق النار!

من أسفل الصنبور، يسحب أحدهم وعاء ماء بعد إذ فاض حتى تشربت منه الأرض حدَّ الإرتواء. ثم إذ بهذا الشخص يمشي رويدًا وفي يديه الوعاء بينما يُعني بصوتٍ يُحيل للسامع أن به مرضًا نفسيًا. حتى إقترَب من شخص مكبَّل بالحبال وكان يجلس على كرسي حديدي، وعيناه مُغممة بعُصبة سوداء لا يرى منها إلا ظلمات بعضها فوق بعض، فضلًا عن أن الغرفة شديدة الخفوت فلا يُنيرها بعد ذلك إلا ضوء باهت تُعمى منه الأبصار من شدة خفوته. فإذ بهذا الشخص يرفع وعاء الماء فينهمر في وجهه من وُضِعَ على الكرسي، ثم يرفع عن عينيه الغمامة فإذا به "ريّان"! هو من تلاطم في وجهه الماء، ليرى أمامه "رفيق" وهو يقف

ضاحكًا مُستهزئًا كأن به وسواس نفسي. ثمَّ يتحدث صراخ "ريّان" حين وضع "رفيق" يده على جُرح "ريّان" بعد إذ أصابه الأخير في كتفه، ثم قام بسحبه إلى ها هنا.

- "ريّان مالك" الشاب الصامد؟ هل تؤدُّ مُناداتي لك بهذا الاسم طيلة فترة بقاءك هنا؟ ودعني أكون مُلفتًا نظرك لكلمة "هنا" تعرف لماذا؟ لأنه ما من وجودٍ لك بالخارج؛ لأنه تم قتلُك من يومين برصاصة مني، وقامت زوجتك ببناء ضريحٍ لك، وتم وضع جثة غير جثتك فيه، بعد تسهيلات كثيرة تم تقديمها لي. لذا أنت الآن رسميًا على قيد الوفاة في العالم الخارجي. الحكمة تقتضي مني القول.

- لا تُنافس إنسانًا يغرق فيه المحيط عمقًا.

لقد جنيت على نفسك بقتلك والدي، ولقد كدت لأقتلُك لو أردت من بعد سقوطٍ لك، لكن كيف تموت قبل أن تعرف الحقيقة؟

ثم يمشي "رفيق" قليلًا وهو ينفجر ضحكًا ثم يصمت فجأة، وعيناه تلفح بالسموم أمام عين "ريّان" الذي يكاد يُغمى عليه من التعب.

- الحقيقة هى أنك لم تُحقق العدالة إطلاقًا في "السنابل"! تعرف لماذا؟ لأنك أنت السيد "ريان مالك" لست المؤسس الحقيقي لها! أعرف أن الأمر يبدو غريبًا لك، لكن ستفهم بعد بضع لحظات.

فإذ بـ "رفيق" يُصَفَّق بيديه عاليًا فإذا بـ "نجيب" ثم "دنا" ثم "حنين" تظهر أشباحهم من وسط الظلام. ليقف ثلاثتهم خلف "رفيق"!

- ألم تلاحظ شيء خلال تحقيقك للعدالة المزعومة؟
فיעلموا الضحك من رُباعتِيهم أكثر فأكثر فيصل إلى حد الجنون اللائمتناهي.

- دعني أخبرك مجددًا أيها الأحمق، بإستثناء "صفوت" فجميع من حققت فيهم عدالتك المزعومة بمساعدة منّا هم في الأصل مُنافسين لنا في تجارة المُخدرات! أولًا ألا تعرف كيف قُمت بإختيار أفراد "السنابل"؟ دعنا نتذكر سويًا!!

اليوم الثالث من تولّي "ريّان" رئاسة تحرير جريدة "التراث"
"عاطل يقتل صديقه لرفضه أن يدفع حساب القهوة، سيدة أربعينية
تُفقد ثم يعثرون عليها قتيلةً، عربية شُرطة تنقل المساجين فتسقط في
بحيرة ماء فيغرق كل من كان على متن العربة بالسائق، طائرة حلّقت من
موسكو فتسقط في شبه جزيرة "البلقان" بعد تعطلّ المحرك عن العمل.
ما هذا يا "ريهام" ليس معقولاً أن يُنشر في الجريدة كل هذه المآسي في
صفحة الحوادث. بالطبع لن أوافق على نشر كل هذه الأخبار السيئة،
أخبري المحررين بأن نتخفف قليلاً من ذكر كل هذه الحوادث
المأساوية!"

ألا تتذكّر؟ نعم بشأن عربة الشرطة التي كانت تمُّ في نقل المساجين،
وتم نشر الخبر في جريدتك بأن جميع من كان على متنها غرق. في الحقيقة
لم يمت من كان على متنها؛ لأن العربة قد سقطت وما من أحدٍ عليها
أصلاً. جميع من كان على متنها تمّ إبرام صفقة معهم في الخفاء بأن يكونوا
أشباحاً ميتة، ولكنهم يبقون على قيد الحياة بهوية جديدة في سبيل أن

يعملوا لدى حسابنا الشخصي. كُل من كانوا يُعارضون الفكرة، كانت تُدبّر لهم مكيدة فيُقتلون؛ كي لا يُفتضح أمرنا.

الآن دعنا في السؤال الأهم، كيف أرغمتك على إختيار من هم يعملون لحسابي دونًا عن الآخرين؟

" فنظرتُ إلى الشارع فكانت جميع المحاور مُغلقة، وكانت العربات تمرُّ من الشوارع الجانبية بهدف إصلاحاتٍ في الطريق "

تذكر يوم المُقابلة؟ يومها كانت جميع الشوارع المؤدية إلى جريدتك مُغلقة طيلة وقت إجراء المُقابلات. فكل من كان سيأتي لإجراء المُقابلة معك في المكتب لم يكن يستطيع أن يأتي إلى جريدتك، ببساطة كما أخبرتك؛ لأن كل الطرق إلى جريدتك تم إغلاقها تحت ذريعة الإصلاحات، ولكن في الواقع لم يكن هُنالك أدنى إصلاحات، وكان الأمر بأسره خُدعة؛ لكي يعبر كل العاملين لحسابي إلى مكتبك؛ لإجراء المُقابلة بعد إذ فتحتُ لهم الطريق. فكان من ستقبله أو سترفضه هو في الأخير يعمل لحسابي! بالطبع تتساءل الآن كيف أفلت "عامر" و"رحمة" ونجحوا في إجراء المُقابلة؟

ما حدث أنهم بالفعل أفلتوا؛ لأنه في اللحظة التي عبروا فيها لم يستوقفهم أحد من رصدوا الكمين بعد إذ انشغلوا في طلب سيارة شاب حديث السن بالمرور؛ لأن والدته تريد أقرب طريق للمشفى وإلا روحها ستزهدق، فعبروا معه ووصلوا إليك، ومن قُبيل الصدفة أنك قبلتهم في مُحطتك الذي كنت أعرفه سلفاً، بأنك ستفعل هذا؛ لتنتقم من والدي، لم أدرك صراحةً أنك ستعرفني، ولا أعرف كيف عرفت هويتي، ولا حتى هوية والدي حتى الآن ولكن لا يهم ما دمت في قبضتي!

دعني استكمل لك، بعد إذ تم قبول المجموعة التي اخترتها قُمت بإرجاع البقية لاستخدامهم في مهمة أخرى. أما من وقع الاختيار عليهم منك، وجلسوا في الاجتماع الأول سادعهم يخبروك الحقيقة، حقيقة كل شيء.

ليُدير "رفيق" ظهره لـ "ريان"، ثم إذا بالمشلة "دنا" تقف مكانه تماماً أمام "ريان" بينما هو قعيد على الكرسي.

- دعني أخبرك كيف بدأ الأمر معي بشأن إنضمامي إلى "رفيق". لو تتذكر فإني سبق وقد قلت في إحدى الاجتماعات بأنني كُنت أتعاطى

المُخدرات، ثم أنني توقفت عن الإدمان. في الواقع هو أنني كنت أتعاطى المخدرات، ولكن تمّ القبض عليّ وهى بحوذتي. بعد فترة تراوحت من الخمسة أشهر إلى ثمانية أشهر جاء "رفيق" إلى زنرانتني.

- "دنا" إقتربي لدي عملٌ لكى، سوف تخرجين من السجن، وسيتم تلفيق خبر موتك على أن تعملى لدى حسابى، فما رأيك؟

رأيتها فرصة العمر لي على أن أمضي بقية حياتي في السجن، وبالفعل وافقت على عرضه في ظل كتمان تام مني، وبالفعل تم تلفيق خبر موتي بعد إذ كنت من المفترض أن أكون في عربة الترحيلات إلى سجنٍ آخر، كممثل الحال في البقية، "نجيب"، و"حنين". كُلنا كنا أصحاب سجلات جرائم، دع "حنين" تُخبرك بقصتها، وبالمناسبة نحن لم نكن أبدًا أصدقاء، المرة الأولى التي أراها كانت حين قَدِمْتُ مُتأخراً عن قصدٍ إلى الإجتماع الأول.

لتراجع "دنا" ويدخل مكانها "حنين" ..

- "رفيق" أخبرنا بأننا سنساعدك في تحقيق عدالة كاذبة، وأن كل الضحايا الذين سنستهدفهم سيكونون هم منافسين له في سوق

المُخدرات. قد تتساءل عن السبب وراء دخولي السجن، والآن قد جاءت اللحظة المناسبة لأخبرك بأنني دخلت السجن؛ لأنني قتلْتُ ابنتي "مريم"؛ لأنَّها غبية وكانت على وشك فضحي أمام أبيها عن علاقتي بزميلي في العمل! والقصة التي ذكرتها عن ليلة غرق "مريم" كلها كاذبة؛ لأنني خنقتها بيدي وقتلتها. أما "فريدة" التي قمنا بقتلها، فهي مسكينة لم تكن تعرف من هي "مريم" من الأصل. ولو تتذكر هي قد اندهشت من رؤية "دنا"؛ لأنَّها تعلم أنَّها قد توفت في عربة الترحيلات تلك! ولكن حين أخبرتها "دنا" أنَّه قد تم نشر اسمها كتشابه أسماء، هنا هدأت سريرتها! ولكن لم تكن صدفة أبدًا! ولم يكن ليعرفها أحد في البلاد قبل سفرها؛ لأنَّها كانت بارعة في التنكر.

أما قصة الغرق فكانت مُلفَّقة، وحتى المُحامي "ليب" كنَّا سبق وأن أخبرناه بأنه سيتجسد دورًا تمثيليًا مقابل حفنة من الأموال، وبالفعل نجح صديقك "هشام" في بلع الطَّعم حين قام بمُراسلة "فايا" والتي هي شخصية خيالية، لذا لو تتذكر كان حسابها الشخصي لا يظهر عليه أدنى تفاصيل، ولو تتذكر فإنني جلست يومها في المدينة، ولم آتِ معكم

إلى الصحراء؛ لاستجواب "لييب" بالرغم من أنَّ الأمر كان يطول ابنتي وأنا الأحق بالذهاب! ولكن هكذا كانت الخطة! فبينما "لييب" يخبرك ما أمرناه قبلاً بإخبارك إياه، وبينما كان "هشام" يُحدث "فايا" كُنت أنا من يتكلم، وأنا من أعطيته كافة المعلومات عن مكان الشخص المُستهدف تحت ذريعة أنها قاتلة "مريم" وكان أخرقاً أعمى فظن أنَّه وصل للحقيقة، فكان كمثّل الأعمى لم يكن يدري أننا من نرغمه على رؤية ما نريد منه بأن يراه.

قد تتساءل من هي التي قتلناها، أو أغرقناها في سبيل تحقيق العدالة، دعني أخبرك بأن "فريدة" هي ابنة أكبر مُهربي المخدرات في البلاد، ورأى "رفيق" أن نتخلص منها حتى نحرق قلب والدها عليه، كما ترى هي مسكينة، لدرجة أنها لا تعلم أدنى معرفة عن شيطانية والدها، وتكن بذلك قد قتلت نفساً بريئة، ولم تُحقق العدالة التي بحثت عنها في هوسٍ؛ كي تُخفف من تقرير ضميرك. قد تتساءل عن "كرم" ذلك الشاب الذي قال لك عنه "رفيق" بأنه المتورط في قتل "مريم" وأن المحامي "لييب" سيرافع عنه. في الواقع فضلاً عن كون المحامي "لييب" لا يعرف من

هو "كرم" إلا وأن "رفيق" قد إتفق سابقًا مع "كرم" على أن يُتقن هو الآخر دوره في مقابل إتفقا عليه سويًا. وبالمناسبة "كرم" متهم في جريمة إغتصاب لا جريمة قتل! والأهم أنَّه حتى حين أعطاك العنوان الذي ذهبت أنت و"رفيق" إليه تحت اسم الوسيط "سامر" فكان الشخص الذي سحبكما إلى المكان قد سبق وأن خطط "رفيق" معه لكل شيء، وحين دخلتما الحارة سويًا ثم طرقتما الباب، وخرج عليكم هذا الشخص الذي يُدعى "عكاشة" ببندقيته، ثم طلب منك "رفيق" الهرب! تتذكر؟ نعم حين سمعت إطلاق نارٍ، ثم خرج "رفيق" بصُحبة صاحب البُنْدية "عكاشة" وهو غارقًا في دمه! في الواقع كان دمًا مُزيفًا، حتى أن "عكاشة" قد أغرقَ ملابسه بالدماء حتى من قبل أن يفتح الباب في سبيل حفظ الوقت، فلا يتبقى سوى صوت رصاصةٍ في الهواء ليخرج به "رفيق" ثم يطرحه أرضًا، ويدّعي الإصابة بكتفه الأيسر؛ ليزيد الواقعة في الحبكة والتراجيكية حين تأتي سيارة الإسعاف، ويهرّبه كما يفعل دائمًا، ثم يستبدله بجثةٍ أخرى، وفي الأخير لا أحد يقدر أن يتحرى وراء "رفيق"؛ لأنه يُغطي على أفعاله في دهاء شديد.

لتراجع "حنين" ويدخل مكانها "نجيب".

- بالمثل يُمكنني إخبارك الآن بأنك بحثت عن عدالةٍ غير موجودة
فقد سُجِنْتُ؛ لأنني قتلت زوجتي "مرام". المجرمة كانت تخونني! أما
عن قصة الإنتحار فقد كانت مُلَفَّقة، ولم تحدث ولو في خيالي. أما عن
الشخص "حسين" الذي توصلنا إليه عن طريق الطيبة "رغد" فهي
كانت متواطئة معنا بفضل صداقتها بالطيبة "حنين" والتي صُدمت بعد
معرفة أنها ما زالت على قيد الحياة. فلا هي تعرف شخصية تُدعى
"مرام"، ولا هي تعرف من هو "حسين". أما "حسين" فقد قتله
"رفيق"؛ ليضرب عصفورين بحجرٍ واحدٍ، الأول بأن تحمد نيران
صدرك وترى أمامك العدالة وهي تتحقق، وثانيها بأن يقضي على
الوسيط الأول في تهريب المخدرات في البلاد، الذي لم يعد يخدمهم
ويخدم منافسيه أكثر؛ لينفردل "رفيق" السوق بالكامل.

ليراجع "نجيب" ويأخذ مكانه "رفيق" مُجددًا.

- أما بخصوص "رحمة" فقد أمرت بقتلها بينما كانت نزيلةً في الفندق بـ "تركيا"، ليس إلا لغرض إخافتك، فتتغاضى عما تبحث عنه، رغم أنني أعلم أنك لن تستجب. أما بخصوص "عامر" ففصلت عدم قتله، ومساعدته في تنفيذ عدالة باطلة، فالمهندس "صفوت" الذي حكى عنه "عامر" لم يكن متورطاً في قتل ابنه الصغير، لكن مع ذلك أوهمتكم بأنه القاتل فقتلتموه! انظر لنفسك الآن ويداك مُلطخة بدم أناسٍ بريئة! في الأخير كنت لي فأر تجارب. أمّا إذا كنت تتساءل من ضع السم وجهاز التنصت في منزلك فلن يخطر على بالك أبداً! ألا تتذكر!

"في صباحِ الفرحَةِ المُنتظرة استقيظت صائِحاً دون فتورٍ رغم أن الأرق كان يُعانق عيناى طيلة سواد الليل. وفيما بعد إذ بالباب يطرق فإذا بها "فاطمة" زوجة عمي "خالد"!! تُعانقني فرحاً بي بعد إذ تبادلت التحية على توأميها "مالك" و"كريمة" حينئذٍ تكرّمت بواجب الضيافة ودعوتهما للدخول ثم صنعتُ لها بعض الشاي"

نعم أيها الأحق!! لقد كانت زوجة عمّك التي بالمناسبة هي من أرسلناها إلى عمّك فوق في شباكها! ثم قمنا باستخدامها؛ لأننا نعلم أنّك تثق بها. في الوقت الذي كنت تجهز لها الشاي كانت من خلفك تفرغ السم في القهوة! ثم من قبل ذلك كانت قد زرعت جهاز التعقب في المكان الذي أخبرناها بعد إذ قام أولادها بإلهائك!!!!

ولم أخشى يوماً أن تخرج عن طوع إرادتي؛ لأنني ظننت أني أعرف عنك كل شيء، كل شيء يا "ريان" لكن تفوّقت عليّ في اللحظة الأخيرة. أنت تعرف أن المعرفة الكثيرة لا بُد وأن تُقابل بمسئولية أكبر، ومن يعرف كثيراً الأولى يغدر بك، لذا فإنه من الأولى التخلّص منه؛ كي لا يستغل ما عرفه ضدك عند أقرب مُفترق.

فيسحب "رفيق" الزناد ثم يُضيء الأنوار، ثم يُصوّب المُسدس صوب وجه "ريان" ثم يجعل كلابه الثلاثة ينطقون.

فيقول "نجيب"

- واحد

ثمّ "دنا"

- إثنان

ثمّ "حنين"

- ثلاثة!!

ثمّ إذ به يُحوّل وجهة المُسدس إلى "نجيب" أولاً فيُطلق النار عليه،
فيُردّيه قتيلاً، ثمّ من بعده "دنا" ثمّ "حنين" فيسقطوا جميعاً في بركة
دماء!!!!!!



الفصل العشرون والأخير

النهايات مخادعة للغاية.. لأبعد حد قد تتخيله

- تدبّر يا "ريّان" ما يحدث حين تعرف عني الكثير!!
فما كان من "ريّان" إلا وأن صرخ في وجهه بكل ثبات.
- أنا لا أهّاب الموت يا "رفيق" فأمثالي إذا رأهم الموت ركض الموت
منهم فرارًا. لكن إن أمكنني تقديم نصيحة لك، فهي بأن تحتفظ
برصاصة في مسدسك هذا؛ لأنّك سوف تكون بحاجة إليها من بعد ما
تقتلني! صحيح أن الفارس الحق لا يموت دون سيفه في المعارك
الطاحنة. لكن ربّما أنا الآن أموت رفقة شيء أعظم يُمكن أن أفتخر به
وهو.....

فلم يقدر "ريّان" على مواصلة الحديث من شدة التعب!!
وما هي إلا لحظات وكان "رفيق" قد استشاط غضبًا.
- هاهاهاهاها أتعلم؟ سوف أنقذ وصيتك الأخيرة، وسوف أفرغ
في جسدك كل الرصاصات إلا واحدة أخيرة، هي من نصيب زوجتك
اللعينة!

- أنت مسكين حتى وأنت في قمة غطرك يا "رفيق" !
فلم يطق "رفيق" استفزازًا أكثر فأطلق الرصاص في "ريّان" حتى
أفرغ مسدسه بالكامل!! إلا رصاصة أخيرة أقسم "رفيق" أنّها سوف
تسكن قلب "حبّية" ثم لا يُسمع همسًا من بعد ذلك، ثم صمت داكن
هو ما يتصدر المشهد من بحيرات دماء جارية، ثم إذ بـ "رفيق" يُطفئ
الأنوار ثم يصعد سلّمًا من تحت الأرض حيث هذا المكان المظلم الشبيه
بالاستخبارات! فإذا به يقف على آخر خطوة أمام باب الخروج من
أسفل الأرض، فيجد شريط تسجيلٍ صغير لم يُعر له إنتباهًا كبيرًا؛ لأنّه
حدثت مشكلة بسيطة جدًّا... أحدهم حبسه بالداخل والباب لم يفتح
أبدًا معه! لقد كان في القبو! قبو منزل جد "ريّان"!!! ولم يكن "رفيق"
يملك مفتاح الخروج! لأنّه تم حبسه بالداخل! فمن كان يقف فوق قبره
كان "عامر"!!!!

في الصباح الباكر من حادثة القتل المزعومة.. بيت "ريّان"
طرق "عامر" باب بيت "ريّان" ففتح له
- "ريّان" هذه هي العبوات.....

فما كان من "ريّان" إلا وأن وضع يديه على فمه؛ حتى لا يتكلم؛ لأنّه لا يعلم أن بالبيت جهاز تصنّت
فقام بعناقه وكأنّه العناق الأخير، ثمّ أدخله البيت وقام برفع صوت
التلفاز وبعيداً عن مسامع "حبيبة"!

- "عامر" اسمعني جيداً! ربّما هذا اللقاء الأخير بيني وبينك! لأنني لا أعلم سوف تتمّ الخطة بنجاح أم لا. لكن في أسوأ الاحتمالات لن أخرج من المبنى على قيد الحياة والأغلب أنني سوف أقع فريسة مهما راحت سوف تعود في الأخير إلى يد "رفيق". قبل ذلك سوف تجلب سيارة غير مرخصة وتنتظر عن أمام مصلحة الطب الشرعي سوف تخرج منها زوجتي وهى تجري سوف تحضرها إلى مكان آمن ربّما "وحي الروح"! أمّا ما أدري بشأنه تماماً إن حدث لي مكروه فإن "رفيق" سوف يُخفي وجودي خشية أن أفصح ستره أو ستر والده إذا حالطني الحظ وقتلت الأخير! أنا لا أعلم إلى أين سيختطفني.

ولكن يا "عامر" أنصت لي جيداً فأنا في هذه الحالة مقتولٌ بلا أدنى أمل في نجاتي! لكن لا أريد "رفيق" على قيد الحياة! بالتأكيد سوف يسبب لزوجتي المتاعب حتى من بعد موتي! يجب أن يموت! لا أدري كيف ولكن أريدك أن تكون مصيره! المصير الذي لو هرب من الأول

فالثاني يلحق به! قد يقوم بإخفائي في أبعد مكان يمكن المرء أن يتصوره حتى يستنزفني أولاً ثم يقتلني هكذا أسلوبه! لا أعلم أين، ولكن لا أريدك أن تتدخل إلا من بعد مماتي هكذا الأفضل لي ولك! وهذه وصيتي قمت بتسجيلها، أريد أن يسمعها "رفيق" بعد مماتي! لا أعلم كيف، ولكن بالنهاية أعلم جيداً أنه يمكنني الاعتماد عليك! قبو منزل "ريّان" .. "المنيا" في منطقة نائية جداً.

- افتح الباب أيّها الحقير! لن أموت هنا!! عليك اللعنة! عليك اللعنة مجدداً!!!!

ثمّ "عامر" والدمع ينهمر من عينيه بعد إذ مات "ريّان" من بعد إذ منعه الأخير من محاولة إنقاذه في وصيته الأخيرة. فإذا ب"عامر" يُفرغ المزيد من الكتل الصخرية على باب القبو حتى تماسكت وصار القبو قبراً لمن يرقد تحته!!!

و"رفيق" يصرخ من رغبة عارمة في غريزة البقاء وما له لمن يُسمع!! - أتوسّل إليك لا أريد الموت!!! لا لن أموت هنا!! افتح الباب!!! ثمّ "عامر" يقطع النور عن البيت بأكمله بما في ذلك القبو! ثمّ يخرج هائماً على وجهه! فيمشي على قدميه بعيداً جداً كعابر سبيل مات الوطن

في قلبه من بعد ما مات أخيه. ثمَّ إذا بالـ "رفيق" يرى النهاية بعينٍ من اليقين! فيرتطم برأسه في أطراف السلَّم حتى فاحَ من رأسِهِ الدَّم، ثمَّ من بين ثنايا الظلام يلمح وَهَجُ شيءٍ ما. إنها آلة تسجيل بها شريط مُسجَّل، فما كان يترقب منه إلا الضغط على زر التشغيل. فيُمسك في حودته آلة التسجيل، ثمَّ يهبط درجات السلم، ومع كل خطوةٍ كان ينخسف بها دركة كان ينكسر بالمثل درجة. ثمَّ إذا لامس الأرض مشى برفقةٍ دمع عينيه المُمزج دُمًّا. ثمَّ إذا به يُزيح "ريَّان" مع على الكرسي من بعد ما قتله فارتمى "ريَّان" أرضًا ثمَّ جلس "رفيق" مكانه! ثمَّ ضغط على زر التشغيل!

—مرحبًا "رفيق" إن كنت تسمع هذه الرسالة المسجَّلة فهذا يعني بأنني ميت أمامك بعدما تمت تصفيتي على يدك، وبما أنَّك ستلحقني قريبًا جدًّا فنحن إذاً صرنا أخوة في الموت! لا ليست صدفة! فالموت يليق بنا أكثر من الحياة! ومع ذلك أراهن الآن أنَّك تُفني ما تبقي منها في الخوفِ خشية الزوال. لكن صدقني يا "رفيق" سوف تزول.. مجددًا يا "رفيق".. مجددًا.. دعني أخبرك بنفس أكثر طمأنينة: سوف تزول! من المؤسف أنَّك تفترض أمورًا ليست حقيقية فتظن النهاية قد انتهت وهي المسكينة ما زالت تشمّر عن ساعدها! ولكن أخشى أنَّني لن أكون

موجودًا؛ لأراك وأنت تحاول الهرب من قدرك. قدرك الذي أنا وبالرغم من موتي أتلاعب به كالدمية! ويالللأسف! ويالللأسف يا "رفيق" اللعبة انتهت.. والنهية قد بدأت بك! ألم تتساءل يومًا كيف لها أن تكون "سبع سنابل" على الرغم أننا في الحقيقة كنّا ثمانية لا سبعة! الآن وقد أدركت، أليس كذلك؟ نعم، أنا، وأنت، وفتى الاختراق، والممرضة، والطبيبة، والممثلة، والمهندسان! لا ليست صدفة يا "رفيق" كل ما بالأمر أنك لم تكن أبدًا لتكون فردًا في السنابل. كان ذلك مُقدَّرًا منذ اللقاء الأول! والآن دعنا بالأهم، ألم أقل لك منذ قليل بأن تترك لنفسك رصاصة أخيرة؟ أو أنني سأموت رفقة شيء أعظم؟ كل ما بالأمر أنني لم أكن أريد أن أفسد عليك المفاجأة وأخبرك بأن الرصاصة هي من نصيبك! في منتصف القلب أو في الرأس، كما يحلو لك! لن نختلف بالنهية! أمّا الآن أنا أموت، وقد أغويت إبليس حياتي بنجاح فجعلته يسكب النار على نفسه فكان الجحيم أنت! انتهى الشريط.

تست بعصم الله.



رسالة شكر وعرفان

إلى عائلتي الذين لولاهم من بعد الله لما بزغ لي من حَرَفٍ نور. أبي،
أمي، أحمد، محمد، وأم عموري، ومحمود.
وإلى كل زميلٍ وصديقٍ وحبيبٍ لم يزهد عن دعمي، وذهبت كلماته
الطيبة في داخلي بعيداً. كما كنت معكم، فاليوم أينما تكونوا كُنتم فيّ.

دُعاء مُحسن

أحمد موسى

يارا عنتر

آية مجاهد

أحمد عثمان

عفاف مُصطفى

نادين الهندي

محمّد مدحت

مرّيم المرشدي

يزن عوّض

ديننا عبدالله

نورهان صلاح

عمر سالم

أمنية السيد

منى طه

حازم عصام

آلاء حسن

والقائمة تطول ولكنّ الله يشهد أنّها ما طالت لموهبةٍ جميلةٍ مني على
قدر ما كان الجمال في قلوبكم أنتم.

